الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

عنوان المذكرة:

الاغتراب وأزمة الهوية
في رواية "كريسماس في مكة" لأحمد خيري العُمَري
- مقاربة نصية -

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر

إعداد الطالبين:

- أحلام بوخاري
- ياسين تركي

إشراف:

إبراهيم قادة

لجنـــة المـنـاقـشـة

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة الأصلية	الصفة
عزوز زرقان	أستاذ التعليم العالي	برج بوعريريج	رئيساً
إبراهيم قادة	أستاذ مساعد أ	برج بوعريريج	مشرفاً ومقرراً
سماح بن خروف	أستاذ محاضر أ	برج بوعريريج	ممتحناً

السنة الجامعية

1444-1445هـ / 2022-2023م

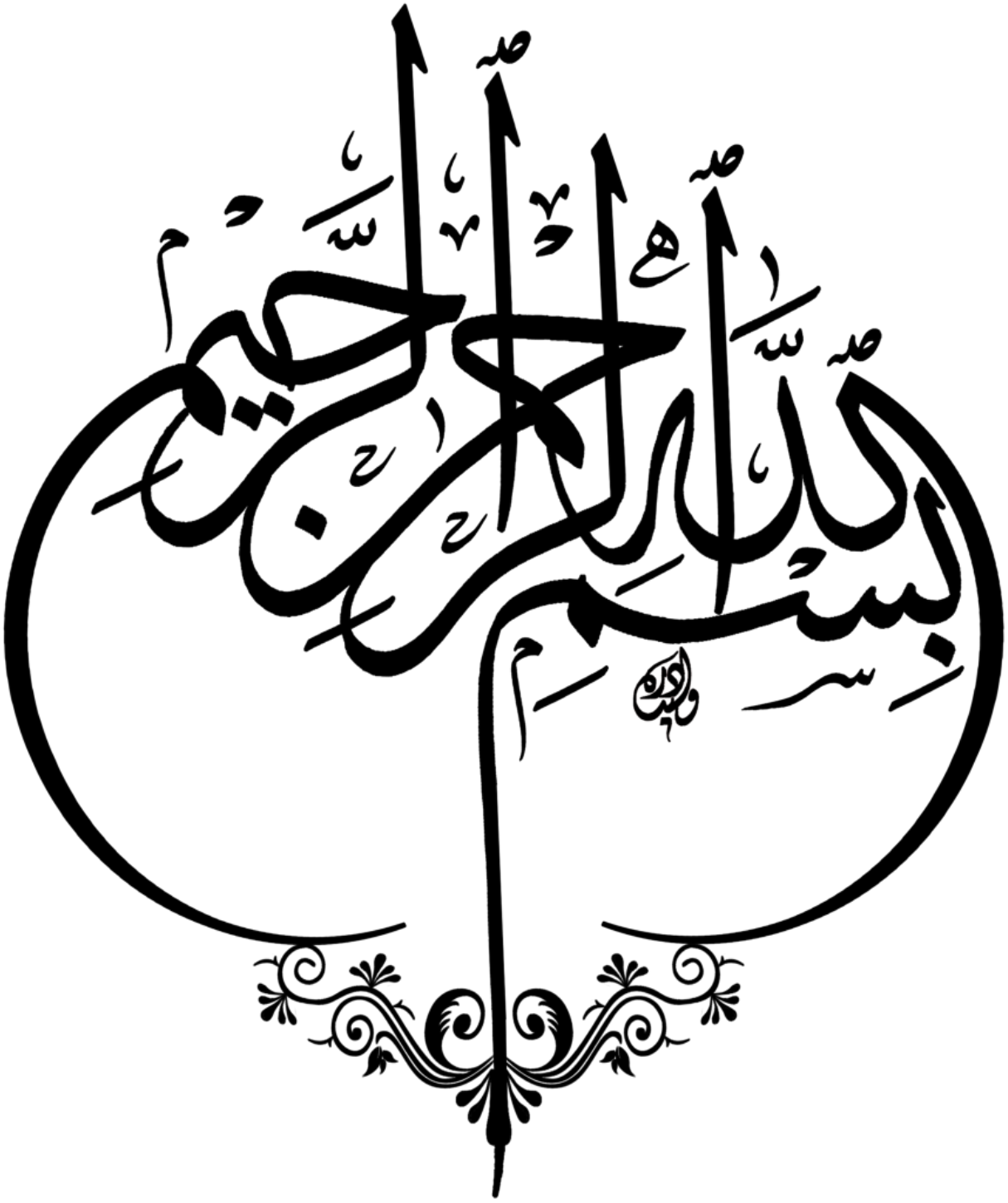
بسم الله الرحمن الرحيم

نارُ الرَّويَّة نارٌ حِدُّ مُنْضجةٍ ... وللبديهَةِ نـارٌ ذَاتُ تَلْـويـحِ

وَقَدْ يَفضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِها ... لكنَّهُ عاجِلٌ يَمْضي مع الريحِ

–ابن الرومي–

إنِّي رأيْتُ أنَّهُ لَا يَكتُبُ إنْسانٌ كِتَاباً فِي يَوْمِهِ إلَّا قالَ فِي غَدِهِ:

لوْ غُيِّرَ هذَا لكَانَ أَحسَنْ، وَلوْ زِيدَ هذا لَكَانَ يُسْتَحْسَنْ،

وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أفْضَلْ، ولَو تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلْ.

وهَذا مِن أعظَمِ العِبَرْ، وهوَ دَليلٌ علَى استِيلَاءِ النُّقْصِ علَى كافَّةِ البَشَرْ.

–الراغب الأصفهاني–

شكر وعرفان

نوجه أسمى آيات الشكر والامتنان والتقدير إلى من أضاء بعلمه عقل
طلبته، وأهدى بالجواب الصحيح حيرة سائليه، فأظهر بسماحته
تواضع العلماء وبرحابته سماحة العارفين...
أستاذنا الفاضل ومشرفنا الأستاذ **إبراهيم قادة**
نتوجه بخالص الشكر وجليل الامتنان وفائق التقدير وكامل الاحترام
على رعايته لهذا البحث بالتوجيه والتقييم والتصحيح.

شكراً على عطائك الدائم من بحر معرفتك الذي لا ينضب
وعلى تشجيعك لنا لمواصلة السير في درب العلم.
جزاك الله عنا وعن طلبة العلم خير الجزاء.

كما نشكر الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة،
الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة...
لجميع الأساتذة الأفاضل في قسم اللغة العربية وآدابها
بجامعة محمد البشير الإبراهيمي، ونخص بالذكر:
الأستاذات الفاضلات: سماح بن خروف، فاطمة الزهراء عاشور، سامية بقاح.
الأساتذة الأفاضل: هشام زميت، الصالح قسيس، عبد الله بن صفية، عنتر مخناش.
جزاكم الله عنا خير الجزاء.

إهداء

"وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

الحمد لله الذي ما تم جهد ولا ختم سعي إلا بفضله...

وما تخطى العبد من صعوبات وعقبات إلا بتوفيقه ومعونته.

أتممنا مسيرتنا الجامعية بفضل الله وتوفيقه،

اللهم انفعنا بما علّمتنا واجعلنا من النافعين لعبادك الصالحين.

ونصلي ونسلم على من أرسله ربه هادياً، وإلى الصراط المستقيم داعياً،

وإلى الحق منادياً، فصلوات الله وسلامه عليه.

نهدي هذا العمل إلى من قال سبحانه جل وعلا فيهما:

"وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"

بوخاري أحلام - تركي ياسين

مـــقـــدمـــة

مقدمة:

بعد أن كان الشعر هو ديوان العرب قديماً، أصبحت بعض الروايات في زمننا المعاصر هي السجل الذي يحوي أرشيفنا التاريخي، ويحمل مشاكلنا كأفراد يخوضون تحديات جديدة ومستمرة مع كل التحولات التي تواجهها مجتمعاتنا. وقد برزت على الساحة الأدبية في هذا العصر كتابات خاصة ركَّزت على الواقع الاجتماعي والنفسي وتناولت القضايا التي ترتبط بالعصر الراهن، وامتزجت فيها مشكلات الإنسان المعاصر الذي يتخبط في هزائم نفسية بدَّدت طاقاتِهِ ونثرت اليأس في قلبه فأصبح يحمل مخاوف وهواجس من الحاضر والمستقبل.

وتُعدّ ظاهرتا الاغتراب وأزمة الهوية في صدارة الموضوعات المتداولة في عصرنا الحالي ومن أكثر المصطلحات شيوعاً، فالمتصفح للروايات العربية يجد أن مَوْضُوعَيّ الاغتراب وأزمة الهوية يتربعان على قمة المواضيع التي تتناولها أغلب الأعمال الروائية وأن لهما حضوراً مكثفاً ومتميزاً، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى وعي المجتمع العربي بأهمية الظاهرتين وحجم التأثير الذي تشكلانه على الفرد العربي، فهما مكونان حاضران في الواقع الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي سواءً على الصعيد الشخصي أم الجمعي. حيث تنتاب الجميع أسئلة من قبيل: من نحن؟ إلى أين نذهب؟ ماذا سنفعل؟ وتتوسع هذه التساؤلات لتنبثق عنها أزمة وجودية أكبر عندما يتعرض الفرد لضغوطات وأزمات تجعله ينفصل عن ذاته وعن مجتمعه ويضيع في اغترابه وتتشتت هويته.

وعلى الرغم أن الاغتراب وأزمة الهوية ظاهرتان قديمتان، إلا أنهما تأزمتا أكثر في الوقت المعاصر وازداد الاهتمام بهما، وهذا ما جعلهما يصبحان مسألتين تعبران عن أزمة العصر، وأضحت قضيةً سوسيولوجية وسيكولوجية في الوقت ذاته، لما لها من تأثيرات على المجتمع وعلى الفرد بحد السواء. ولهذا أوجبت دراستهما فهماً عميقاً للأسباب الاجتماعية والنفسية التي تدفع نحوهما، فضلاً عن العوامل الثقافية والسياسية والتاريخية التي تؤثر على الظاهرتين.

وتبرز أهمية الموضوع في كونه مسألة الراهن وتحدٍ رئيس وإشكالية مهيمنة في عصرنا الحالي لا يمكن التغاضي عنها، وهو يرتبط بالكثير من القضايا والمتغيرات لكل الأفراد، مما يؤكد أن الاغتراب وأزمة الهوية مفهومين أساسيان ومحوريان. كما أن هذه المشكلة تهدد الصحة النفسية والعقلية للإنسان المعاصر وتعكس الواقع الاجتماعي والنفسي الذي يعاني منه الأفراد في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأزمات الذاتية والدينية والنفسية التي تشهدها المجتمعات في هذا العصر، لاسيما بفعل عوامل مثل الحروب وامتزاج الثقافات وما نشهده من تطور سريع وهائل في كافة مجالات الحياة حتى أصبح يسمى هذا العصر بعصر السرعة. فكل هذا يؤثر على نفسية الفرد ويهدد كيانه.

وقد ارتأينا اختيار مدونة كانت خير تجسيد للظاهرتين المعنيتين بالدراسة، فقد لمسنا حضوراً قوياً لهذا الموضوع في رواية "كريسماس في مكة" للروائي العراقي أحمد خيري العُمَري التي اخترناها أنموذجاً لبحثنا، فقد تناولت ظاهرتيّ الاغتراب وأزمة الهوية التي تقوم على منطلقات اجتماعية ونفسية وسياسية ودينية... وركزت بوجه خاص

على المهاجرين العرب الذين يعيشون في الغرب ويتأثرون بما تفرزه هذه المجتمعات من أفكار وآراء ومعتقدات وأساليب حياة منفتحة... كلها أمور تعزز الشعور بالاغتراب وتسفر عن أزمات تمس الهوية وتهددها، وتحيل الفرد إلى شخص عاجز وتائه يبحث عن المعنى. وفي ضوء ذلك جاء بحثنا موسوماً بعنوان "الاغتراب وأزمة الهوية في رواية كريسماس في مكة –مقاربة نصية–".

وانطلاقاً من هذا، وجدنا أنفسنا أمام ثلاث إشكاليات أساسية للبحث هي:

- كيف تجلت ظاهرة الاغتراب وأزمة الهوية في رواية كريسماس في مكة وما مدى نجاحها في تصويرها؟
- ما هي منطلقات الاغتراب وما الذي يصعّد من حدة أزمة الهوية عند الجالية العربية المغتربة؟
- كيف ينعكس مشكل الاغتراب على سلوك الفرد وسماته السيكولوجية؟

ومنهم تطرأ على الذهن مجموعة من التساؤلات الفرعية:

- كيف تناولت الرواية ظاهرة الاغتراب وما هي أهم أشكاله التي برزت بقوة في المتن السردي؟
- ما هي الأزمات التي أصابت الهوية في ظل محنة الاغتراب؟
- هل تؤثر البيئة والظروف الاجتماعية على مدى الشعور بالهوية أو ضياعها؟
- ما هي العلاقة بين الاغتراب وأزمة الهوية؟
- ما هي مؤشرات الاغتراب وأزمة الهوية وكيف جسَّدها الكاتب من خلال الشخوص المختلفة؟

سعينا من خلال هذا البحث إلى الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من خلال مقاربة بنيوية سردية، وبالاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي في التطبيق، والاعتماد على السياق التاريخي في التنظير.

وانطلاقا من الإشكالية والتساؤلات المطروحة، تحددت خطة البحث الذي قسمناه إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

جاء الفصل الأول تحت عنوان "ربط مفاهيمي للاغتراب وأزمة الهوية" والذي بدوره تفرع إلى مبحثين رئيسيين، اختص المبحث الأول بالاغتراب، والثاني بأزمة الهوية، حيث تعرضنا في كل منهما إلى مفاهيم نظرية حملت أهم النقاط الضرورية لفهم ماهية الاغتراب وأزمة الهوية والقضايا المتعلقة بهما. فتناولنا في المبحث الأول منه مفهوم الاغتراب بالعودة إلى المعاجم اللغوية ومدلولاته الاصطلاحية، كما قمنا بتتبع جذور هذا المصطلح وكيف تطور من عصر لآخر ومن مجال لآخر، ثم أبرزنا أهم أسباب الاغتراب وبواعثه المختلفة. أما المبحث الثاني الخاص بأزمة الهوية، فبعد التطرق لمفاهيم الهوية وأزمة الهوية في اللغة والاصطلاح، تطرقنا إلى بعض المسائل الخاصة بأزمة الهوية، منها: أشكال الهوية، عناصرها، مظاهرها والأزمات التي تصيبها، كما تحدثنا باختصار عن قضية أزمة الهوية العربية.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ: "الاغتراب بين راهن الوضع ومسببات الهجرة" فهو بمثابة تمهيد للفصل التطبيقي لأجل فهم وتحليل الظواهر الاغترابية والأزمة الهوياتية وأسبابهما، وقد خصصناه للحديث عن العراق المعاصر والتحولات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي مسته لاسيما أزمة التسعينات وأزمة الألفية الجديدة، ثم النتائج التي ترتبت عنها متمثلة في الهجرة من العراق، هذا في المبحث الأول، بينما سلطنا الضوء في المبحث الثاني على التحديات التي يواجهها المهاجرون في الغرب والصراع بين الأجيال المختلفة.

ثم يأتي الفصل الثالث التطبيقي الذي اشتغلنا فيه مباشرة على الرواية محل الدراسة، والذي عنونّاه بـ: "تجليات الاغتراب وأزمة الهوية في رواية كريسماس في مكة"، فقد خصصنا هذا الفصل لتجليات الظاهرة على مستوى المتن الروائي. فاستخرجنا في المبحث الأول أنواع الاغتراب الموجودة في الرواية، ثم ركزنا على الشخصيات من خلال دراسةٍ سيكولوجية استنبطنا منها أنماط الشخصية المغتربة، ودواعي الاغتراب لديها التي انعكست على سلوكاتها وأقوالها. ثم وقفنا في المبحث الثاني على مظاهر الأزمة الهوياتية في الرواية، فحددنا أكثر المظاهر حضوراً وتأثيراً في المتن الروائي، والمسببات التي أدت إلى ظهور هذه الأزمة لدى الشخصيات.

وأخيراً، توجنا البحث بخاتمة تضم أهم النتائج المتوصل إليها، وأتبعناها بملحق ضم التعريف بالكتاب وتقديم أعماله، وكذا ملخص رواية كريسماس في مكة وغلاف الرواية بطبعتيه.

وقد استعنّا لإتمام هذه الدراسة بعدد من المصادر والمراجع كانت منبعاً استقينا منه مادتنا، وشكّلت مرتكزاً لهذا البحث أهمها:

- دراسات في سيكولوجية الاغتراب لـ: عبد اللطيف محمد خليفة.
- الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع) لـ: حليم بركات.
- أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب) لـ: هاني الجزار.
- الهوية لـ: أليكس ميكشيللي، ترجمة: علي وطفة.

بالإضافة إلى المصدر الأساسي محل الاشتغال وهي رواية كريسماس في مكة لـ: أحمد خيري العُمَري

لا يخلو أي بحث من صعوبات تعيق سيره وتقف حاجزاً في درب إكماله، وليس من الكمال بأن نقول أنه لم تواجهنا أي صعوبات رغم أن الطريق كان معبداً أمامنا ونحن نسير في سبيل إتمام البحث، لكن العوائق دوماً ما تكون موجودة، وقد واجهتنا صعوبات أهمها سعة الدراسات التي تناولت موضوعيّ الاغتراب وأزمة الهوية وتشعبها، لذلك وقفنا عاجزين عن الفصل بينهما واختيار ما يناسب البحث، وكذلك صعوبة تحديد مفهوميّ الاغتراب وأزمة الهوية لكثرة مجالات استخدام المصطلحين واتساع مفهومهما وتعدد دلالتهما، مما صعّب علينا ضبطه وتحديد ما يتناسب وموضوع الدراسة بالتدقيق.

لكننا ذلّلنا الصعوبات بفضل توفيق من الله جل وعلا، والحقيقة أن التجربة التي خضناها أثناء إعداد البحث كانت ممتعة مع أنها شاقة ومضنية، وقد فتحت أعيننا على الكثير من المعطيات الجديدة، فقد كانت فرصة للتشرّب والاستزادة من المعارف الثقافية والتاريخية والسياسية. ثم إن رؤية بحثنا مكتملاً في نهاية الرحلة أنسانا تعب المشوار.

وفي الأخير نسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع، وأن نكون قد نجحنا في تقديم إضاءة للموضوع وإضافة ولو صغيرة للمكتبة والدراسات العربية. ولا ندّعي الفضل لنا في إتمام البحث، إنما هو توفيق من الله أولاً، ثم هو نتاج العون الكبير الذي تلقيناه من أستاذنا الفاضل، فنتقدم بالشكر الوافر للأستاذ المشرف "إبراهيم قادة" الذي خصص لنا من وقته الكثير ولم يبخل علينا بإرشاداته ونصائحه القيّمة التي كان لها الفضل في إخراج هذا البحث على هذه الصورة، نسأل الله أن يجزيه عنا خير جزاء. كما لا يفوتنا شكر لجنة المناقشة كلٌ باسمه، على قبولهم تقييم هذا البحث وتصويب هفواته وأخطائه.

الفصل الأول:

ربط مفاهيمي للاغتراب وأزمة الهوية

الفصل الأول: ربط مفاهيمي للاغتراب وأزمة الهوية

المبحث الأول: الاغتراب

المطلب الأول: ضبط المفاهيم (مفهوم الاغتراب) Alienation

لا ينحصر مفهوم الاغتراب في معنى واحد أو شكل واحد بعينه، فنجده يأتي على أشكال عدة، فهناك الاغتراب المكاني، عندما يغترب الشخص عن وطنه وينتقل إلى مكان آخر مختلف. وهناك اغتراب من نوع آخر حين يغترب الإنسان حتى وهو في وطنه وبين أهله، وذلك عندما يشعر أنه يعيش غريباً في مجتمعه وأنه لا ينتمي إليهم، فالإنسان يحس بالوحدة والعزلة عندما ينفصل عن باقي البشر، وبالتالي يكون الإحساس بالاغتراب داخلياً ونفسياً، وقد ينبذ مجتمعه أو عاداته ويهرب إلى مجتمعات وثقافات أخرى. ويمكن أيضاً أن يصاب الإنسان باغتراب الذات، حيث يجد نفسه وكأنه ينفلت من ذاته، فيصبح كائناً مغترباً عن نفسه وينسلخ عن ذاته.

وعلى اختلاف دلالات الاغتراب ومعانيه، نجد أنفسنا مُلزمين بالإحاطة بنواحي الاغتراب والبحث عن مفاهيمه المختلفة، لنصل إلى فهم شامل لهذا المصطلح قبل أن نتوغل في جوانبه الأخرى. ولتحقيق ذلك، لابد من الرجوع إلى أصل اللفظة والتعرف على دلالاتها المختلفة وتطوراتها، ولتحقيق ذلك وجب علينا تفحص جملة من المعاجم اللغوية العربية والأجنبية، فقد اختلفت تعريفات هذه اللفظة من باحث لآخر ومن سياق لآخر.

1- الاغتراب في اللغة:

جاءت كلمة الاغتراب في المعاجم اللغوية بمعاني متعددة، منها ما جاء في لسان العرب، حيث يعرفه ابن منظور بأنه: "الغرب: الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غَرَبَ عنا يَغْرُبُ غَرْباً... والغَرْبَةُ والغَرْبُ: النَّوى والبعد... وقالوا: هل أطرفتنا من مُغَرِّبَةِ خبرٍ؟ أي هل من خبر جاء من بُعدٍ، وقال يعقوب إنما هو: هل جاءتك مُغَرِّبةُ خبرٍ؟ يعني الخبر الذي يطرأ عليك من بلد سوى بلدك. والتغريب: النفي عن البلد، وغَرَبَ أي: بَعُد، ويقال: اغرب عني أي تباعد. والغُربة والغُرب: النزوح عن الوطن والاغتراب. والاغتراب والتغرُّب تقول منه: تَغَرَّبَ، واغتَرَبَ، وقد غرَّبهُ الدهر، وغريبٌ: بعيد عن وطنه"[1]

ويوافقه في هذا صاحب معجم العين، فيقول: "الغُربة: الاغتراب من الوطن، وغَرَبَ فلان عنا يَغْرُبُ غَرْباً، أي: تنحى، وأغْرَبتُه وغرَّبْتُه أي: نحَّيتُه، والغُرْبة: النوى البعيد، يقال: شقَّت بهم غربة النوى، وأغْرَبَ القوم: انْتَوَوا".[2]

---

[1] جمال الدين ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، ط2، دار صادر، بيروت، مج 1، د.ت، فصل الغين المعجمة، ص638-639.

[2] خليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 2003، باب ض-ق، ص271.

كما لم يبتعد الفيروز آبادي في قاموسه المحيط عن هذا المعنى، فقد ورد فيه: "الغَرْبُ: المغرِبُ والذهاب والتنحي... وبالضم: النزوح عن الوطن، كالغُربة والاغتراب والتغرب"[1]. وقد جاء عن الزمخشري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يُحْصَن، هو نفيه عن بلده، يقال: أغرَبتُه وغرَّبتُه، إذا نحيته"[2]

أما في المعاجم الأجنبية، فنجد أن "الكلمة الإنجليزية Alienation مشتقة من الكلمة اللاتينية Alienation Menits التي تعني الشرود الذهني أو التوهان العقلي، وهذه مشتقة بدورها من الكلمة اليونانية اكستاس Exstas التي تعني الخروج من هذا، ويطلق لفظ اكستاس على الطبيب المعالج الذي يعمل بالتحليل"[3]

وقد جاء في المعجم الفلسفي لـ مراد وهبة أن اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي يقابل ثلاثة ألفاظ في اللغة الألمانية وهي: "entfremdung: يدل على معنى قانوني أي: بيع الملكية. وEntäusserung: يدل على التخارج (خارج aussen). وVeräusserung: يدل على الغربة (غريب fremd) ويعني خلق عمل موجود خارج خالقه، وهو يعني الاغتراب إذا أصبح العمل غريباً عن خالقه"[4]

ورغم تعدد المعاني اللغوية للكملة والمجالات التي تستعمل فيها، مثل المجال القانوني، الفلسفي، الاجتماعي، النفسي... إلا أننا نجد ارتباطاً فيما بينهما بشكل أو بآخر، "وقد كان للكلمة اللاتينية alienatto معنى اجتماعي لا ينفصل عن المعنى النفسي، ذلك لأن أغلب المغتربين نفسياً كانوا أيضاً مغتربين اجتماعياً، فاغترابهم كان في جانب كبير منه أثر من آثار نبذ المجتمع أو تجاهله أو مطاردته لهم، ومن ثم كانوا غرباء بين الآخرين"[5]

من خلال التعريفات السابقة التي وردت في عدد من المعاجم والدراسات، نجد أن معنى الاغتراب اللغوي يدور في معنى الابتعاد والتنحي والنزوح.

2- الاغتراب في الاصطلاح:

تتعدد مفاهيم مصطلح الاغتراب واستخداماته في كثير من المجالات منها الدينية، الفلسفية، السياسية، النفسية، علم الاجتماع... وسنعدد فيما يلي بعض المفاهيم المختلفة لهذا المصطلح من شخص لآخر وفي مجالات مختلفة، ولأنه لا يسعنا في هذا البحث التعمق والتفصيل في تعريف المصطلح وتتبع تطور مفهومه تبعاً لتطوره الزمني ومجالاته، ارتأينا أن نختار بعض التعريفات من وجهات نظر مختلفة، على أن نبدأ بالمصطلح في الفكر الغربي، ثم ننتقل بعد ذلك لتعريفاته المختلفة عند العرب.

[1] محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص119.

[2] محمود بن عمر الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط2، ج3، د.ت، ص58.

[3] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ط1، دار زهران، الأردن، 2010، ص46.

[4] مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط5، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص75.

[5] محمود رجب: الاغتراب (سيرة مصطلح)، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص36.

أ- في الفكر الغربي:

الاغتراب ليس لفظاً أو مفهوماً حديثاً، فهو فكرة قديمة ظهرت منذ القدم ومنذ وجود الإنسان على هذه الأرض، وحين تتبع هذه الفكرة في الآثار القديمة "نجد فكرة الاغتراب في أشعار هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد، كما يمكن إدراك بذورها في نظرية أفلاطون عن الروح* وفي ضوء ما حفل به تاريخ البشرية من الاغتراب، قال بعضهم: إن تاريخ البشرية هو تاريخ اغتراب، تاريخ تشيؤ وتاريخ قهر لهذا التشيؤ"[1] أي أن الاغتراب لا يختص على عصر دون آخر، فالإنسان يعيش حالة اغتراب منذ أن وعي الوجود.

وقد استمدت من نظرية **فرويد** في التحليل النفسي مفاهيم للاغتراب، فقد "صور فرويد الإنسان في ظل الحضارة الأوروبية كائناً مكبوتاً مشوهاً قلقاً مدفوعاً بدوافع لا يعي كنهها، مطارداً بالشعور بالذنب، متنكراً لرغباته الطبيعية، مصاباً بالتوهم، منشغلاً بصحته النفسية... إلخ، ونتيجة هذا الكبت وما يرافقه من معاناة، تصبح الحدود الفاصلة بين الذات والعالم الخارجي غامضة، كما إن هناك حالات تظهر أجزاء من جسد الإنسان ومن حياته الفكرية والعاطفية غريبة عنه وليس من ذاته"[2]

"وقد كان **جان جاك روسو** هو أول من استعمل كلمة "الاغتراب" صراحة في مؤلفه "العقد الاجتماعي"، فقد ورد في الفصل الرابع من الكتاب الأول من العقد ما نصه: إن الاغتراب معناه التسليم أو البيع... فالإنسان الذي يجعل من نفسه عبداً لآخر، إنسان لا يسلم نفسه، وإنما هو بالأحرى يبيع نفسه من أجل بقائه على الأقل. وبعد أن كان الاغتراب مجرد فكرة عند المفكرين، تحول على يديّ **هيجل** إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يطلق عن قصد مقصود، ومن هنا كان النظر إلى هيجل من جانب الباحثين على أنه أبو الاغتراب".[3] وقد عرف هيجل الاغتراب بأنه "حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على منتجاته وممتلكاته، فتُوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص، وبهذا يفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمه وتسهم بتحقيق ذاته وطموحاته، فقال هيجل إن العقل يجد نفسه في حالة حرب مع نفسه ومخلوقاته"[4]

* **نظرية الروح**: اعتبر أفلاطون الروح كأساس لكينونة الإنسان والمحرك الأساسي للإنسان، واعتقد بأن الروح يتكون من 3 أجزاء متناغمة وهي العقل والنفس والرغبة، وكان يقصد بالنفس المتطلبات العاطفية أو الشعورية، ويعني بالرغبة المتطلبات الجسدية، وقد تحدث عن الأمراض النفسية التي تصيب الروح، وتسبب المزاج السيئ والإحباط والجبن والنسيان والغباء. ينظر: أنس نادر: أصنام الفكر وأنانية الروح، الحوار المتمدن، ع5920، 2018.

[1] محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، 2013، ص16.

[2] حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2006، ص49.

[3] محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ص25-26.

[4] حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، ص37

ومع **ماركس** مؤسس الماركسية و**كير كجورد** مؤسس الوجودية، "يبدأ منهجان جديدان للاغتراب بالثورة على هيجل، إذ عد ماركس الاغتراب الاقتصادي الاجتماعي أساس كل اغتراب، ودعا إلى تكريس رفاهية الإنسان. أما الوجودية فقد كرست جهودها لإعلاء شأن الحرية الفردية وصونها من كل ما يمسها أو يخنقها. ويوجز **شاخت** معنى الاغتراب بعدة كلمات، فهو يعني في جملة ما يعني: تفاقم السطحية وافتقاد الحميمية في العلاقات بين الناس، وتفتيت مكونات حياتنا، مضيفاً أنه غياب الإحساس بجدوى الحياة وتفاقم ظاهرة الإلحاد"[1] وهذا على الأرجح أكثر ما يلخص مفهوم الاغتراب في وقتنا الحالي، فالفرد أصبح ضائعاً تائهاً في وطنه ووسط مجتمعه، وغارقاً في أفكاره التي تسبب له الشتات وتجعله يشعر بالبعد والانفصال عن ذاته وعن مجتمع.

فمفهوم الاغتراب يشير إلى "حالة السخط، وعدم الانخراط، والانسحاب، وعدم الالتزام، واللامبالاة، وعدم الاكتراث، والحيادية، فبجانب إحساس الانفصال يوجد الفقدان، فيفقد ذاته في شيء خارج عنه، وبالتالي يسقط الإنسان في التشيؤ: أي يصبح الشيء الذي أنتجه غريباً عنه. ويتناسب هذا التصور للاغتراب مع تعريف الفيلسوف الألماني **إيريك فروم** بقوله: المقصود بالاغتراب نمط من التجربة يعيش فيها نفسه كغريب، ويمكننا القول أنه أصبح غريباً عن نفسه، إنه لم يعد يعيش لنفسه كمركز لعالمه وكخالق لأفعاله"[2]

بينما حددت **دائرة المعارف البريطانية** مفهوم الاغتراب عام 1974م بالآتي:

"1- أنه يتضمن الشعور بالعجز، وهو إحساس الفرد بأن مصيره متروك لغيره، وتحدده مصادر خارجية.

2- أنه يتضمن الشعور باللامعنى، ويقصد به عدم الفهم الكامل، أو عدم وجود معنى الذات في أي مجال من مجالات العمل، وأن الحياة ليس لها معنى أو هدف.

3- أنه الشعور باللامعيارية، ويقصد بها عدم الالتزام الكامل بالتقاليد والضوابط الاجتماعية.

4- أنه العزلة الاجتماعية، ويقصد بها الإحساس بالعزلة والوحدة في العلاقات الاجتماعية.

5- أنه العزلة الثقافية، ويعني شعور الفرد بأن القيم الموجودة في المجتمع غريبة عليه مثلما يحدث في تمرد الطلاب أو التمرد الفكري ضد المؤسسات التقليدية.

6- أنه الاغتراب عن الذات، وهو إحساس الفرد بأنه غريب عن نفسه وليس متوافق معها"[3].

ولعل هذا المفهوم الصادر عن دائرة المعارف البريطانية يلخص كل الآراء والتعريفات السابقة ويجملها في هذه النقاط الستة التي يدور في فلكها الاغتراب، فهذه هي الأبعاد الستة للاغتراب، فهو رهن الظروف التي يعيشها الفرد، بحيث أن كل فرد تؤثر عليه أحداث وظروف معينة تقوده للشعور بالاغتراب وفقاً لما يعيشه والضغوطات التي يواجهها سواءً في مجتمعه أو وسط عائلته أو صراعاته الداخلية والنفسية.

[1] محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ص26-27.

[2] ناهد إبراهيم محمد محمد: الإنسان بين الغرابة والاغتراب في الفلسفة اليونانية، مجلة آداب عين شمس، مصر، ع48، 2020، ص99.

[3] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ص55

ب- في الفكر العربي:

لم تقتصر ظاهرة الاغتراب على الأشعار والكتابات الغربية القديمة فحسب، فقد عرف هذا المصطلح وجوداً منذ القدم عند العرب كذلك، "فقد ورد الاغتراب والغربة مصطلحين حيناً وفكرة حيناً آخر في العديد من أشعار العرب وكتاباتهم... ففي عصر ما قبل الإسلام عرف الشعراء العرب الاغتراب والغربة لفظاً وفكرة وإحساساً في حياة منفتحة انفتاح الصحراء على المخاطر والمجهول، ولم يكن عمر الشاعر سوى اغتراب أزلي استوطن روحه، وأشعره أن الموت قاب قوسين أو أدنى منه. فها هو بشر بن أبي خازم الأسدي يخاطب ابنته أثناء لحظات احتضاره وقد أصابه أسيره الوائلي بسهم، مستخدماً لفظة الاغتراب وقاصداً المعنيين: النفسي والمكاني[1]. (بحر الوافر).

أَسائِلَةٌ عُمَيرَةُ عَن أَبيها ... خِلالَ الجَيشِ تَعتَرِفُ الرِكابا
تُؤَمِّلُ أَن أَؤوبَ لَها بِنَهبٍ ... وَلَم تَعلَم بِأَنَّ السَهمَ صابا
فَإِنَّ أَباكِ قَد لاقى غُلاماً ... مِنَ الأَبناءِ يَلتَهِبُ اِلتِهابا
وَإِنَّ الوائِلِيَّ أَصابَ قَلبي ... بِسَهمٍ لَم يَكُن يُكسى لُغابا
مَن يَكُ سائِلاً عَن بَيتِ بِشرٍ ... فَإِنَّ لَهُ بِجَنبِ الرَدهِ بابا
ثَوى في مُلحَدٍ لابُدَّ مِنهُ ... كَفى بِالموتِ نَأياً وَاِغتِرابا
رَهينَ بِلىً وَكُلُّ فَتىً سَيَبلى ... فَأَذري الدَمعَ وَاِنتَحِبي اِنتِحابا[2]*

وقد عرف **أحمد خيري حافظ** الاغتراب بأنه "وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة له بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق، وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابي أو الشعور بفقدان المعنى واللامبالاة ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي"[3] .وترى مها عبد الله الزهراني أن "الاغتراب: نقيض الاقتراب، وهو الابتعاد عن الأهل والديار والوطن، والإحساس بالوحدة، والشعور بانقطاع الإنسان عن الأشياء والأشخاص الذين يحيطون به، والشعور بالسأم والوحشة بين الأهل والناس وأبناء المجتمع، وعدم الشعور بالتعاطف أو البهجة شعوراً صادقاً، وقد يكون الاغتراب زمانياً أو مكانياً أو ذاتياً أو وجدانياً"[4]

[1] محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ص17.

[2] مجيد طراد: ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص35-36.

* **المفردات والمعاني**: **عميرة**: هي ابنة الشاعر. **تعترف الركاب**: تسأل القوم الذين يركبون الإبل عن خبر لتعرفه (عن أبيها). **تُؤمل**: ترجى. **أؤوب**: أعود وأرجع. **نهب**: غنائم الحرب. **يلتهب التهابا**: يتحرق من الغضب (أي أن أبيها لاقى قوماً تصدوا له). **اللغاب**: الريش الرديئ يُكسى به السهم فلا يعتدل ولا يلتئم فإذا رمي به لم يذهب بعيداً ولم يصب (بمعنى أن الرجل من بني وائل أصاب قلبه بسهم محكم الصنع غير فاسد). **الرّده**: موضع دفن فيه بشر. **رهين بِلى**: جعل نفسه رهيناً للفناء. مجيد طراد: ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص35-36.

[3] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ص49.

[4] محمد موسى البلولة الزين: بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في الأدب العربي، الاغتراب والحنين في الشعر المهجري، جامعة الخرطوم، قسم الأدب واللغة العربية، 1997، ص9.

واستناداً لكل ما سبق، نجد أن مفهوم الاغتراب في الفكر العربي لا يختلف عما تناوله فلاسفة وباحثي الغرب، وهو على تعدد وكثرة الدراسات التي تدور حوله، لا يزال مصطلحاً محاطاً بالكثير من الغموض والالتباس.

3- الغربة والاغتراب: مفارقة مصطلحية

من الصعب التفرقة بين هذين المصطلحين نظراً للتداخل الكبير بينهما، خاصة وأننا نجدهما في كثير من الكتابات تستعملان للدلالة على مفهوم واحد، وقد ورد في كتاب محمود رجب "الاغتراب: سيرة مصطلح" أن الكلمة العربية: "غربة استخدمت في سياقين أساسيين: ديني من ناحية، ونفسي-اجتماعي من ناحية أخرى.

أ- سياق ديني: عبرت قصة خلق آدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض عن فكرة الغربة، وذلك من خلال انفصاله عن الله، وقد عبر ابن عربي عن هذه الفكرة بكلمة الغربة وفعل الاغتراب، فكتب يقول: إن أول غربة اغتربناها وجوداً حسياً عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة.

ب- سياق نفسي اجتماعي: وهو سياق حافل ومتنوع في تراث اللغة العربية، ابتداءً من الشعر حتى التصوف، ولا يمكن أن نجد تعبيراً عن الاغتراب بمعناه النفسي- الاجتماعي أبلغ ولا أعمق من ذلك الذي نجده عند الأديب أبي حيان التوحيدي حين يقول: هذا وصف غريب نأى عن وطن بُني بالماء والطين... فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان؟ ولا طاقة فيه على الاستيطان؟ بل الغريب من هو في غربته غريب"[1]

ونلاحظ أن المعاجم العربية لم تفصل بين الغربة والاغتراب في تعريفها اللغوي للمصطلح، فكما سبق العرض في العنصر الأول من هذا المبحث، عندما عددنا التعاريف اللغوية المختلفة التي جاءت في المعاجم العربية، نجد أنها تدور في سياق واحد، وتتفق جميعها على أن الغربة هي النزوح عن الوطن. والاغتراب كذلك لا يبتعد عن هذا المفهوم، وكلاهما يتفقان كذلك مع المعنى الاصطلاحي للكلمة، وبهذا يكون "المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاغتراب واحد: الغرب والغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد هو الذهاب والتنحي عن الناس، وكذلك في المعنى الاصطلاحي، أي أننا نستطيع أن نحل مصطلح "الاغتراب المكاني" بدل مصطلح "الغربة المكانية" و"الاغتراب الروحي" محل "الغربة الروحية" وهكذا"[2].

وبهذا، توضع كلمة الغربة في نفس السياق مع الاغتراب، فهما مصطلحان لمفهوم واحد، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما، مما يمكّننا من القول إن الغربة بمعنى الاغتراب. وقد انتقل مصطلح الاغتراب إلى مجالات كثيرة مثل الفلسفة وعلم الاجتماع والمجال النفسي والديني... إلخ، فأصبح يحمل دلالات مختلفة حسب المجال والسياق الذي

[1] محمود رجب: الاغتراب (سيرة مصطلح)، ص40-42.

[2] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ص42.

يستعمل فيه، فقد "تطور المصطلح من دلالته الأصلية أي الانتقال من المكان أو الانفصال عنه إلى دلالات العزلة والانسلاخ وعدم القدرة على الاندماج في المجتمع، وعدم الشعور بأهمية الحياة، إلى غير هذا من الدلالات الدينية والفلسفية والاجتماعية..."[1]

بينما نجد رأياً آخر يخالف هذا الرأي، حيث يميز عبد اللطيف محمد خليفة بين الغربة والاغتراب، فيرى أن "الغربة كثيراً ما تكون قسرية بسبب ما يتعرض له الإنسان من ظلم وخوف أو جوع، أما الاغتراب فهو طوعي يختاره الإنسان لأسباب منها: عدم الانسجام مع المجتمع والعجز عن الانتماء، والمخالفة في الفكر والمعتقد. كما يفرق بعض الباحثين أيضاً بين هذين المصطلحين، فيرون أن: الغربة تعني البعد عن الوطن والأهل، على حين يتسع معنى الاغتراب حتى يشمل البعد عن العالم بل البعد عن الذات، ونجد مصطلح الاغتراب أكثر شيوعاً في كتابات الفلاسفة والمفكرين"[2] وبهذا، فإن هذا الرأي يربط مصطلح الغربة بالهجرة والابتعاد عن الوطن –أي الاغتراب المكاني–، أما الاغتراب فيجعله متعلقاً بمشاعر العزلة وعدم الانتماء والنفسية المرَضية التي تصيب الإنسان بسبب تغربه، ويكون هذا الاغتراب: اجتماعي، سياسي، نفسي، ذاتي... إلخ.

وتأسيساً على ذلك، ومن التعريف اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الاغتراب، نصل إلى قول شامل في مفهوم الاغتراب، وهو أنه ورغم تناوله بأساليب وآراء مختلفة من شخص لآخر، إلا أن كل الدراسات والكتابات التي عالجت هذا المفهوم وهذه الظاهرة، تدور في فلك واحد، وتتضمن عناصر ومكونات معينة تندرج تحت مفهوم الاغتراب وهي: العزلة، والابتعاد عن المجتمع، والانكفاء على الذات، والشعور باللامعنى والضياع، وعدم وجود هدف في الحياة، والشعور بعدم الانتماء، والعجز... أي الغربة الاجتماعية والانفصال عن الآخرين. إضافة إلى دلالته الثانية، وهي الاغتراب المكاني، أي الهجرة والابتعاد عن الوطن. ونجد أن أغلب المفكرين والباحثين يتفقون على هذه المفاهيم رغم وجود اختلافات بسيطة حسب المجال الذي ينتقل إليه المصطلح.

4– تطور مفهوم الاغتراب:

بعد التعرض لمفاهيم الاغتراب المختلفة، سنعرض في هذا العنصر بشكل أكثر تنظيماً واختصاراً كيفية تطور مصطلح الاغتراب وتغير دلالته عبر الزمن، فقد مر بثلاث مراحل أساسية، وقد لخص محمود رجب تاريخ مصطلح الاغتراب. "والمسار الذي سلكه هذا المصطلح حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من شيوع وانتشار في حياتنا الثقافية المعاصرة، وقسم مسيرة المصطلح إلى ثلاث مراحل:

أ– المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل هيجل: حيث يحمل مفهوم الاغتراب معاني مختلفة تكمن في سياقات ثلاثة هي: السياق القانوني (بمعنى انتقال الملكية عن صاحبها وتحولها إلى آخر)، والسياق الديني (بمعنى انفصال الإنسان عن الله)، والسياق النفسي الاجتماعي (بمعنى انتقال الإنسان عن ذاته ومخالفته لما هو سائد في المجتمع).

[1] عبود شلتاغ: في المصطلح الثقافي والتغريب، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع33، 2001، ص51.

[2] محمد موسى البلولة الزين: الاغتراب والحنين في الشعر المهجري، ص9–10.

ب- المرحلة الثانية: المرحلة الهيجلية: على الرغم من استخدام مفهوم الاغتراب قبل هيجل، فإنه يعد أول من استخدم في فلسفته مصطلح الاغتراب استخداماً منهجياً مقصوداً ومتصلاً، حتى أطلق على هيجل "أبو الاغتراب" حيث تحول الاغتراب على يديه إلى مصطلح فني.

ج- المرحلة الثالثة: ما بعد هيجل: حيث بدأ التركيز على مصطلح الاغتراب بالمعنى السلبي، فاقترن في أغلب الأحوال بكل ما يهدد وجود الإنسان وحريته، وأصبح الاغتراب كأنه مرض أصيب به الإنسان الحديث. ومن أبرز المفكرين والفلاسفة الذين جاؤوا بعد هيجل واهتموا بتناول الاغتراب: ماركس، والوجوديين الذين انتقدوا هيجل وثاروا عليه، ومنهم سارتر."[1]

المطلب الثاني: أسباب الاغتراب وبواعثه

مهما تعددت أشكال الاغتراب وأنواعه، فهو أمرٌ لا يأتي من فراغ، وإنما هناك عدة بواعث وأسباب تفضي بالشخص للوصول إلى هذه المرحلة من التمزق والمشاعر المرَضِية. ويمكن القول عامة أن الظروف التي يعيشها الإنسان في المجتمع المعاصر والتحولات التي تصيب شتى مجالات الحياة، وكذا الأزمات التي يمر بها على المستوى الشخصي أو الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلده، كلها عوامل تؤثر على الإنسان، وتنمّي إحساسه بالاغتراب بأنواعه المختلفة. ومن أبرز بواعث هذه الظاهرة ما يلي:

1- الاجتماعية:

الإنسان بطبعه كائن اجتماعي، لذلك فهو يتبادل مع مجتمعه علاقة تأثير وتأثر، والمجتمع يعيش الكثير من الصراعات والتخبطات يروح ضحيتها الفرد وصحته العقلية والجسدية والنفسية، فهو يكابد حالة حيرة وتفكك وتخبط بين ما يعيشه وما يطمح للوصول له، وبين ما هو كائن وما يفترض أن يكون، وبين ترسبات ماضيه ومحصلة حاضره، بالإضافة إلى ضغوطات المجتمع والقيم السائدة التي ربما يتقبلها وربما يرفضها، فيعيش حالة تمزق ويتعمق شعوره بعدم الانتماء لهذا المجتمع.

فيكون في هذه الحالة أمام خيارين أحلاهما مر، إما محاولة التعايش مع هذا الوضع، والذي يؤدي به إلى الإحساس بالاغتراب فيه، وإما الهجرة والبحث عن وطن آخر يغنيه عن الألم الذي يكابده، فالرحيل عن الوطن سببه إما ظروف اجتماعية قاهرة، أو أسباب شخصية حتمية، أو ربما رغبة من الفرد في التغيير ببساطة، ولكن من بين أكثر الأسباب التي تدفع بعض الأشخاص للنزوح هو البحث عن ظروف معيشية أحسن ولاسيما في البلدان العربية التي تعاني من تدهور الأوضاع المعيشية وطغيان المادة، "فالمادة هي السبب الرئيسي في هجرة ونزوح العاملين إلى بلاد أخرى غير بلادهم، يتحمل فيها المغترب صنوفاً متعددة من السلبيات"[2]. فالهجرة اليوم تعد هروباً من

[1] ينظر: عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، د.ط، دار غريب، القاهرة، 2003، ص21-22.

[2] ياسين طالب: الاغتراب (تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين وأوضاعهم)، ط1، المكتبة الوطنية، عمان، 1992، ص18.

الواقع بكل تفاصيله، حتى أنه لا يجد في هذا الهروب خلاصاً تاماً من شقائه، فالعيش في بلد غريب له آثار سلبية أكثر منها إيجابية، حيث يعاني جل المغتربين من صعوبة التكيف في المجتمعات الجديدة، والحنين إلى الوطن، والشعور بالاغتراب، ويصل الأمر حتى إلى الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية عند البعض.

إضافة إلى الضغوطات الاجتماعية التي يواجهها الفرد، وفشله في تحقيق المعايير العامة التي يفرضها عليه المجتمع، ووقوفه عاجزاً أمام التطور السريع الحاصل وعدم توافقه مع المعايير الجديدة، كما أن السلوكات والممارسات الخاطئة وشتى أنواع الآفات التي تنتشر في المجتمع، لها تأثير سلبي على الفرد الذي يحاول أن يعيش حياة كريمة "فيكتئب المرء ويتذمر من هذه القيم السلبية لأنها تتباين وقيمه الخاصة، يجد نفسه بين أحضان عالم غريب رهيب ومجتمع مزيف يحمي الرذيلة والتخلف، ونظراً للأزمات والصراعات التي جعلت من المجتمع المعاصر مجتمعاً متناقضاً، أصبح الإنسان مهمشاً وتدمرت قدرته على التكيف البيولوجي والثقافي مع بيئته الاجتماعية، وكل هذا أدى إلى ما يعرف بالشقاء المجتمعي الذي يعبر عن ارتفاع وتيرة اللاعقلانية في التعامل مع الذات والواقع على حد سواء".[1] فكل هذه الأسباب تترتب عنها آثار سلبية تجعل الفرد يصبح كائناً منعزلاً يحاول النأي عن كل مسببات القلق والاضطراب، ويحيط نفسه بقوقعة تعزله عن غيره من أفراد المجتمع.

2- الاقتصادية:

يتفق أغلب باحثي علم الاجتماع أن الاغتراب الحاد الذي يعانيه الفرد والمجتمع نتاجه الرأسمالية، وينطلق كارل ماركس من مفارقة أن الإنسان في الأصل هو الذي ينتج رأس المال، لكن في الواقع أصبح رأس المال هو الذي ينتج الإنسان، ومنه تولد اغتراب للرأسمالي والعامل على حد سواء رغم تناقضهما، "والفارق بين اغتراب كل منهما أن الرأسمالي يجد في اغترابه الذاتي قوة وخير، ويجد العامل في اغترابه الذاتي أنه لا حول ولا قوة... وبالتالي فالعامل هو الشخص الأولي والأساسي لظاهرة الاغتراب، فإذا كان ناتج العمل لا ينتمي إلى العامل، يُنتِج العامل علاقة إنسان غريب عن العمل"[2] فالعامل يشعر بأنه لا يملك السيطرة على نتاج العمل، وبالتالي لا يشعر بمتعة الإنجاز ولا بجدوى عمله، حيث يرى نفسه مجرد آلة وُجدت لإشباع رغبات الرأسماليين وزيادة ثرواتهم، بينما لا يستفيد العامل شيئاً من كل جهوده المضنية.

وعندما يشعر العامل بأنه بلا قيمة وأنه فرد غير فعال في مكان العمل والعملية الإنتاجية، يصاحب ذلك شعوراً حاداً بالاغتراب. إضافة لذلك، فإنه إن كان يواجه في مكان العمل ظروفاً قاسية، أو يعاني من ضعف في العلاقات الاجتماعية بين الموظفين الذين يعملون معه أو مع إدارة العمل، أو يشعر بعدم القدرة على السيطرة على عمله أو إنتاجه، أو يشعر بعدم الانتماء لمكان العمل، فإن كل ذلك يعزز شعوره بالاغتراب، ويصبح مغترباً عن

[1] ينظر: سماح بن خروف: مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، جامعة الحاج لخضر، قسم اللغة والأدب العربي 2011-2012، ص41.

[2] مراد وهبه: الاغتراب والوعي الكوني (دراسة في هيجل وماركس وفرويد)، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، 1979، ص103-104.

عمله، وهذه أحد مظاهر الاغتراب الاقتصادي، حيث "يعامل الفرد كما لو كان شيئاً وأنه تحول إلى موضوع وفقد إحساسه بهويته، ويشعر بالعجز وعدم السيطرة على مراحل وإيقاع عمله، وكذلك شعور الفرد بأن العمل لا معنى له سوى أنه وسيلة للكسب والتعايش. هذا بالإضافة إلى التمرد، حيث شعور الفرد بالرفض والكراهية لما حوله من قيم ومبادئ وأساليب عمل وفلسفة ومنظمة، وهو ما يفضي إلى رفض أو عدم تقبل لذاته وغيره"[1] فاغتراب العامل هنا يتولد من وعيه بأنه أصبح يُعامل كسلعة.

3- السياسية:

لا تختلف الأسباب المولدة للاغتراب السياسي عن تلك التي تتسبب في الاغتراب الاجتماعي، "لأن المفاهيم المسيطرة على مجتمع ما، هي التي تسيطر بدورها على المفاهيم الاجتماعية، ومن ثم يكون المؤثر الأول مؤثراً ذا دلالات سياسية تكمن في النظام السائد ومدى صلاحية أو عدم صلاحية هذا النظام، فإذا كان النظام قد أثبت عدم صلاحيته، فبالأحرى يتكون أو ينبعث الإحساس بهذا الانفصال الذي تم بين الفرد والنظام السائد، هنا تكون أول دواعي التمرد والذي تكون الغلبة فيه للنظام، حيث لا يجد الفرد مهرباً من الاغتراب"[2] فالنظام السياسي الذي يفرض على الفرد قوانين لا تلائمه، ويضغط عليه باستمرار من جهة، فيما يهمشه ولا يسمح له بالمشاركة في اتخاذ القرار أو الحصول على أبسط حقوقه من جهة أخرى، يجعل الفرد يرغب في الابتعاد عن هذا النظام ونبذه، ومن ثم التغرب عنه.

ويعرف الاغتراب السياسي بأنه "شعور الفرد بالعجز إزاء المشاركة الإيجابية في الانتخابات السياسية المعبرة بصدق عن رأي الجماهير، وكذلك الشعور بالعزلة عن المشاركة الحقيقية الفعالة في صنع القرارات المصيرية المتعلقة بمصالحه، واليأس من المستقبل، على اعتبار أن رأيه لا يسمعه أحد، وإن سمعه لا يهتم به ولا يأخذ به"[3] ومن هنا، يفقد الفرد الثقة في النظام، وتكون النتيجة إما محاولة التغيير بالتمرد على هذا النظام، أو الاستسلام والابتعاد عنه معلناً تغربه عن كل ما يكبّل حريته ويقمع أهدافه وطموحاته. ويعتبر الاغتراب السياسي أحد أخطر أنواع الاغتراب، لما ينتج عنه من تغييب للفرد في المجتمع، وإبعاده عن المنظومة السياسية، مما يؤدي إلى شعوره بالعجز وفقدان القيمة.

4- النفسية:

نجد الكثير من الدراسات الحديثة والمعاصرة قد ركزت على الأسباب النفسية للاغتراب بصفتها الدافع الأول والمصدر الرئيسي لكل أنواع الاغتراب الأخرى، ولذلك تكون الأسباب النفسية حاضرة في كل الأنواع، فنفسية الفرد هي الجوهر المتحكم في عواطفه وأفكاره، وهي تؤثر بشكل مباشر على صحته الجسدية والعقلية، وعلى كل

[1] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص81.

[2] المرجع نفسه، ص98.

[3] المرجع نفسه، ص97.

قراراته المصيرية. ويمكن إجمال الأسباب النفسية في مجموعة من الأسباب الخارجية، وأخرى داخلية لكل مجتمع، وهي:

"**أ– الأسباب الخارجية**: تتضمن التيارات الفكرية العالمية، والاستعمار وأثره في الأوضاع العالمية سياسياً، واقتصادياً واجتماعياً، وثقافياً، ودينياً.

ب– الأسباب الداخلية: هي الأسباب المتعلقة بمجتمع واحد، تنبع من ظروفه الخاصة به والمتعلقة بتاريخه ووضعه السياسي والاقتصادي والثقافي، وتُعد هذه الأوضاع من أهم المؤثرات التي تحدد حالة المجتمع والفرد نفسياً واجتماعياً.

وهناك أيضاً مجموعة من الأسباب التي تخص الأفراد وهي أسباب خارجية تتعلق بالوضع التربوي للفرد، وأسباب داخلية مرتبطة بالوضع النفسي والعقلي للفرد، ودوره في توافقه أو تنافره مع المجتمع، إضافة إلى وضع الفرد البيولوجي والفسيولوجي بشكل عام، ويمكن عد هذه الأسباب كافية لتفاصيل الشعور بالاغتراب النفسي[1].

المبحث الثاني: أزمة الهوية

المطلب الأول: ضبط المفاهيم (مفهوم أزمة الهوية)

تعتبر قضية الهوية مثار جدل في الدراسات الحديثة والمعاصرة، وذلك راجع لكون الهوية "لا ينظر إليها على أنها خاصية منجزة بل كشيء غامض وهش دائماً يثير التهديد بالانشطار إلى شظايا"[2] لذلك فقد اختلفت الدراسات في مفهوم الهوية حسب المجال التي تُدرس فيه، وحسب الظروف المحيطة بها. وقبل أن نتطرق إلى مفهوم أزمة الهوية، علينا أولاً التعرف على مفهوم كل من الأزمة والهوية، في اللغة والاصطلاح.

1– مفهوم الهوية Identity:

لفظ الهوية لفظ قديم موجود في المعاجم العربية التراثية، وقد جاء في اللغة العربية من كلمة: "هُوَ، أي جوهر الشيء وحقيقته. والهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئاً عن غيره، أو شخصاً عن غيره، أو مجموعة عن غيرها"[3]. كما جاء في معجم التعريفات للشريف الجرجاني أن الهوية: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[4] وبهذا تكون هوية الإنسان هي جوهره وحقيقته.

---

[1] دانيال علي عباس: رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم النفس التربوي، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتحصيل الدراسي، جامعة دمشق، قسم علم النفس، 2015-2016، ص40-41.

[2] برتي السوتاري: النظرية الاجتماعية والواقع الإنساني، تر: علي فرغلي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015، ص227.

[3] عبير بسيوني رضوان: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية، ط1، دار السلام، القاهرة، 2012، ص85.

[4] شريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، د.ط، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت، ص216.

وفي المعاجم الأجنبية، تقابل كلمة الهوية كلمة Identité وIdentity في الفرنسية والإنجليزية، "وأصلها لاتيني ويعني: الشيء نفسه، أو الشيء الذي هو ما هو عليه، أي أن الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر. كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية: مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما هو عينه شخص معروف أو متعيّن. وفي الفرنسية والإنجليزية واللاتينية يعني لفظ "Iden" أو "Id" ضمير الإشارة للغائب بمعنى: هو ذاته"[1]

أما في الاصطلاح، فالمعنى العام لكلمة الهوية لا يتغير ولا يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، فهي تشمل التميز عن الآخرين والخصوصية الفردية، أي ما يتميز به الفرد أو الجماعة عن غيرها من خصوصيات وسمات وقيم... إلخ، حيث "يطلق مفهوم الهوية على نسق المعايير التي يُعرَف بها الفرد ويُعرَّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة أو المجتمع أو الثقافة، والهوية ليست كياناً يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستيلاب. والهوية هي حصيلة لمجموع من أنساق العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد معنى لقيمه، ويضع لنفسه في ضوئها نظاماً يشكل في إطاره هويته".[2] ولا يمكن أن تتشكل هوية الفرد دون أن يكون واعياً ومدركاً لذاته ومكانتها في الوجود، فالهوية هي "وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، إنها معرفتنا بما، وأين نحن، ومن أين أتينا، وإلى أين نمضي، وبما نريد لأنفسنا وللآخرين، وبموقعنا في خريطة العلاقات والتناقضات والصراعات القائمة"[3].

حيث أن كل فرد في المجتمع يُعرف بهويته، ويتعامل مع الآخرين على أساسها، فقد حدد جون جوزيف مظهران أساسيان لهوية شخص ما: "أولهما اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيداً وعمقاً، الذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء"[4] وهذا الشيء على بساطته، شديد التعقيد وعسير الضبط، فهو أمر يختص بالروح والذات الإنسانية وما يكونها ويعطيها ماهيتها.

وبما أن الهوية عنصر مشترك في السياقات الاجتماعية والنفسية والفلسفية وغيرها من المجالات المعرفية، ينبغي الوقوف على مفاهيمها في هذه المجالات، حيث لم يتم الاتفاق على تعريف واحد لمفهوم الهوية نظراً لتعدد مجالات استخدامها، وسنعدد بعض الآراء بشكل مقتضب.

تعددت آراء الدارسين لمفهوم الهوية من مجال إلى آخر، فبعضها تناولها من الجانب الفلسفي معتبراً أن مفهوم الهوية فلسفياً "يدل على حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره. أما المنحى الصوفي فقد أخذ المفهوم طابع المثالية المطلقة التي لا يمكن إدراكها، فالهوية عند المتصوفة هي الغيب الذي لا يصح شهوده للغير، وهو أبطن البواطن. ونجد دراسات أخرى أكدت الجانب الميتافيزيقي لمفهوم الهوية وعدّتها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق.

[1] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2013، ص23.

[2] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص60.

[3] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص370.

[4] جون جوزيف: اللغة والهوية (قومية، إثنية، دينية)، تر: عبد النور خراقي، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 2007، ص5.

وفي المرحلة المعاصرة ونتيجة الظروف التاريخية التي مرت بها المجتمعات البشرية، أخذ مفهوم الهوية يتعين بصورة أوضح، إذ أسهمت عوامل عديدة في بلورته وفي مقدمتها تقدم فلسفة الذات خصوصاً، وظهور فلسفة الإنسان عموماً، حيث لا يصبح الإنسان باحثاً عن هويته وانتمائه إلا في عصر التحولات، ليبدأ التساؤل عن الإنسان وماهيته والذات الإنسانية وإلى أي مدى يعي الإنسان هذه الذات، لتصبح الهوية في هذه المرحلة مجموعة من القيم الجوهرية بالنسبة إلى الإنسان تميزه عنه غيره"[1].

وقد اتسع هذا المفهوم لكي يشمل "الهوية الاجتماعية، والهوية الثقافية، والهوية العرقية (السلالية)، وهي مصطلحات تشير إلى توحد الذات مع وضع اجتماعي معين، أو مع تراث ثقافي معين، أو مع جماعة سلالية"[2]

2- مفهوم أزمة الهوية Identity Crisist:

يعتبر عالم التحليل النفسي الأمريكي **إيريك إيركسون*** أول من صاغ عبارة "أزمة الهوية" في أربعينيات القرن العشرين، والهوية عند إريكسون "عملية تتم بين هوية الفرد وهوية ثقافة مجتمعه، وقد كان مصطلح أزمة الهوية عنده يشير في بادئ الأمر إلى شخص فقد الإحساس بالتماثل الشخصي والاستمرارية التاريخية، وبهذا الاعتبار، ينفصل هذا الفرد عن الثقافة التي لا تستطيع أن تهبه التماسك النفسي أو تهبه إحساسه بنفسه"[3].

ويعرفها **موسين** بأنها "الكفاح أو النضال الذي قد يفرض على الفرد وهو يحاول أن يحصل على إحساس أو شعور بالهوية متصف بالثقة والاطمئنان، وتنشأ عندما يفشل الفرد في تحديد هويته، فيشعر بالتشتت وارتباك الدور وغموض الهدف، والانعزال عن الآخرين، وضعف العلاقات الاجتماعية"[4].

فأزمة الهوية هي حالة شعورية "يشعر بها الفرد على مستوى الذات الفردية أو تشعر بها الجماعة على مستوى الذات الجماعية بعدم القدرة على التوافق مع الواقع الاجتماعي، مما يوقع به في شرك الاغتراب ومظاهره المختلفة"[5] فأزمة الهوية تحدث عندما يضمحل شعور الفرد بهويته، ويمكن أن يصل ذلك إلى حد اندثار الهوية نهائياً.

كما ارتبطت أزمة الهوية "بالقلق وانخفاض تقدير الذات، وكذلك الشعور بالاغتراب، ولذلك عرفها البعض بأنها تعني فشل الفرد في تحديد هويته مع الشعور بالاغتراب وانعدام الهدف، وعدم الجدوى، وعدم القدرة على التخطيط لأهداف مستقبلية، والافتقار إلى العلاقات الاجتماعية أو الحب الناضج وعدم القدرة على اختيار

---

[1] عهد كمال شلغين: الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع، د.ط، الهيئة العامة السورية، دمشق، 2014، ص18-20.

[2] شارلوت سيمور سميث: موسوعة علم الإنسان (المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية)، ص731.

* **إيريك إيركسون**: هو أحد تلاميذ المدرسة التحليلية لفرويد، وهو على خلاف أستاذه فرويد الذي ينسب الصراعات إلى اللاشعور، نسب صراع الهوية إلى منطقة الشعور، وسبب ذلك هو سيرة حياته وما تعرض له من عدم قبول المجتمع الأمريكي له كمهاجر من ألمانيا.

[3] أندرو إدجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية (المفاهيم والمصطلحات الأساسية)، تر: هناء الجوهري، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ص704.

[4] محمد محمود نجيب، هبة محمود محمد: أزمة الهوية لدى طلاب الجامعة، مجلة بحوث التربية النوعية، القاهرة، ع41، 2016، ص155.

[5] همت بسيوني عبد العزيز محمد: ظاهرة الاغتراب وأزمة الهوية في المسرح المصري المعاصر (دراسة في علم اجتماع الأدب)، مجلة كلية الآداب للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مصر، ع2، 2019، ص660.

المستقبل المهني، واللامبالاة"[1]. فهي "درجة القلق والاضطراب المختلط المرتبطة بمحاولة الفرد تحديد معنى لوجوده في الحياة، من خلال اكتشافه ما يناسبه من مبادئ، ومعتقدات، وأهداف، وأدوار، وعلاقات اجتماعية ذات معنى، أو قيمة على المستوى الشخصي أو الاجتماعي"[2].

كما يستخدم تعبير أزمة الهوية بطريقة خاصة "لضحايا كوارث القرن العشرين والمشردين والمهجرين والمعتقلين في المعسكرات وضحايا التعذيب، وغالباً المقتلعين بفجائية فتاكة من محيطهم الآمن. تمر غالبيتهم بحالات من الهلع بصورة لم تعد قابلة للوصف بالمفاهيم العلمية، فالمهجرين مثلاً تظل تخيم عليهم أعراض قلقيّة أو المزاج الاكتئابي، حتى لو أن البعض تمكن من أن يحقق النجاح في المجتمع الجديد، إلا أنه غالباً ما ظهرت بعد عقود لاحقة أعراض جسمية أو نفسية، وعاشوا مقيدين بصراعات الطفولة وخبرات الملاحقة الصادمة ومشاعر الذنب"[3].

المطلب الثاني: مسألة أزمة الهوية

1- أشكال الهوية:

"أ- الهوية الثقافية والحضارية (لأمة من الأمم): وهي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمت والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعاً تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى.

ب- الهوية الشخصية: تعرّف شخصاً بشكله واسمه وصفاته وسلوكه وانتمائه وجنسه.

ج- الهوية الجمعية (وطنية أو قومية): وهي تدل على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر تميزهم عن مجموعات أخرى. أفراد المجموعات يتشابهون بالميزات الأساسية التي كونتهم كمجموعة، وربما يختلفون في عناصر أخرى لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة"[4].

ويرى علي الدين هلال أن أشكال الهوية تتجسد على ثلاث مستويات حيث يقول: "ينبغي التمييز بين ثلاث مستويات للهوية مختلفة عند تحليل موضوع الهوية، فهناك أولاً: الهوية على المستوى الفردي، أي شعور الشخص بالانتماء إلى جماعة أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات، والهوية بهذا المعنى هي حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية. وهناك ثانياً: التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية في شكل تنظيمات وأحزاب وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري. وهناك ثالثاً: حال تبلور

[1] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص64.

[2] مها توفيق شبيطه: أزمة الهوية للمرآة الفلسطينية ما بين اليسارية والأصولية، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2016، ص65.

[3] بيلر كوزين: البحث عن الهوية (الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، تر: سامر جميل رضوان، ط1، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، 2010، ص129.

[4] عبير بسيوني رضوان: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية، ص86.

وتجسد هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وإشكالية قانونية على يد الحكومات والأنظمة"[1] وبهذا، تتجلى الهوية في أشكال تبدأ من الفرد ذاته، وتنتهي عند النظام القانوني الرسمي.

2- أزمات الهوية:

تصيب الهوية اضطرابات واختلالات تترجم على شكل مشكلات نفسية سواءً للأفراد أو الجماعات، وينجم عن ذلك أزمات تتبدى على أشكال متعددة، وقد حدد أليكس ميكشيللي ثلاث أزمات رئيسية تلحق بالهوية، بحيث تبدأ بتصدعات تتمثل في: انشطارات الهوية، واضطراب الأمن الوجودي، وتنتهي بأزمة حادة تتمثل في استلابات الهوية.

1.2- انشطارات الهوية:

عندما تقوم صراعات داخلية في نظام ما بسبب عناصر متعارضة، ينشأ عن ذلك توتر يؤثر على الهوية، "إذ يوجد في داخل الثقافة عدد من التناقضات، وتنشأ أزمات الهوية عندما يصبح التوتر الذي تثيره هذه التناقضات على أشده، فتؤدي إلى وجود قلق دائم.

وأغلب من يواجه هذا النوع من الأزمات هم المهاجرين، بحيث تؤثر عليهم الثقافة الغربية، وتُحدث لدى الجيل الجديد من الأبناء تعارضاً في القيم، وبالتالي انشطاراً في الهوية، فيتبدى الاختلاف بشكل جليّ بين جيل الآباء وجيل الأبناء الذين تشبعوا بالثقافة الغربية. فالثقافة الغربية التي تمارس فعالية الاستيلاب على الأفراد الذين يعيشون بداخلها.[2]

2.2- اضطراب الأمن الوجودي:

يظهر هذا النوع من الأزمات الذي يصيب كينونة الفرد، عندما يعيش الفرد ظواهر نفسية واجتماعية معينة، وقد حددها أليكس ميكشيللي كالتالي:

"**أ- الانحلال العائلي**: يؤدي الانحلال العائلي إلى اضطرابات مرضية تصيب الهوية، وهي اضطرابات تعود إلى ضعف العلاقات العاطفية وإلى عدم الاستقرار العاطفي، كما يعود ذلك إلى تربية لا يوجد فيها نماذج معينة تساعد الطفل على التقمص، وذلك من شأنه أن يؤدي إلى اضطرابات في كينونة الهوية الفردية.

ب- الاستبعاد بالرفض: أبرز مثال لهذا هو إقصاء بعض الجماعات والتعامل معهم على أساس التمييز العنصري أو العرقي مثلاً، مما يؤدي إلى انعدام الإحساس بالأمن الخاص بالهوية، والذي من شأنه أن يعزز من مظاهر النزعة العدوانية.

[1] مجموعة مؤلفين: جامعة الدول العربية الواقع والطموح، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص815.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص133-136.

ج- الهدم العاطفي: يمكن للأذى العاطفي أن يؤدي إلى تربية مجحفة وخاصة في إطار الأسر المتسلطة، كما يمكن ملاحظة ذلك على المستوى المهني عند العمال الذين تعرضوا لعملية استيلاب بتأثير ظروف عملهم الشاقة. فيحس الفرد بانحدار القيمة الذاتية وفقدانها لمحتواها.

د- انهيار الأصول الاجتماعية والدينية: تؤثر العوامل الثقافية تأثيراً سلبياً على وضعية الأمن الوجودي للإنسان المعاصر، حيث تتحول أزمة الهوية إلى أزمة حضارة، وهي أزمة ترتبط بفكرة موت الآلهة والعبثية الاجتماعية. وهذا ما جعل الإنسان غير قادر على الوصول إلى الإحساس بالأمن الوجودي.

هـ- انهيار الأسس الخاصة بالهوية: يعتمد بناء هوية متكاملة على مجموعة من القيم والنماذج، لكن هذه الأخيرة تتأثر بالتغير الاجتماعي الدائم، بحيث يُعد التغير اليوم سمة المجتمعات الحديثة المعاصرة. فالتغيرات الاقتصادية والتكنولوجية تؤدي إلى نمو كبير في إمكانيات الخيارات المتعددة التي يطرحها المجتمع الصناعي أمام أفراده، فيؤدي ذلك إلى نفي دائم للقديم، وهو نفي يمهد لولادة قيم أخرى جديدة، وهذا يعزز التناقضات التي تقوم بين القيم العصرية المفضلة والقيم القديمة.[1]

3.2- استلابات الهوية:

تعاني الهوية من حالة استلاب حقيقية وذلك عندما تتعرض إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على إحداث تغيرات عميقة داخل الأفراد والجماعات.

ويتعرض الإنسان لعملية استلاب في بعض الحالات التي لا يجد فيها داخل وسطه التربوي أو الثقافي ما يعزز شعوره بوحدته الذاتية أو ما يؤكد هذه الذاتية. فالثقافة الغربية ثقافة استلابية، وهي تؤدي إلى إيجاد شخصيات عُصابية* تخشى من الحرية، وذلك كله لأن هذه الثقافة تركز على التربية انطلاقاً من وضعيات مَرضية قائمة على أساس المنافسة والإخفاق والعزلة العاطفية، ومن أجل مواجهة هذه الوضعيات، فإن الإنسان المعاصر يطور في داخله جملة من العمليات النفسية السلبية من أجل التعويض الوهمي عن حالة انعدام الأمن وانخفاض قيمة الإنسان. كما أن هناك ظاهرة أخرى قسرية تؤدي إلى استلاب هوية الفرد، وهي الاقتلاع الثقافي، وهي حالة يجد فيها الفرد نفسه أو الجماعة أو المجتمع داخل غمار حياة أخرى أو ثقافة أخرى تختلف عن ثقافته الأصلية أو عن حياته المعهودة.[2]

3- مظاهر أزمة الهوية:

إن أزمة الهوية مشكلة خطيرة جداً، فتأثيرها السلبي ليس على المستوى الفردي فقط، بل هي تمتد للمجتمعات والأوطان، فتصل لحد نشر الفوضى وتعطيل الحياة. ومن مظاهر هذه الأزمة على الفرد والمجتمع:

---

[1] ينظر: أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، ط1، دار الوسيم، دمشق، 1993، ص138-146.

* **العُصاب:** هو نوع من أنواع الخوف الذي يؤدي إلى اضطراب في الشخصية والتوازن النفسي، ويؤدي إلى مشاعر مثل: القلق والهم والخوف والغضب والإحباط والحسد والغيرة والشعور بالذنب والمزاج المكتئب والشعور بالوحدة. ينظر: جمال سالم أحمد مصطفى: محاضرات عن الصحة النفسية.

[2] ينظر: أليكس ميكشيللي: الهوية، ص147-159.

– "أن يسود الشعور بعدم وجود فرصة للاختيار وسيطرة اليأس على لغة الحوار والفعل.

– زيادة معدلات الخوف وعدم الأمان لأسباب مختلفة، على رأسها عدم الثقة على جميع المستويات.

– يصبح الخوف من النفس ومن الآخر هو القاعدة، فينشأ اضطراب وعدم القدرة على تحديد مصادر الخطر.

– الاستقطاب الاجتماعي والثقافي على أساس الولاء أو الانتماء (العرقي، الحزبي، الديني...) أو الطبقي (الاقتصادي أو السياسي)، وأبرز صوره انقسام المجتمع بين طبقة محكومة وأخرى حاكمة، وزيادة المسافات بينهم في المظهر والفكر وأسلوب الحياة، وضياع الإحساس بالوطن، وزيادة مشاكل الاندماج في المجتمع.

– انتشار ثقافة اللامبالاة والسلبية والاعتماد على الآخرين وعدم السعي للاكتفاء الذاتي.

– انتشار الغضب العام. والغضب المكبوت ما يلبث أن ينفجر مخلفاً جراحاً عميقة في جسم الوطن، تزلزل ثوابته وتشوه معانيه. ولا يتبقى بعد الغضب سوى نفوس منهكة، كسيرة. وفائض الغضب هو ما نواجهه الآن، قلة القيمة، عدم التمكن، جلد الذات...

– زيادة معدلات العنف في المجتمع، والبعد عن مواريث القيم والأخلاق، ويختفي الشرف والصدق والعدل والأمن، واختفاء الاحترام والتسامح بين أفراد المجتمع بل وداخل الأسرة الواحدة.

– أن تصبح الهوية عبئاً، وبالتالي يكون السعي لتغيير الهوية عن طريق السعي للهجرة مثلاً، أو على الأقل الرغبة في غطاء هوية أكبر، لأن الهوية الحالية تعني مخاطر كبيرة.

– الجهل بالمستقبل وعدم الانشغال به، وهي حالة تسود الفرد والأمة، فعدم معرفة الأمة ماذا تريد أن تكون يجعلها ساكنة راكدة في مكانها، أي تنعدم الخيارات الاستراتيجية لمستقبل الدولة أو الأمة أو المؤسسة أو الشخص الذي يعاني من أزمة الهوية[1].

4– أزمة الهوية العربية:

أصبحت مسألة الهوية –أو البحث عن الهوية– تمثل موضوعاً رئيسياً يفرض نفسه بقوة في أوساط البحث في كثير من فروع المعرفة، "ولعلها أكثر حدة في بلدان العالم الثالث المهمومة بقضايا الحداثة والصراع بين القديم والجديد... ومع بداية السبعينات بشكل خاص، صارت مسألة الهوية تمثل أطروحة بحث رئيسية وقضية محورية لندوات ومؤتمرات محلية وإقليمية ودولية عديدة".[2]

فالإنسان العربي المعاصر يعاني أزمة هوية وانتماء، وسببها "وجوده في ظل كيانات اجتماعية متعددة ومتعارضة، تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً، وتنتهي بالدين والقومية أحياناً. وبالتالي فإن تعددية الانتماء وتناقضاته تؤدي إلى حالة من الانشطار في الهوية الاجتماعية، وإلى حالة من التمزق الوجداني الداخلي عند الإنسان العربي الذي تتخاطفه وفي الآن الواحد مشاعر انتماء متعارضة ومتنافرة في مختلف المستويات والاتجاهات. فإشكالية الهوية والانتماء تطرح

[1] عبير بسيوني رضوان: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية، ص110-112.

[2] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ط1، هلا للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ص23

بين القضايا الساخنة في المجتمع العربي المعاصر، وتبدأ بأسئلة قديمة متجددة حول أولوية الهوية والانتماء: هل نحن عرب أم مسلمون؟ هل نحن أبناء الوطن أم أبناء العشيرة؟ هل نحن أبناء الطائفة أم أبناء الدين؟"[1]

والهوية العربية والإسلامية تواجه اليوم تحديات كبيرة واضطرابات تولدت عنها تغييرات كبيرة، "وقد ربط البعض هذه التغيرات بما أحدثته العولمة من متغيرات كان لها بالغ الأثر في اضطراب مفهوم الهوية بوجه عام. فالعولمة هي إكساب الشيء طابع العالمية، كما تعني هذه الزيادة المتنامية في وتيرة التداخل بين الجماعات والمجتمعات البشرية في هذا العالم... فالعولمة هي بداية نشوء ثقافة عالمية بغض النظر عن جذور تلك الثقافة، والغزو الاقتصادي الذي تمارسه العولمة على العالم قد تسبب في غزو ثقافي ليس له مثيل على جميع البلدان النامية وبالأخص الدول الإسلامية، وبالتالي أصبحت العولمة تمثل تهديداً للهوية في المجتمعات العربية. إضافة لكل ما يحتويه الواقع العربي من تناقضات يصعب استيعابها في إطار هويتنا، كل هذا أفقدنا الإحساس بالاستمرارية والتفرد والخصوصية والتقدير الإيجابي الذاتي، وبالتالي الشعور بالعجز والاغتراب"[2].

وقد يتساءل البعض عن هوية ثقافتنا العربية الإسلامية، فالمجتمع العربي يضم أقطاراً واسعة ويتشكل من مجموعات بشرية متنوعة، ولذا قد يصعب جمع كل هذا التنوع على هوية واحدة، لكن الذي لا جدال فقه هو أن "أغلبية هذه الأمة قد تدينت بالإسلام، ولذلك فقد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة ثقافة هذه الأمة، فهو الذي طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته، فعاداتها وتقاليدها وأعرافها وآدابها وفنونها وسائر علومها الإنسانية والاجتماعية، ونظرتها للكون والذات والآخر وتصوراتها لمكانة الإنسان في هذا الكون... كل ذلك وما ماثله قد انطبع بطابع الإسلام، واصطبغ بصبغته"[3]. وتُحدد الهوية الإسلامية بأربعة أسس وعناصر هي: "العقيدة، التاريخ، اللغة، الأرض. وتجمعت هذه العناصر الأربعة في الأمة المسلمة عبَّرت بمجموعها عن الهوية الإسلامية. وقد تضيع هذه الهوية إن ضاع الفرد عن دينه"[4]

وتكمن أزمة الهوية العربية عموماً في "اختلاف شتى مجالات الحياة والفكر والوعي والسياسة والاقتصاد، والأهم من ذلك تشكل رؤى إيديولوجية مختلفة بعضها مع بعض في مفهوم الهوية، إذ ظهر الخطاب الإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر في وعي الهوية متمثلاً في ثلاثة تيارات لرئيسية في الوطن العربي، هي:

- الفكر الديني السياسي الذي عمل على بناء دولة دينية ذات طابع إسلامي بكل اتجاهاته.
- الفكر القومي الذي حمل على عاتقه قضية الأمة الدولة وفكرة العروبة.

[1] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص153-154.

[2] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص67-70.

[3] محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1999، ص6-7.

[4] عبير بسيوني رضوان: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية، ص104.

- الخطاب الإقليمي الذي يقوم على تأسيس وعي محلي يعطي كل قطر هوية خاصة مختلفة عن الأخرى، مستقلة عن غيرها، وتتميز بطابعها الخاص"[1].

وأزمة الهوية لا تقف عند هذا الحد فقط، ولا تقتصر على مجتمع دون غيره، ولا أمة دون سواها، ولا فرد بعينه، بل هي ظاهرة تمس كل الأفراد والمجتمعات في كل زمان ومكان، فهي ترتبط بأزمة الوجود التي لطالما لازمت الإنسان منذ تكوينه. ولذلك فهذه الظاهرة تستوجب دراسات كثيرة ومعمقة لنحيط بكل جوانبها، ولا يسعنا ذلك في هذا البحث، لذلك اقتصرت الدراسة على بعض المفاهيم والجوانب النظرية التي وردت في هذا الفصل، ثم نختص فيما بعد في الحديث عن أزمة الهوية العراقية التي كانت من إفرازات التحولات العديدة التي مر بها المجتمع العراقي والحروب التي خاضها على مراحل زمنية متعددة، ولنفهم خلفيات هذه الأزمة، يوجب علينا دراسة الظروف التي أدت إليها. ثم تتعمق الدراسة لتركّز على أزمة الهوية التي تواجهها الجالية العربية المغتربة، ولاسيما أزمة الجالية العراقية التي فرضت عليها الحرب الخروج من الوطن، وما تواجهه من صعوبات في المجتمع الغربي.

[1] عهد كمال شلغين: الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع، ص25.

الفصل الثاني:

الاغتراب بين راهن الوضع ومسببات الهجرة

الفصل الثاني: الاغتراب بين راهن الوضع ومسببات الهجرة

تمهيد:

حين يُذكر اسم العراق اليوم، لا يُذكر إلا وصور المآسي والمجازر والدمار بين العيون، حيث تُستحضر معاناة الشعب العراقي الذي ما انفكّ يخرج من أزمة وإلا ويجد أزمة ثانية تعصف به، خصوصاً في الحقبة التي شهدت حروباً متتالية بداية من الحرب العراقية الإيرانية التي عُرفت باسم حرب الخليج الأولى، ثم حرب الخليج الثانية عندما غزت العراق الكويت، وتلاها الاحتلال الأمريكي للعراق الذي خلّف فوضى عارمة لم تكن ضرورية لإزاحة النظام عن الحكم.... باختصار، هي صورة معاناة أليمة تُستحضر فوراً رسمتها حروبٌ دامية ومتتالية دفع ثمنها الشعب العراقي بالأرواح والدماء، ورغم مرور 20 عام على الغزو الأمريكي للعراق، إلا أن آثار تلك الحرب مازالت مستمرة إلى يومنا هذا وثقلها مازال قابعاً في النفوس، ومازال الشعب العراقي يدفع ثمنها لحد اللحظة، ومازالت العراق لم تتعافى من تبعاتها بعد.

وقد أسفرت هذه الأزمات عن تحولات واضطرابات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وصعوبات وتحديات أدت بها في النهاية لأن ترضخ تحت وطأة حرب أهلية جرّت الشعب العراقي إلى مجازر ومصائب مسّت كل العائلات وجعلتها تفقد الكثير من أفرادها، وقد فشل النظام في ضبط الوضع الأمني وضمان الاستقرار للبلاد.

وسنحاول في هذا الفصل أن نلقي نظرة على تلك الفوضى التي سادت البلد على مدى فترات ومراحل، ثم النتائج التي تولدت عن تلك التحولات، وكيف أثر ذلك على ولادة مجتمع جديد يعاني من التصدعات والخلافات والصراعات، ومازال يعاني من تبعات تلك الأزمات إلى يومنا هذا. فعلى الرغم من مرور عشرين سنة على سقوط نظام صدام حسين، إلا أن التوتر بين الطوائف المتعددة في العراق مازال يهدد استقرار وأمن البلد.

جاء هذا الفصل انطلاقاً من طبيعة الدراسة التي اقتضت الوقوف على السياق الخارجي ودراسة المضامين الواقعية من أجل فهم وتحليل الظواهر الاغترابية والأزمة الهوياتية وأسبابهما، وبذلك سيكون بمثابة تمهيد للفصل التطبيقي، لنتعرف أولاً على الظروف التي أدت إلى الاغتراب والوقوع في أزمة هوية بالنسبة للجالية العراقية في الخارج، ولنفهم مجريات أحداث الرواية ونشعر بدرامية الأحداث ووطأتها على النفس وسبب التشتت الذي عانت منه الشخصيات، بداية من الأسباب التي دفعتهم إلى الهجرة والاغتراب عن الوطن، ووصولاً إلى الأزمات المختلفة التي مست هويتهم وأصابتهم باعتلالات نفسية واضطرابات على المستوى الشخصي والاجتماعي. خصوصاً وأن الكاتب لم يتعمق في الرواية في هذا الموضوع واكتفى بمجرد إشارات واسترجاعات من خلال الشخصيات. لكننا نرى أن هذا الموضوع مهم جداً قبل الخوض في الرواية واستجلاء مظاهر الاغتراب وأزمة الهوية من أجل فهم خلفيتهما والأسباب المؤدية لهما.

المبحث الأول: الظروف السياسية للعراق المعاصر

من أجل معرفة أسباب الهجرة والاغتراب، لابد لنا من فحص دقيق لخلفية العراق السياسية والاجتماعية والأزمات التي ولّدت حالة الاغتراب هذه، وهي عملية ضرورية من أجل دراسة دقيقة وفهم شامل لتبعات هذه الظروف على الجالية العراقية المغتربة ونفسيتها التي وقعت ضحية لاغتراب من نوع آخر وأزمة هوية عصفت بنفسية الفرد العراقي، وهذا تأسيساً على آراء العديد من الباحثين الذين يقولون أنها عملية إلزامية لدراسة الشخصية، ومن هؤلاء فرج أحمد الذي يرى أن من أهم الأخطاء التي يقع فيها غالبية دارسي الشخصية العربية "إغفال الربط بين البناء النفسي للشخصية وظروفها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية... مع أن الموقف العلمي الصحيح هو أن الإنسان ظاهرة تاريخية اجتماعية تتحدد سماته بالمرحلة التاريخية التي يمر بها مجتمعه، فهو لا ينفصل أبداً عن الوسط المحيط، كما أنه انعكاس للواقع المادي الاجتماعي. من هنا بدأت التوجهات المعاصرة في دراسة الهوية تتجه نحو فحص دور الفترة التاريخية والسياق الاجتماعي في عملية تكوين الهوية وصياغة الشخصية، فالشخصية ليست كائناً قائماً في فراغ، حيث أن الهوية مرتهنة دوماً بكيمياء الواقع الاجتماعي".[1]

وهذا يقتضي منا دراسة السياق الاجتماعي والسياسي في العراق، والتحولات التي أدت إلى اغتراب مجموعة كبيرة من الشعب العراقي، ثم إلى تكوّن أزمة هوية لدى هذه الجالية المغتربة، وبالتالي معرفة كيف أثرت هذه الظروف على توجهاتهم الإيديولوجية واعتقاداتهم السياسية والدينية ووضعهم في حالة أزمة هوية.

1- أزمة التسعينات (حرب الخليج):

بعد ما يزيد عن عام من توقف القتال بين العراق وإيران الذي دام لثماني سنوات وما سُمي بحرب الخليج الأولى، بدأت يلوح في أفق الخليج ما يشير إلى أزمة جديدة من نوع حاد، وقد كانت إرهاصاتها "قرار الكويت بزيادة إنتاجها النفطي مخالفة بذلك الاتفاقات المعقودة في إطار منظمة الأوبيك*، وقد تم التركيز الكويتي في تحقيق هذه الزيادة الإنتاجية على آبار الرميلة الواقعة في المنطقة الحدودية المتنازع عليها مع العراق والتي كانت موضوعاً في السابق لمناقشات دبلوماسية صاخبة، واعتبر صدام حسين مبادرة الكويت في زيادة إنتاجها النفطي استفزازية وخيانية. وقد أدت إلى انخفاض أسعار النفط العالمي وإلى خسارة العراق الذي يعتمد على 90% من وارداته على النفط لحوالي 7 مليارات سنوياً"[2].

---

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص49.

* **منظمة الأوبيك**: منظمة الدول المصدرة للنفط وتُختصر: أوبيك، هي منظمة حكومية دولية من 13 دولة، تأسست في 14 سبتمبر 1960 في بغداد من قبل الأعضاء الخمسة الأوائل، ومقرها الرئيسي في فيينا في النمسا منذ عام 1965. ينظر: منظمة الدول المصدرة للنفط، www.wikiwand.com، اطلع عليه يوم: 18 أفريل 2023، على الساعة: 14:00.

[2] بيار سالينجر، إريك لوران: حرب الخليج (الملف السري)، ص11، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، 1993، ص8.

وقد كان هذا سبباً مباشراً في اتخاذ صدام حسين قراراً بغزو الكويت "ففي الثاني من أوت عام 1990 اندفعت القوات العراقية عبر الحدود إلى الكويت وتغلبت سريعاً على القوات الكويتية وسيطرت على مدينة الكويت العاصمة. وقد أدانت الأمم المتحدة الغزو وبدأت بفرض حظر على العراق، قبل أن يصوت مجلس الأمن في 29 نوفمبر على القرار رقم 678 الذي يشرع استخدام القوة ضد العراق، ويحدد مهلة تنتهي في 15 جانفي 1991 عند منتصف الليل للخروج من الكويت"[1].

وهكذا بدأت حقبة جديدة أعلنت عن قدوم عاصفة من نوع آخر على العراق، بدأت بصراع داخلي بين دولتين شقيقتين، لتنتهي بتدخل خارجي أجنبي أعلن الدمار الشامل على العراق، وقد أُطلق على هذه الحرب مسميات عدة منها: عاصفة الصحراء، درع الصحراء، أم المعارك، حرب الخليج.

ورغم أن قرار الأمم المتحدة بالحرب على العراق كان في ظاهره تحرير الكويت من بطش صدام حسين الذي وُصف بالدكتاتور وخرق مبادئ حقوق الإنسان، إلا أنها كانت في باطنها مجرد وسيلة أخرى لتحقيق أهداف وأطماع أمريكا، "فما إن دنت ساعة بدء تنفيذ العاصفة حتى كُشف عن الهدف الحقيقي لها والذي ورد على لسان جورج بوش عندما قال: إن أقل شيء يمكن أن تقبله الولايات المتحدة وقوات التحالف، لا أقل من رحيل صدام حسين إلى الأبد وتخفيض جيشه وتدمير أسلحته الفتاكة.... ووقف جورج بوش يوم 15 جانفي 1991 في مؤتمر صحفي يقول: إننا لسنا طرفاً في نزاع مع الشعب العراقي، وإنما خلافنا مع الديكتاتور العراقي فقط"[2]. "وفي 16 جانفي 1991 قبيل منتصف الليل بعشر دقائق، باشرت قوات التحالف حملة قصف جوي متواصل ومدمر شاركت فيه الطائرات الأمريكية والبريطانية والسعودية لضرب أهداف عسكرية عراقية، وقد كان للعاصمة بغداد النصيب الأعنف والأشد من القصف ما أوقع عدداً كبيراً من الضحايا المدنيين. وبعد يوم واحد من ذلك نفذت بغداد تهديدها بقصف المدن الإسرائيلية.

وفي 23 جانفي بدأ العراق بعملية صب ما يقارب مليون طن من النفط الخام في مياه الخليج العربي وإحراق آبار النفط في الكويت. وفي يوم 24 فيفري انطلقت الحملة البرية لقوات التحالف عبر عدة جبهات، وشنت قوات التحالف هجوماً على الجيش العراقي الذي كان متمركزاً غربي الكويت، ثم توغلت داخل الكويت وجنوبي العراق. وفي 25 فيفري أعلن العراق موافقته على كل شروط الانسحاب، وأعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، في 27 فيفري وقف إطلاق النار وتحرير الكويت.

وتشير التقديرات إلى أن عملية عاصفة الصحراء أسفرت عن مقتل ما بين 70 و200 ألف في صفوف الجيش العراقي فضلاً عن 200 ألف مدني، مقابل 505 جنود من قوات التحالف من بينهم 472 من

[1] وليد بدران: ذكرى غزو العراق للكويت، حكاية "عاصفة الصحراء" التي هبت على الشرق الأوسط فغيرته إلى الأبد، www.bbc.com، اطلع عليه يوم: 13 أفريل 2023، على الساعة: 15:20.

[2] محمد تيسير التميمي: حرب الخليج بين الأسباب والنتائج، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1993، ص83.

الأمريكيين، وإصابة نحو 300 ألف جندي، وأسر 30 ألفا آخرين. وخسر العراق حوالي 4 آلاف دبابة، و240 طائرة، ودُمرت دفاعاته الجوية وقواعد إطلاق صواريخه وسفنه الحربية في الخليج.

وقد دمر القصف الجوي المرافق العراقية مثل المدارس والجامعات، ومراكز الاتصالات، ومنشآت تكرير وتوزيع النفط، والموانئ، والجسور، والسكك الحديدية، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية وتصفية المياه. كما جمّد مجلس الأمن الدولي مبالغ كبيرة من الأرصدة العراقية في البنوك العالمية لدفع تعويضات للمتضررين نتيجة الغزو، وهي التعويضات التي قدرت بنحو 52 مليار دولار. وقد أدى الحصار الذي فُرض على العراق بعد هذه الحرب واستمر نحو 12 عاماً إلى أزمة إنسانية كبيرة"[1].

لقد كان الغزو العراقي للكويت فرصة جاءت على طبق من ذهب أمام أمريكا استعملتها كثغرة للتدخل في العراق والتمهيد لاحتلالها من أجل تحقيق مطامعها الشخصية، فاستعملت تحت مظلة مجلس الأمن تحرير الكويت كذريعة لضرب العراق وإضعافها، وخلق سبب يخولها في المستقبل الوصول إلى أراضيها، فقد كانت حقبة التسعينات هذه ممهداً لتفكيك العراق قبل احتلالها، "عندما فرضت الأمم المتحدة حصاراً اقتصادياً ضرب في عمق النفس العراقية ومكوناتها الأساسية، عندما ركزت على قضيتيّ اضطهاد الأكراد ومظلومية الشيعة، بغية دق إسفين بين المكونات الاجتماعية العراقية على حساب الوحدة الوطنية، بإخضاع العقل الوطني العراقي لعملية إجبارية الهدف منها استبدال الانتماء الوطني بالانتماءات الفرعية الإقليمية والطائفية".[2]

2- أزمة الألفية الجديدة والصراع ضمن شرق أوسط جديد:

عايشت العراق في بدايات الألفية الثالثة أزمة حادة تفاقمت مع احتلال أمريكا لها، فقد احتلت أمريكا العراق سنة 2003 أملاً في إنجاز مجموعة من الأهداف في مقدمتها إنهاء النظام السياسي السابق وإنشاء نظام سياسي جديد، "وقد حاولت طرح عدة مبررات لتبرير تدخلها العسكري في العراق منها إمكانية وجود أسلحة دمار شامل فيها، لكن اتضح بعد دخول المفتشين أن العراق لا يمتلك الأسلحة المتطورة التي تهددها، حيث أعلنوا عدم العثور على أي دليل مؤكد لوجود أي أسلحة دمار شامل. بعد ذلك قدمت الولايات المتحدة وبريطانيا مشروع قرار مفاده أنه ووفقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، فإن العراق فقد فرصته الأخيرة للتخلي عن أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها، وأعلنت الإدارة الأمريكية أن هدفها لم يعد فقط نزع أسلحة العراق، ولكن تغيير النظام في

[1] وليد بدران: ذكرى غزو العراق للكويت: حكاية "عاصفة الصحراء" التي هبت على الشرق الأوسط فغيرته إلى الأبد، اطلع عليه على الساعة: 15:20.

[2] مجموعة مؤلفين: الهوية وتحديات العصر (جدل الهويات، حوار المجاورة أو صراع الاختلاف)، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص298.

بغداد"[1]. وقد كان هذا هو الهدف الخفي الذي يحرّك الولايات المتحدة الأمريكية منذ البداية، فقد أرادت إعلاء نظام جديد تتحكم هي في معطياته، كما أنها كانت تهدف إلى سرقة موارد العراق، وإعاقة التقدم الذي كان يلوح في أفق البلاد، وقد حجبت عملية الغزو بالادعاءات الكاذبة في كون النظام الحاكم في العراق يدعم تنظيم القاعدة، وأنه يمتلك أسلحة الدمار الشامل في محاولة منها لإضفاء الشرعية على تدخلها هناك.

فقد بات واضحاً للجميع أن "الولايات المتحدة وعموم العالم الغربي قد مهدوا لتفكيك رموز الهوية العراقية، وكانت أولى مهام الاحتلال في العراق استئصال الفكر الوطني ومفهوم المواطنة بالانتقال من مفاهيم الوطنية إلى مفاهيم الطائفية ليتبناها فيما بعد قادة العراق الجدد ومن ثم وسائل الإعلام العربية والغربية، وتحقق ذلك بالتركيز على مفردات شيعي وسني وكُردي... إلخ"[2]. وقد كانت جهود تبني المشروع الطائفي تهدف إلى "تحقيق مصالحها من جهة، ومحاولة أن يبقى العراق ضعيفاً مفككاً من خلال خلق التناقض المذهبي بين أبنائه من جهة ثانية. وذلك من أجل تفتيتها وتحويلها إلى دويلات صغيرة ضعيفة وأقاليم مجزأة ومفككة يسهل ابتلاعها واقتلاعها من الكيان والوجود من خلال تحويل الطائفة إلى عصبية سياسية قائمة بذاتها لا علاقة لها بالدين والإيمان ودائمة التناحر مع الطوائف الأخرى".[3]

وقد تحقق هذا، حيث أصبحت الحكومة العراقية ذات نظام طائفي، مما أشعل فتيل معركة طائفية لا يوجد بها منتصف والكل فيها خاسر. فبعدما كانت العراق حضارة قوية ودولة يهابها الكل وتسير في درب الرقي والتطور والازدهار الذي غرس في نفوس الغرب الرعب والمخاوف من أن تصبح قوة ضاربة تهدد كياناتهم وسلطتهم، تحقق هدفهم وأصبحت دولة ضعيفة مفتتة تحكمها جماعات تنهش بعضها البعض نتيجة لحملة أمريكا التي جلبت الموت والدمار لسكان العراق، وفتحت الباب على مصراعيه لسلسلة من الأحداث الدامية دفع ثمنها الشعب العراقي على اختلاف انتماءاته الطائفية، وساد نظام جديد استبد طويلاً في السلطة.

مع تحوّل الاختلاف الطائفي والعرقي في العراق من خصومة مذهبية ودينية إلى شقاق سياسي وتنازع على السلطة، حدثت بسبب ذلك تحولات جذرية في بنية المجتمع العراقي على الصعيد السياسي والاجتماعي والأمني والعسكري، وأبرز محصلاته هو تقاسم السلطة بين الطوائف المختلفة (الشيعة العرب، السنة العرب، الكُرد، والأقليات الأخرى) وهو نظام عُرف بالمحاصصة، بمعنى أن لكل فريق حصته من السلطة، وبهذا تمت هيكلة النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من جديد، "وقد كانت أمريكا هي التي أعادت التشكيل بما يتوافق ومصالحها من أجل تحقيق أهدافها والسيطرة الكاملة على العراق من خلال تقسيم ديني طائفي للمكون العربي فيها، ومن ثم

[1] علي يونس عمر النعيمي: دور الأمم المتحدة في إدارة حرب الخليج الثالثة (2003)، المجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، مصر، ع15، 2020، ص167.

[2] سخري محمد: قراءة في إشكالية الهوية الوطنية العراقية، www.politics-dz.com، اطلع عليه يوم: 08 أفريل 2023، على الساعة: 16:34.

[3] مجموعة مؤلفين: الهوية وتحديات العصر (جدل الهويات، حوار المجاورة أو صراع الاختلاف)، ص298-299.

تطبيق مبدأ محاصصة طائفية، اللذين مهدا مجتمعين لأجواء غلب عليها طابع التصارع السياسي على التصارع الاجتماعي، وسادها عنف طائفي مارسته قوى مسلحة مختلفة تحت شعارات دينية متنوعة تتحدث عن الجهاد ومقاومة المحتل، لكن أضراره وعواقبه السلبية على العراقيين كانت أكثر بكثير من أضراره وعواقبه السلبية على المحتل، وهو ما صب في مصلحة الاحتلال أكثر مما صب في مصلحة العراق والعراقيين"[1].

وقد أكدت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ومعظم السياسيين العراقيين أن "المحاصصة إجراء وقتي وطابعه استثنائي، والغرض منه بناء الثقة بين شركاء وجماعات يرتاب بعضها ببعض، للوصول إلى ديمقراطية عادية ومستقرة مستقبلاً لا تقوم على التحاصص والتوافق بين المجاميع، بل على المواطنة وحكم الأغلبية التي تحترم الأقلية وتصون حقوقها. لكن في نهاية المطاف استمر الأمر وأصبح مولداً للأزمات في العراق"[2]. حيث أن النظام الجديد الذي كان يُزعم أنه قائم على الديمقراطية التي ستكون طريق الحرية والخلاص من نظام صدام حسين الديكتاتوري لم يكن بمستوى الطموح ولم يكن مغايراً عن الوضع السابق وإنما اختلف الأسلوب السياسي فقط، كما أنه لم يلعب أي دور في إنقاذ العراق، بالأحرى كان سبباً في تأزم الأوضاع أكثر، فقد سقط نظام صدام حسين الدكتاتوري لتقع العراق في براثن نظام جديد أشد قمعاً وأكثر تدميراً، فتغيير السلطة بطريقة همجية من خلال هدم المؤسسات الأمنية وحل الجيش والوزارات المهمة والتسبب بفوضى طائفية لم يخدم البلد بأي طريقة ولم يأتي بأي نتيجة سوى الحرب التي قتلت وشردت الآلاف من المواطنين.

مع نجاح مشروع تقسيم العراق إلى طوائف وجعلهم يتناحرون بينهم، عمّت الفوضى والاضطراب في البلد بسبب الخلافات بين هذه الطوائف، "فقد شهد العراق منذ تلك اللحظة موجات من العنف والعمليات الانتحارية وتفجير السيارات والقتل ذي الخلفيات الطائفية وخاصة ضد التجمعات الشيعية، ومن ثم ظهر تنظيم القاعدة، ودولة العراق الاسلامية، ودولة العراق والشام الإسلامية (داعش) حتى إعلان دولة الخلافة الإسلامية التي مارست الإبادة ضد المختلف دينياً، إذن يعد النزاع الديني أحد التأسيسات الأيديولوجية للحرب الأهلية الطائفية بين الميليشيات الشيعية والميليشيات السنية بتنوعاتها في العراق، ولكن يبقى هذا النزاع محكوماً بنظام القوة وتوزيع ممتلكات السلطة السياسية والثروات"[3].

وعلى الرغم من أن الطائفية كانت سائدة في المجتمع العراقي منذ عهد الخلافة العثمانية، إلا أنهم كانوا على وعي باختلافهم، وحاولوا أن يتعايشوا تحت ظل بلد واحد إلى حد ما، ولم تكن الصراعات بينهم تصل إلى حد التناحر والاقتتال، إلا أن تدخل أمريكا ولعبها ورقة الأقليات حوّل ذلك الاختلاف إلى خلاف أشعل فتيل الحرب

[1] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها، ص306، 309.

[2] عقيل عباس: الإسلام السياسي الشيعي في العراق والديمقراطية التوافقية: إشكاليات الخطاب وتحديات التنوع، مجلة سياسات عربية، قطر، ع29، 2017، ص36.

[3] يوسف محسن: مقدمات نظرية لدراسة الحرب الأهلية الطائفية في العراق 2003-2017، middle-east-online.com، اطلع عليه يوم: 07 أفريل 2023، على الساعة: 14:50.

الطائفية. "فمن الجلي تماماً حدوث تغير بين طبيعة العنف الطائفي قبل الاحتلال الأمريكي وأثنائه، من حيث وجود استقرار نسبي خلال فترة صدام ثم حدوث تدهور في الاستقرار المجتمعي مع بداية الاحتلال، إلى أن وصل الأمر لنشوب حالة من الحرب الأهلية. وقد كانت أولى خطوات أمريكا لتفتيت العراق هي القضاء على مؤسسات الدولة وحل المؤسسات الأمنية بما فيها الجيش، ومن ثم تشكيل مجلس الحكم المؤقت مما أوضح البعد الطائفي والعرقي لسياسات الاحتلال، حيث تم توزيع مقاعد المجلس البالغ عددها 25 مقعداً على أسس الطائفة والعرق، ثم امتد هذا التوزيع الطائفي إلى مختلف الوزارات التي تشكلت، وبالتالي فقد أصبحت الاعتبارات الطائفية هي المعيار الأساسي لاختيار الأعضاء وذلك لأول مرة في تاريخ العراق الحديث. فقد تم توزيع المناصب الرئيسية الثلاثة وهي: منصب الرئاسة، ورئاسة الوزراء، ورئاسة البرلمان بين الطوائف الثلاثة الأكبر حجماً ممثلين في السنة والشيعة والأكراد، حيث أن منصب رئاسة الوزراء والذي يعد أهم المناصب الثلاثة نظراً إلى كون النظام السياسي العراقي نظاماً برلمانياً، كان لصالح الطائفة الشيعية على الرغم من كونها في المرتبة الثانية من حيث الحجم السكاني بعد الطائفة السنية، بينما ذهبت رئاسة الجمهورية إلى الطائفة الكُردية على الرغم من كونها أصغر الطوائف الثلاثة حجماً، بينما أصبح منصب رئيس البرلمان للطائفة السنية على الرغم من أنها أكبر الطوائف الثلاثة حجماً"[1]. وبالتالي، فقد هدفت الولايات المتحدة من خلال إقامة هذا النظام إلى تعزيز الطائفية واستمرار الانشقاق بين الطوائف المختلفة، حتى يبقى العراق مقسماً جغرافياً وسياسياً واجتماعياً.

3- الهجرة بعد الغزو (الأسباب والتداعيات):

شردت الحرب الكثير من الشعب العراقي ونثرته في أرجاء المعمورة هاربين من وطن أعلن استسلامه للخراب، ويعود ذلك للواقع البائس والمضطرب الذي ساد المجتمع العراقي، فبعد أن أصبح العراق يتكوّن من حكومات محاصصة طائفية، وأصبح التناحر بين الطوائف المختلفة هو المظهر السائد في الحياة اليومية للعراق، أصبحت التعددية تشكل تهديداً لاستقرار الدولة وأمن المجتمع. رغم أن الجماعات القومية والدينية والمذهبية المختلفة التي أصبحت تشكّل العراق ليس مشكلة بحد ذاتها طالما أن الكثير من الدول في العالم تتكون من مجتمعات متعددة ومتعايشة فيما بينها، إلا أن "مشكلة التعدد والتنوع تكمن في غلبة عوامل الفُرقة والتنافر على عوامل التجانس والتلاحم بين مكونات المجتمع التعددي المتنوع. كما تكمن هذه المشكلة أيضاً في فشل أسلوب الإدارة المجتمعية أو السياسية لعلاقات التفاعل بين المكونات المجتمعية المتعددة، مما يخلق حالة سلبية تهدد مقومات استقرار الدولة وحتى استمرارها".[2]

[1] عبد الله جمال حسني يوسف: أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق، المركز الديمقراطي العربي، democraticac.de، الموضع: الدراسات البحثية، اطلع عليه يوم: 17 أفريل 2023، على الساعة: 03:00، ص44-45.

[2] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها، ص300، 302.

يُضاف إلى ذلك سبب آخر، وهو أن تقسيم العراق مناطقياً أصبح تقسيماً طائفياً بين الأكراد والسنة والشيعة، مما أسفر عن ظهور أزمة وتناقض في الهوية العراقية، فقد اتسعت بذلك الفجوة بين الطوائف أكثر وأصبحت انتماءات الشعب تقوم على أساس ديني طائفي بدل أن يكون انتماؤهم للدولة ويتوحدوا كشعب واحد، وهكذا نشأت إشكالية هوية وطنية في العراق. "فقد انقسم أبناء الشعب الواحد ذي الهوية الوطنية الجامعة، وتماهى في هويات قومية وإثنية ومذهبية متعددة. فتماهى الكردي بهويته الكردية على حساب الهوية القومية العربية، وفي حين حافظ الكردي على هويته الكردية، لم يحافظ العرب على وحدة هويتهم القومية، بل انقسموا سنة وشيعة... هنا تختلط مفاهيم الهوية العقائدية مع مفاهيم هوية الدولة ومصالحها، مع دخول عامل الحدود الجغرافية للدولة، وما يرتبط بها من إدارة للموارد والمنابع والمصادر للمواد الأولية"[1].

ولم يقتصر المشكل على أزمة الهوية وحسب، بل إن التقسيم المناطقي القائم على أساس طائفي أحدث شرخاً كبيراً بين الشعب العراقي وأصبح مجتمعاً يفتقر للاستقرار والأمان ومعرض للنزاع الدائم، فقد تغيرت البنية الاجتماعية العراقية وأصبحت كل طائفة متمركزة بذاتها ومتقوقعة على نفسها، وأصبح النظام السياسي نظاماً طائفياً. وهذا ما جعل في النهاية الكثير من الأفراد والجماعات يلجؤون للهجرة بحثاً عن وطن بديل، ورغم أن العراق كان قد عرف موجات هجرة من قبل خصوصاً أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وكذلك في فترة التسعينات خلال حرب الخليج، لكنه لم يشهد هجرة جماعية أكبر وأكثر حدّة من تلك التي شهدها بعد الاحتلال الأمريكي وتصاعد موجة العنف الطائفية التي كانت سبباً في تقتيل الكثير من العائلات.

وتفيد الإحصاءات التي تناقلتها وسائل الإعلام أن أعمال العنف في العراق "كانت تحصد نحو 30 قتيلاً كل يوم خلال عامي 2003 و2004، ثم أخذت في الارتفاع مع نهاية عام 2005 لتصل إلى 50 قتيلاً، وازدادت إلى أكثر من 100 جثة في اليوم مع منتصف عام 2006، إضافة إلى التمثيل والتنكيل بالجثث. ثم ارتفع عدد القتلى المدنيين العراقيين في بداية عام 2007 إلى حوالي 3700 قتيل مع تصاعد أعمال العنف الطائفي. ويشكل الرجال الأغلبية العظمى من الضحايا مخلفين ورائهم عدداً غير معلوم من الأرامل والأطفال الذين حرموا من مصدر عيشهم، مما يلقي بهم في دوامة من الأزمات. ومن أخطر المظاهر التي ترتبت على عملية الاقتتال بين الطوائف في العراق ما يطلق عليه ظاهرة التهجير القسري، والتي تعني إجبار أتباع طائفة معينة على ترك المناطق التي بها أغلبية من أتباع الطائفة الأخرى حتى لا تتعرض للقتل. ونتيجة لذلك، فرّ آلاف من السنة من مناطق الشيعة إلى مناطق ذات أغلبية سنية، وهكذا الأمر بالنسبة للشيعة".[2]

وبالإضافة لتلك الهجرات الداخلية، نزح الكثير من السكان خارج العراق هرباً من الوضع المتأزم وطلباً للأمن، وكذلك طمعاً في العثور على ظروف معيشية أحسن نظراً للوضع الاقتصادي المتردي في تلك الفترة. فقد عرف

[1] أنيس النقاش: الكونفدرالية المشرقية (صراع الهويات والسياسات)، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، لبنان، 2015، ص243.

[2] عبد الله جمال حسني يوسف: أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق، ص38-39.

العراق وقتها "أوسع هجرة جماعية في أقصر فترة زمنية، والتي اصطبغت بألوان طيف طائفي ومذهبي، مع أنها شملت مئات الآلاف من العراقيين من جميع الفئات السكانية والعمرية، بما فيهم آلاف من المثقفين والأدباء والعلماء والأكاديميين والأطباء والمهندسين والعسكريين. إن الشتات العراقي اليوم يشمل نحو أربعة ملايين عراقي، وهو موزع على النحو الآتي (الأرقام تقريبية، إحصاءات من عام 2017):

الولايات المتحدة: 360 ألفا، بريطانيا: 450 ألفا، السويد: 280 ألفا، ألمانيا: 190 ألفا، هولندا: 150 ألفا، بلجيكا: 90 ألفا، الدانمارك: 150 ألفا، سويسرا: 40 ألفا، أستراليا: 50 ألفا، نيوزيلاندا: 25 ألفا، كندا: 70 ألفا، فرنسا: 10 آلاف، النرويج: 35 ألفا، فنلندا: 20 ألفا، مصر: 150 ألفا، الأردن: 400 ألفا، دول الخليج: 40 ألفا، اليمن: 70 ألفا، لبنان: 50 ألفا، ليبيا وشمال أفريقيا عموماً: 30 ألفا، إيران: 300 ألفا، وبلدان أخرى متفرقة 100 ألف. وبين هؤلاء المهاجرين كفاءات عراقية نادرة، إذ يزيد عدد الأطباء في بريطانيا وحدها على سبعة آلاف طبيب، ويوجد أكثر من هذا العدد في أوروبا وأميركا".[1]

فقد كانت الهجرة آخر حبل نجاة للشعب العراقي، أملته ضرورة الهروب من أعمال العنف والتقتيل والاضطهاد بسبب المجموعات الطائفية المتناحرة فيما بينهما، وكذا النظام السياسي الجديد الذي يقوم على التعددية الطائفية، والذي شدّد الخناق أكثر على حرية الفرد، فهذه الأسباب دفعتهم للبحث عن مكان جديد لبناء حياة آمنة وخالية من الخوف والاضطراب.

وبناءً على ذلك، يمكن تلخيص تداعيات الهجرة في ثلاثة أسباب رئيسية هي:

- تحول النظام السياسي إلى حكومات محاصصة طائفية، مما عزّز عوامل الفرقة والاختلاف.
- التقسيم المناطقي القائم على أساس طائفي، حيث أصبح العراق مجزأ لأقاليم كردية، وأخرى سنية، وأخرى شيعية.
- احتدام الاقتتال بين المجموعات الطائفية، وتصاعد أعمال العنف التي وقع نتيجتها آلاف الجرحى والقتلى والمشردين.

ولا مناص من القول إن استمرار الصراع والتوتر بين الطوائف في العراق كان له بالغ الأثر على العراق كدولة بشكل عام، وكذا على الشعب العراقي بشكل خاص، فقد سبّب هذا الصراع اضطرابات عديدة للدولة وعرقل بناءها واستقرارها، كما ارتدت الآثار على الشعب العراقي الذي وجد نفسه وسط مجتمع مفتّت لا يصلح للعيش؛ انعدام الأمان، قمع الحريات، وضع اقتصادي مزري، نظام سياسي مجحف، مؤسسات تعليمية ومراكز صحية طالها الدمار، خسائر مادية وبشرية فادحة... إلخ.

[1] عبد الحسين شعبان: وماذا عن الشتات العراقي؟، www.aljazeera.net، اطلع عليه يوم: 07 أفريل 2023، على الساعة: 16:40.

وفي ظل هذه الصراعات والواقع اليائس الذي كانوا يعيشونه، نجد أن منهم من استسلم وحاول إكمال حياته متكيفاً مع واقعه الجديد، بينما هناك من اختار التمرد وانضم إلى حركات سياسية وأحزاب ثورية مختلفة، بينما اختار البعض الآخر طريق الهجرة آملين في الخلاص من المعاناة التي يعيشونها "ففي ظل هذه الأوضاع، تُشكل الهجرة أفضل الحلول الممكنة، فالمغترب ينسحب بسبب ظروف وطبيعة المجتمع أو الأنظمة أو المؤسسات التي ينتمي إليها، معلناً بانسحابه وضع حد لتلك العلاقات التي تحيله إلى كائن عاجز... وقد يكتشفون في النهاية أن الانسحاب لا يمثل حلاً مجدياً"[1] فقد يتعايش بعض المهاجرين مع المجتمع الجديد ويتكيفون معه، لكن الأغلبية يعانون في تقبل الحياة الجديدة التي تحمل عادات وثقافة مختلفة، وتجدهم يعيشون دائماً بفراغ عاطفي بسبب الحنين للوطن. وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من الاغتراب سواءً كان اجتماعياً أو ثقافياً أو نفسياً أو ذاتياً... بسبب المجتمع الجديد الذي يجد المغترب نفسه فيه خصوصاً بالنسبة للمهاجرين إلى البلدان الغربية.

المبحث الثاني: صراع الهوية والاندماج

تطرح قضية أزمة الهوية لدى المغتربين نفسها بقوة في الوقت المعاصر، خاصة مع ازدياد أعداد العرب المهاجرين للبلدان الغربية، فهي محل جدال ومناقشات كثيرة سواءً في الكتابات الأدبية أو في المجالات الأخرى مثل الأعمال السينمائية والتقارير الصحافية... وغيرها، فالجالية العربية في البلدان الغربية تواجه تحديات كبيرة في كيفية الاندماج مع هذه المجتمعات مع الحفاظ على هويتها العربية والإسلامية دون التعرض للتهميش والإقصاء، ودون الانصهار التام معها.

وكما سبق وتحدثنا في المبحث السابق عن أزمة الهوية العراقية وانتماءاتهم المتعددة القائمة على أساس طائفي وعرقي، سنلقي الضوء في هذا المبحث على أزمة من نوع جديد يتعرّض لها المهاجرين في البلدان الغربية، والصعوبات التي تواجههم بعد الهجرة، وهي الأزمة المعنية بالدراسة في هذا البحث، وبالأخص بالنسبة للمهاجرين العراقيين سواءً الذين هاجروا منهم طوعاً أو قسراً. وسنذكر هنا تلك الصعوبات والأزمات باختصار وبشكل عام، ثم نتعمق في الموضوع أكثر في الجزء التطبيقي من خلال إسقاطها على شخصيات وأحداث المتن الروائي المدروس.

جدلية الصراع بين القديم والجديد في الغرب:

لم يكن الفرار من براثن الحرب نهاية المأساة، بل كانت باكورة كفاح جديد يتعرض له المهاجرين في البلاد التي ظنوا أنها ملجأهم الآمن، فالهجرة إلى بلد جديد تأتي مع مجموعة من التحديات والعوائق على اختلاف الفئات العمرية ونوع جنس المهاجرين ومسؤولياتهم الاجتماعية. ويُصنف المهاجرين إلى ثلاثة أجيال رئيسية؛ الجيل الأول هم الذين هاجروا من البالغين، ثم الجيل الثاني وهم الأبناء الذين هاجروا وهم أطفال ثم تربوا ونشأوا في المجتمع

[1] حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، ص81-83.

الجديد، ويليهم الجيل الثالث، وهو الجيل الذي وُلد في المهجر. وفيما يلي، سنتعرف على أهم التحديات والمشاكل التي تواجه المكونات الأولى (الجيل الأول) والمكونات الثانية (الجيل الثاني) بعد الهجرة.

1- الصراع بين المكونات الأولى (الأسر والعائلات)

لا تنتهي مشاكل المهاجر بمجرد أن ينتقل الفرد إلى بلد آخر، بل إنها تكون بداية لمشاكل جديدة وصراعات يعاني منها مستقبلاً، فحين يصل المهاجرون أخيراً إلى وجهتهم "غالباً ما يتعذر عليهم الحصول على سكن أو الاستفادة من الرعاية الصحية والتعليم أو فرص العمل. كما يمكن أن يتحولوا إلى أهداف سائغة ويتعرضوا للإساءة والابتزاز والاستغلال بسبب فقدانهم شبكة الأمان العائلية وعدم توفر معلومات كافية أو أوراق ثبوتية لهم"[1]. حتى أن بعض المهاجرين قد يواجهون مشكلة الترحيل القسري، خصوصاً بالنسبة للاجئين في أوقات الحرب والذين يهاجرون بأعداد كبير في آنٍ واحد.

هذا بالنسبة إلى أولى العقبات التي يواجهها المهاجر ما إن يصل إلى البلد الذي يستضيفه، ثم تبدأ سلسلة من العراقيل والشقاء، يكابد فيها المهاجر شتى أنواع المعاناة ويتبدد حلمه بحياة جديدة آمنة ومستقرة، "فالهجرة التي تحمل حلم الخلاص قد تتحول إلى منفى آخر حيث المهاجر غريب في المكان الذي يحل فيه، لا يحق له المشاركة ولا القول أو النشاط تبعاً لقوانين الهجرة ذاتها أو بنود عقد العمل الذي يوقعه، إنه الوجود المشروط أو القبول المشروط الذي ينفي الإنسان عن ذاته. مما يهدد باضطراب الهوية الذاتية ومفهوم الذات، فتتحول حياته هناك إلى ضياع وجودي فعلي. بالإضافة للوقوع في تناقض المكانين واللغتين والثقافتين وما يفرقهما أكثر مما يجمعهما"[2]. فالدول الغربية تفرض وتطبق قوانين صارمة على اللاجئين من دول العالم الثالث، وإن كانت تضمن لهم بعض الأمن والحرية والوضع المادي المريح، فهي في المقابل تسلبهم أكثر مما تعطيهم، وتسبب لهم اضطرابات نفسية واجتماعية شتى.

وحتى بعد التكيف مع المجتمع الجديد إلى حد ما بتجاوز عقبات مثل اللغة والاستقرار الوظيفي والإقامة وإعادة تنظيم الحياة، يدخل المغترب في دوامة جديدة من الصراعات، فيجد نفسه في مواجهة تحدي آخر يتمثل في صراع اندماج مع ثقافة ونمط حياة المجتمع الجديد ومحاولة الحفاظ على هويته وثقافته الأصلية، فالمهاجر يواجه مشكلاً كبيراً في "محاولة التوفيق بين تراث الماضي وثقافة الحاضر، فمن تراث الماضي تتكون الشخصية الفريدة التي تتميز بها أمة من سائر الأمم، ومن ثقافة الحاضر تستمد عناصر البقاء والدوام، فالأمة العربية عربية بما قد ورثته عن الأسلاف من عوامل، أهمها العقيدة واللغة والعرف والتقاليد"[3]. ومثلما تحاول الأمة العربية الحفاظ على هويتها وشخصيتها من أن تنجرف مع تيار الحضارة الغربية في عصر العولمة والانفتاح الثقافي، كذلك يحاول الفرد العربي

[1] اللجنة الدولية للصليب الأحمر: الهجرة والتحديات الإنسانية، www.icrc.org، اطلع عليه يوم: 14 أفريل 2023، على الساعة: 17:00.

[2] مصطفى حجازي: الإنسان المهدور (دراسة تحليلية نفسية اجتماعية)، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005، ص254-255.

[3] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص80.

أن يحافظ على هويته وشخصيته العربية في ظل المجتمع الغربي الذي يعيش فيه، فأكبر مشكلة تواجه الجالية العربية المغتربة هو الحفاظ على هذه الهوية والتعايش في المجتمع الجديد بعد أن تربى في كنف مجتمع عربي مسلم، ثم وجد نفسه فجأة يواجه موجة ثقافية جديدة، ومجتمع تسوده عادات وتقاليد بعيدة كل البعد عما ألفه في بلده. "وبالتالي، يخلق هذا الواقع شعوراً بالغربة في نفس اللاجئ، في لغته وشعائر دينه وتقاليده وهوية لباسه، فيصبح أمام خيارين صعبين: إما الانطواء على نفسه والابتعاد عن المجتمع ولهذا المنحى أخطار كبيرة، أو التخلي عن ممتلكاته الثقافية والإنسانية والذوبان، ويعيش بالتالي غربة داخل غربة"[1]. ورغم أن الغالبية الكبرى من المغتربين يواجهون هذه المشكلة، إلا أن هناك من المهاجرين من استطاع تجاوز هذه العقبة أيضاً والتأقلم مع متطلبات المجتمع الجديد وتحقيق توازن بين الهويتين، فتمكنوا من الاندماج مع المجتمع الجديد مع الحفاظ على هويتهم الأصلية، وكانوا قادرين على الفصل بين متطلبات هذا المجتمع وأسلوب حياته، وبين قيم وعادات وتقاليد مجتمعهم الأصلي لتوفير بيئة متوازنة واستقرار نفسي "فمنهم من يظل حاملاً هويته بين يديه ولا يستطع أن ينفصل عن الوطن الذي نشأ وتربى فيه، فيزداد عشقه لترابه، حالماً بالعودة إلى بلده بأصالتها وعاداتها وقيمها وأفكارها. وهناك آخرون لم ينجحوا في التمسك بالأصالة طويلاً، فسرعان ما ضاعت هويتهم والانتماء للوطن الأم، فخلع عباءة العادات وثقافة الوطن الأصلية، ليرتدي عباءة أخرى بأفكار وقيم وعادات يرونها تناسبهم أكثر، وتلك هي الازدواجية وذلك هو التخبط الفكري، بسبب اتساع الفجوة بين الأصيل والبديل، وهي ظاهرة تمثل جدلاً واسعاً في عالمنا العربي"[2].

ولهذا، يعاني المهاجر الأمرّين في محاولة التوفيق بين الحياة الجديدة وهويته الأصلية، ويحتار لمن يعطي الأولوية؛ للاندماج أو للحفاظ على الهوية! "فالجيل الأول من المهاجرين يُصاب بحالة تنازع الهوية، باعتبار أنه نشأ وترعرع في ظل ثقافة مختلفة من حيث التقاليد والأعراف واللغة والدين وغيرها، ما يؤدي إلى ردة فعل تقود الشخص إلى تفضيل العزلة عن المجتمع، ما يجعله فريسة للأفكار المتطرفة، ويمكن أن يقوده ذلك إلى اتخاذ مواقف معادية للمجتمع الذي يعيش فيه"[3].

إضافة لمشكل الحفاظ على هويتهم، فالجيل الأول الذين هاجروا مع أولادهم يواجهون صعوبة في نقل ثقافتهم الأصلية لأبنائهم وأحفادهم الذين يذوبون في هذا المجتمع الجديد ويضعفون أمام التأثير الغربي. فالمهاجر عندما ينتقل إلى بلاد أخرى خاصة إلى بلاد الغرب يجب أن يكون على استعداد للتصادم مع هذا المجتمع، كما أن عليه وضع تصور أنه سيستقر هناك –إذا كانت هجرته دائمة– وبذلك سيكون أولاده وأحفاده جزءاً من هذا المجتمع مستقبلاً، لذلك يجب أن يوفر لهم أسباب النجاح والاندماج الصحيح السوي مع المحافظة على الهوية والثقافة الأصلية دون الذوبان والانصهار في هذا المجتمع، خاصة إذا كان الاندماج في بعض البلدان هو سبيل النجاح فيها

[1] أحمد أبو رتيمة: المغتربون العرب في الغرب... صراع الهوية والاندماج، arabi21.com، اطلع عليه يوم: 14 أفريل 2023، على الساعة: 15:40.

[2] محمود متولي: ازدواج الهوية... صراع بين الانتماء للوطن البديل والولاء الأصيل، اطلع عليه يوم: 15 أفريل 2023، على الساعة: 01:42.

[3] المرجع نفسه.

سواءً في وظائفهم أو مكانتهم الاجتماعية، أما الذين يفصلون أنفسهم عن ذلك المجتمع ويعادون ثقافتهم فسيتعرضون دوماً للتهميش والإقصاء فيها، فالرغبة في النجاح في ذلك المجتمع يمكن أن تعني أحياناً التخلي عن الهوية الأصلية وتقبل الثقافة الجديدة، فهل يمكن للمهاجر أن ينجح ويحافظ على أصله وهويته في نفس الوقت؟ هذا هو جوهر معاناة المهاجر الذي يبحث عن طريقة للنجاح في ذلك، وما عليه سوى اكتشاف طريقة لتحقيق توازن بالاندماج دون الانصهار، والمحافظة في نفس الوقت على هويته الأصلية.

2- الصراع بين المكونات الثانية/ اللاحقة (الجيل الجديد):

تواجه المغترب تحديات عديدة كما سبق القول تبدأ مع تعلم اللغة والاستقرار، إلى الاندماج والانصهار مع المجتمع الجديد. لكن ماذا عن الأولاد الذين يولدون في بلاد المهجر أو يهاجرون وهم أطفال! ما هي الصعوبات التي تواجه أهلهم في عملية دمجهم في المجتمع الجديد مع الحفاظ على هويتهم وثقافتهم الأصلية من الضياع، وما هي الصعوبات التي تواجههم كأفراد لاسيما في مرحلة الشباب وبداية تكوّن وعيهم وشخصيتهم!

فمرحلة الشباب مرحلة حرجة جداً بالنسبة للإنسان، لذلك تمثل مسألة الهوية خلال هذه المرحلة مسألة حساسة ومهمة في تكوينه وتوجيه حياته المستقبلية، "وإذا كانت الهوية تمثل قضية مهمة في كل مراحل نمو الإنسان، فإن أهميتها تزداد بدرجة كبيرة في مرحلة الشباب التي يمثل فيها تحقيق الهوية تحدياً ومطلباً أساسياً للنمو، فهي تعتبر موقفاً ونقطة تحول في مسار النمو يمكن أن تنفرج عن النضوج بوصفها تعكس كفاح الشباب نحو بلوغ الرشد... نحو تحديد ماهيته ووجهته ومعنى حياته.[1]

وبالإضافة إلى أزمة الهوية التي يعاني منها الشباب عموماً في محاولة البحث عن معنى حياته وتحديد إلى أين تتوجه، يعاني الجيل الجديد من المهاجرين على وجه الخصوص وهو الشباب المغترب الذي تربى على ثقافة غربية، من أزمة هوية أعمق وأكثر خصوصية، "وتكمن مشكلة الجيل الثاني فيما يتعلق بتشكيل هويتهم بأنهم على اتصال بثقافة موطنهم الأصلي عبر احتكاكهم بالجيل الأول، بالإضافة إلى اتصالهم بالبيئة المختلفة التي يعيشون بها، حيث يقع على عاتق أفراد الجيل الثاني فهم عادات وتقاليد وطن أبويهم والاحتفاظ بتراث في غالب الأحيان لم يشهدوه من قبل، بالإضافة إلى فهم ثقافة البلد المضيف الذي ولدوا فيه التي يجدونها منطقية أكثر غالباً بسبب تعودهم عليها، ومن ثم عليهم محاولة المطابقة بين العالمين المختلفين بوتيرة يومية"[2]. فجيل الشباب ينشأ على قيم مختلفة عن تلك التي نشأ عليها آباؤهم في وطنهم الأم، ومع الوقت تفتر صلته بوطنه ويفقد جذوره "فالشباب لا يوجدون في الشروط عينها التي أحاطت بآبائهم، وهم لا يعيشون الحالات نفسها التي عاشها آباؤهم. فلكل جيل إدراكه الخاص للمجتمع ولنماذجه الثقافية... لهذا يوجد تعارض بين جيليّ المهاجرين، فالآباء يحافظون على قيم ومعايير

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص23

[2] هزار نجار: الجيل الثاني من المهاجرين... سؤال الهوية وتحديات الاندماج، www.noonpost.com، اطلع عليه بتاريخ: 14 أفريل 2023، على الساعة: 16:10.

مجتمعاتهم الأصلية، ولكن الأطفال الذين يوجدون في مدارس المجتمع الجديد يتأثرون بعملية التنشئة التي تمارسها وسائل الإعلام المحلية، وهم يتمثلون بذلك قيم مختلفة عن قيم آبائهم".[1] ولهذا السبب يتعرض الجيل الثاني لضغوطات أكبر من الآباء الذين يحاولون أن يفرضوا عليهم قيماً وعادات لا يرونها حولهم ولا يفهمون جوهرها كونهم لم يعيشوا وسط جماعة تمارسها، بل يعيشون وسط جماعة تمارس عكس تلك العادات والمبادئ في أغلب الأحيان، وتتلخص مشكلة الأجيال في بلاد المهجر في أن "انتماء الجيل الأول من المهاجرين العرب يبقى إلى بلدانهم الأصلية أقوى بكثير، بينما الجيل الثاني أو الثالث يشعر بالانتماء إلى بلد الاغتراب أكثر"[2]

رغم أن هناك الكثير من الصعوبات الأخرى تواجه هذا الجيل، إلا أنه يمكن القول أن هذه من أكثر المشكلات التي كانت ولازالت تمثل تحدياً كبيراً أمام المغتربين، وهذا ما يقود هذا الجيل إلى المعاناة من تصدعات وانشطارات في الهوية، يصحب ذلك اضطرابات نفسية وقلق دائم وانعزال عن المجتمع الذي يعيشون فيه ازدواجية هوية، ما بين التمسك بأسلوب الحياة الاجتماعي والديني الذي يمثل هويتهم الأصلية من جهة، وبين قبول أسلوب الحياة الجديد والمشاركة فيه من جهة أخرى، بحيث يكون من الصعب عليهم تبني قيم المجتمع الجديد دون التخلي عن هويتهم الأصلية، فيقف هذا الجيل في المنتصف ويبدد طاقاته في محاولة إيجاد انتماء يناسبه دون الشعور بأزمة كينونة.

والمشكلة تكون أكثر بالنسبة للجيل الثالث الذي يأتي بعدهم، وهم الأطفال الذين ولدوا في بلاد الغرب، بحيث "تبرز خطورة المأساة الخاصة بالهوية عندهم حيث يعاني هؤلاء الأطفال من جهل عميق بثقافة مجتمعهم الأصلي، وهم في الوقت نفسه يعانون من رفض المجتمع الذي يعيشون في وسطه. ومن هذا المنطلق فإنهم يعانون من مشكلات خاصة بوسطهم العائلي الذي يشكل مصدراً للنقد الذي يوجه نمط حياتهم وسلوكهم. ومثل هذه المجموعة من العوامل لا تسمح ببناء شخصية إيجابية، فالمشاعر الخاصة بالانتماء والتماسك والثقة تتخلى عن مكانها لمشاعر عميقة بالاستلاب والاغتراب"[3].

واستخلاصاً لما سبق، فالجيل الأول يواجه صعوبة أكثر من غيره في الاندماج بالمجتمع الجديد كونه تشبّع بثقافة بلده وهويته الأصلية وعاش وهو لا يعرف سواها، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجذوره. بينما أكثر ما يستعصي على الجيل الثاني من الأبناء هو الحيرة والارتباك نتيجة الوقوف في المنتصف بين هويتين وثقافتين، ثقافة البلد الجديد الذي يراها حوله ويعيش عليها، وثقافة بلده الأصلي الذي لم تتشبع روحه بها ولا يدرك منها إلا ما تعلمه من آبائه، فلا يوجد ما يربطه بالوطن وهويته الأصلية، وبالتالي فهو يعيش ازدواجية هوية، وأغلبهم يكونون أكثر قرباً للثقافة الجديدة من ثقافتهم الأم، وأغلبهم يصاب بأمراض نفسية واضطرابات سلوكية في محاولة الحفاظ على هويته الأصلية.

---

[1] أليكس ميكشيللي: الهوية، ص135.

[2] أحمد أبو رتيمة: المغتربون العرب في الغرب... صراع الهوية والاندماج، اطلع عليه على الساعة: 15:40.

[3] أليكس ميكشيللي: الهوية، ص158.

الفصل الثالث:

إشكالية الاغتراب

وأزمة الهوية في الرواية

الفصل الثالث: إشكالية الاغتراب وأزمة الهوية في الرواية

تمهيد:

عالجت رواية كريسماس في مكة قضايا متعددة نجح الروائي في دسها عن طريق الشخوص والأحداث، منها ما هي قضايا جانبية ومنها ما هي رئيسية، وقد ركزت أساساً على قضية الاغتراب وأزمة ضياع الهوية والصراع الذي يقع فيه المهاجرون العرب في البلاد الغربية، والتحدي الذي يواجهه الأشخاص بصفتهم ذوي أصول عربية ويعيشون في بلد غربي، فكيف لهم أن يحافظوا على هويتهم الأصلية بينما يعيشون في الوقت ذاته وفق عادات وتقاليد مجتمعهم الجديد. كما أن هذه الأزمات لا تقتصر فقط على الشخصيات التي عاشت في المجتمع الغربي، بل حتى الشخصيات التي بقيت في الوطن، فالشخصيات على اختلاف ظروفها وانتماءاتها ورؤاها، عاشت محنة اغتراب وصراع هوياتي داخل وخارج العراق، فصراع الهوية لا يعني بالضرورة وجوده عند المغتربين المسلمين الذين يعيشون في الغرب فقط، بل هي ظاهرة عامة رغم أنها أكثر وضوحاً عند الجالية المهاجرة في الغرب.

وتطرح الرواية أيضاً موضوع الحرب الطائفية في العراق، ومجازر القتل على الهوية بين الطائفتين السنية والشيعية، والواقع الأليم الذي عاشه العراقيون آنذاك. وقد عايشنا هذا الواقع من خلال ذكريات شخصيات الرواية، ورغم أنها كانت استرجاعات مبعثرة ومتفرقة في الرواية، إلا أنها كانت كافية للشعور بوطأة المأساة التي عاشوها وفهم مدى الأثر الكبير التي تركتها تلك الأحداث في نفوسهم والصدمات التي سببتها لهم، وأغلب الأزمات والصراعات التي واجهتها الشخصيات فيما بعد تعود أساساً لهذه الأحداث المأساوية التي عاشتها خلال تلك الفترة.

ويأتي هذا الفصل ليستخرج أهم تجليات الاغتراب ومظاهر الأزمة الهوياتية التي كان لها حضور قوي في المتن الروائي، فالاغتراب وأزمة الهوية ظاهرتان متلازمتان، وقد أكدت هذا نتائج الدراسة، فكل الشخصيات تعاني من أزمات واغترابات حادة. لذلك قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين: يأتي المبحث الأول بعنوان "مظاهر الاغتراب (تداعيات الهجرة)" أما المبحث الثاني فقد وسمناه بـ: "مظاهر الأزمة الهوياتية".

المبحث الأول: مظاهر الاغتراب (تداعيات الهجرة)

تعد ظاهرة الاغتراب عملية حتمية يمر بها الإنسان المعاصر، فهي تكاد تصبح جزءاً من حياته الاجتماعية والثقافية والفكرية... ومظاهرها تنعكس على معظم مجالات حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية... يصاحبها شعور بعدم الاستقرار والأمان، والقلق والاضطراب، والعجز والانعزال، وغيرها من المشاعر السلبية التي تؤثر عليه وتعيق نموه الفكري والاجتماعي، وتجعله يتحول إلى فرد خامل وفاقد للإحساس.

والدارس في أنواع الاغتراب وأنماطه يجدها تتداخل وتترابط مع بعضها لحد يصعب الفصل بينها. إلا أنه يمكن دراسة كل مظهر من هذه المظاهر على حدى وتصنيفها من خلال مسبباتها ونتائجها، فالدوافع التي تؤدي إلى نوع من أنواع الاغتراب تكون معياراً لتصنيفه. ولذلك سنعرض في هذا المبحث أهم مظاهر الاغتراب بصورته السلبية الحاضرة في المتن الروائي، وسنحاول بالعرض والتحليل أن نتتبع أسبابها ونكشف عن النتائج المترتبة عنها، وكيف أثرت في كل شخصية من شخصيات الرواية، من خلال رصد مظاهر هذا الاغتراب من خلال الشخصيات.

تبدأ غربة للشخصيات بسبب تجارب أليمة ومرة قاستها في مجتمعها، ومن أبرز أسبابها: هول الحرب، الهجرة إلى بلاد غريبة، الحنين إلى الوطن، والشعور بالتهميش في المجتمع الغربي الجديد... وغيرها. ولم يكن الخيار متاحاً أمامهم لخوض هذه التجربة، فالظروف والأحداث التي عاشوها في العراق بسبب الحرب كانت سبباً في النزوح طلباً للأمان ولحياة جديدة بعيدة عن الصراعات.

وبعد دراستنا للرواية وتحليل المواقف التي عاشتها الشخصيات والإلمام بأفكارها ومشاعرها، وجدنا عدة أنماط للاغتراب تختلف باختلاف الشخصيات وظروفها المحيطة، وقد تمثلت أنواع الاغتراب المدروسة في رواية كريسماس في مكة في: الاغتراب النفسي، الاجتماعي، الثقافي، الأسري، واللغوي.

كما حاولنا دراسة البعد النفسي للشخصيات من خلال أنماطها بدراسة سيكولوجية الشخصية المغتربة، وهذا بالنظر إلى صراعاتهم النفسية والاهتمام بسلوكهم، لأن سلوك الفرد هو انعكاس لشخصيته ورؤاه وموقفه الاجتماعي، وصراعاته النفسية ما هي إلا نتيجة تفاعلها مع بيئتها وتغذيها منها، وذلك ما يكوّنها ويشكلها خلال مراحل نموها. وقد ميزنا خمسة أنماط للشخصية الاغترابية وهي: الشخصية الفصامية، الشخصية القلقة، الشخصية المكتئبة، الشخصية المحتقرة للذات، والشخصية المتأرجحة بين عوالم الضياع والتخيلات.

المطلب الأول: أنواع الاغتراب في الرواية

1- الاغتراب النفسي:

الاغتراب النفسي هو حالة نفسية تنتاب الفرد عندما ينهار عالمه الروحي وتتأجج مشاعره وأحاسيسه، وهو حصيلة كل أشكال الاغتراب المختلفة، فسواءً أكانت البواعث اجتماعية أم اقتصادية أم دينية أم غيرها، فإن كل تلك المؤثرات الداخلية والخارجية التي تلعب دوراً في تغيير شخصية ونفسية الفرد وتصرفاته، تؤدي في النهاية إلى مجموعة من المشاعر والأحاسيس النفسية التي تتم ترجمتها على شكل أفكار أو أفعال تعد من مظاهر الاغتراب ونتائجه. فقد اتفقت جل الآراء على أنه "من الصعب تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي، وذلك لتداخل الجانب النفسي للاغتراب وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى، الثقافي والاقتصادي والسياسي وغيرها"[1]

اختلف الباحثون في إعطاء تعريف للاغتراب النفسي كل على حسب وجهة نظره، فمنهم من يرى بأنه "حالة نفسية يشعر الإنسان من خلالها بانفصاله عن الآخرين وعدم الانسجام معهم، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي مما يضطره إلى الانعزال"[2].

أما عبد اللطيف محمد خليفة فيرى أن الاغتراب النفسي "مفهوم عام وشامل يشير إلى الحالات التي تتعرض فيها وحدة الشخصية للانشطار أو للضعف والانهيار، بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم في داخل المجتمع، مما يعني أن الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة"[3]. وبالتالي فإنه لا يمكن فصل الاغتراب النفسي عن باقي أبعاد الاغتراب الأخرى، فالنفس البشرية تتأثر بكل السياقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية... وإن كان الإنسان يعيش اضطراباً في أي مجال من هذه المجالات، فإن نفسيته تتأثر وتضطرب وتشعر بالاغتراب عن العالم. ومن نتائجه: القلق والاكتئاب، وشعور الإنسان بالانفصال عن الواقع الذي يعيش فيه، وانعدام الراحة مع النفس... ومن مسبباته التجارب الصعبة والأزمات أو الصدمات النفسية التي يمر بها الفرد في حياته.

ونجد هذا النوع من الاغتراب لدى العديد من شخصيات الرواية التي تبدو عليها مؤشراته واضحة والمتمثلة في: "الانفراد، العزلة، العجز عن التلاؤم، وحتى انعدام الشعور بالمغزى الحقيقي للحياة، كما يتضمن انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته"[4]

[1] أحمد علي الفلاحي: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية نفسية)، ط1، دار غيداء، عمان، 2013، ص121.
[2] زليخة جديدي: الاغتراب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ع8، 2012، ص351.
[3] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص81.
[4] أحمد علي الفلاحي: مرجع سابق، ص122-123.

ومن بين شخصيات الرواية التي تجسد هذه الحالة النفسية، شخصية سعد. فهو يشعر بالانفصال والانفصام بين ما هو عليه وما كان يرغب أن يكون عليه. فأثناء تأدية مناسك العمرة خلال السعي بين الصفا والمروة، يتذكر سعد كل خيباته ومعاناته السابقة، ويمر بين عينيه شريط حياته التي قُلبت رأساً على عقب ويقول: "في السعي بين الصفا والمروة، ما كان يمكن أن أهرب من هذا كل، من بنتين لم أستطع أن أنجبهما، من ذلك السعي بين أحلام عالية لم تتحقق وبين واقع مرير محبط، بين الأنا العالية المترفعة وحقيقتها الدنيا، بين كل ما كنت أريده، وكل ما انتهيت إليه".[1] الشعور بالإحباط والفشل دفع بسعد إلى دائرة الاغتراب، فما كان يتخيله ويطمح له مختلف عما وجد نفسه يعيشه. وعند نقطة ما، أصبح يفكر أنه عديم الفائدة في هذا العالم. بعد أن كان سعد شخصاً واثقاً بنفسه لحد الغرور يرى أنه يستحق كل شيء في هذه الدنيا وأن بإمكانه الوصول لكل ما يريده، اصطدم فيما بعد بواقع أشد مرارة وقسوة، حتى أصبح يرى نفسه شخصاً فاشلاً بلا حياة وفاقد الإحساس بوجود معنى لحياته.

فهذه الحالة التي أصابت سعد هي من مؤشرات الاغتراب النفسي الذي يحدث عندما يجد الفرد نفسه "يعيش في عالم عاجز عن تأمين حاجاته وتحقيق رغباته وأحلامه، ونتيجة لذلك تبرز لديه العديد من المشكلات النفسية كالقلق والتوتر والاكتئاب والإحباط والتدني في تقدير الذات، فيجد نفسه عاجزاً عن تحملها بالأساس، ثم يبدأ شيئاً فشيئاً ينسحب من نشاطات المجتمع، فالفرد يجد نفسه عاجزاً عن التعامل مع كل هذه التغييرات وعندها يدخل فيما يسمى بالاغتراب النفسي"[2]. وقد وجد سعد نفسه تحت وطأة كل هذا، وأول ما فعله هو مراجعة طبيب نفسي، إلا أن ذلك لم يأتِ بأي نتيجة إيجابية سوى تغييبه عن العالم أكثر وجعله يشعر أنه أصبح متبلد المشاعر وفاقداً للإحساس. "لجأت أولاً إلى طبيب نفسي، لم يكن لديه أريكة كما تخيلت ولم يستمع لكل ما قلته، كنت لا أزال أتحدث له عن عقمي ولم أذكر شيئاً بعد عن عمر أو أمي أو سوسن... كتب لي شيئاً على الوصفة وقال لي: أراك بعد شهر إن شاء الله.

زولوفت 50 ميلغرام، وفاليوم 5 ميلغرام. ولا كلمة أخرى. لم أذهب له بعد شهر. بقيت على نفس الأدوية بنفس الجرعة أكثر من سنة. خلال هذه السنة أصبحت أهدأ وأكثر تصالحاً مع ظروفي أو تبلداً تجاهها".[3]

ومن مؤشرات الاغتراب النفسي أيضاً، غربة الذات والشعور بالوحدة، وهذا ما نجده لدى شخصية سعد الذي قطع كل الروابط الاجتماعية ولم يعد لديه أي أصدقاء بعد كل ما مر به، حتى علاقاته الاجتماعية وتعاملاته مع الناس أصبحت متوترة لدرجة أنه لم يستطع الصمود في أي وظيفة. وقد تفاقم شعوره بالوحدة بعد أن فقد والده آخر من بقي لديه في الحياة، ويصف سعد شعوره في اللحظة التي أعلن فيها المسعفون عن موت والده يقول: "أبي

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ط1، عصير الكتب للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص150.

[2] هيئة تحرير النجاح: مفهوم الاغتراب النفسي وأسبابه وعلاجه، annajah.net، اطلع عليه يوم: 04 ماي 2023، على الساعة: 01:00.

[3] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص82.

مات... دفنت عمر، ودفنت أمي، وها أنا أدفن أبي أيضاً. فكرت: لم يبق أحد ليدفنني"[1] ثم يقول في موضع آخر: "أدركت لأول مرة هول ما حدث. لقد أصبحت وحيداً، وحيداً تماماً... هذا العالم صار ضيقاً مثل قبر".[2]

ومن بين أشكال الاغتراب النفسي لدى سعد شعوره بالانفصال عن ذاته وعن الحياة، وأن يمضي في حياته بلا معنى فيرى أنها تسير في طريق مغلق. فنجد سعد يعاني من حالة نفسية صعبة ويصرّح باغترابه وشعوره باللامعنى وبعدم جدوى حياته وبالوحدة بعدما مات والده، يقول:

"...صعدت ميادة معي وقالت لي: استهد بالله يا سعد، عليك أن تقوي نفسك.

كنت أريد أن أقول لها: لماذا؟ لماذا عليَّ أن أقوي نفسي؟ من أجل من؟ كل من يقال له ذلك يكون عليه أن يستجمع قواه من أجل شخص آخر لكي يسنده، من لي أنا كي أكون قوياً من أجله"[3]. فهذا الإحساس باغتراب الذات ووحدتها نتيجة للفقد الذي عاناه طوال حياته، بداية من موت أخيه وأمه، ثم إصابته بالعقم الذي جعله يشعر عدم جدوى حياته وأنه لا يملك هدفاً لحياته ولا أشخاص يعيش من أجلهم، ثم موت والده الذي كان القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد كان شعور سعد بالاغتراب النفسي نتيجة لمختلف حالات الفشل والصدمات التي عانى منها طوال حياته والذي صحبه إحساس داخلي بالعجز وقلة الحيلة.

كما نجد شخصية أخرى تعاني من الاغتراب النفسي وهو حيدر، ومن مؤشرات اغتراب حيدر هو الإصابة بالعديد من الاضطرابات النفسية والمشاكل الصحية منها الإدمان على الخمر والاكتئاب والعصبية والمعاناة من الكوابيس...

وقد كان السبب الذي فاقم إحساسه بالاغتراب النفسي هو إنكاره لهويته وتنصله من جذوره، فحيدر يعترف أنه حذف تماماً ذاته الشرقية واستبدلها بذات جديدة عبَّر عنها بشخصية هايد "كل مرة كان هايد يتصرف كأي رجل بريطاني أبيض... ربما كان لديَّ خوف من أن يُفهم الحرص الأبوي الطبيعي على أنه بقايا رجل شرقي متخلف".[4] ونجده في مواضع كثيرة يتحدث عن الشرق والإسلام بعدوانية وكأنه لا يمت بأي صلة لهما، فهو يحتقر كل ما يتعلق بالثقافة العربية أو القيم الإسلامية "لا أمل هناك في هذا الشرق الذي لن يتطور أبداً. سنبقى في هذه الفوضى للأبد"[5].

ويعد هذا نمطاً من أنماط الاغتراب الذي حظي بدراسات كثيرة، يقول محمد خليفة بهذا الصدد: "يشير هذا الاغتراب إلى إزالة كافة ما كان المرء عليه بما في ذلك ارتباط حياته الحالية بماضيه، وجوهر هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر الفرد ومعتقداته... ويظهر ذلك في التمرد وعدم الانصياع للعادات والتقاليد السائدة، والرفض

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص305.

[2] المصدر نفسه، ص319.

[3] المصدر نفسه، ص306.

[4] المصدر نفسه، ص62.

[5] المصدر نفسه، ص138.

والكراهية والعداء لكل ما يحيط الفرد من قيم ومعايير"[1]. وكل هذا يبدو واضحاً وجلياً في شخصية حيدر في أكثر من موضع في الرواية.

ومن بين المؤشرات التي تدل على عدم انصياع حيدر للعادات والتقاليد كونه لا يرى أي مشكل في العيش مع فتاة تحت سقف واحد دون زواج، وهذا ما فعله قبل أن يتزوج بـ أميلي "عندما تعرفت على أميلي كانت تدرس الصيدلة، أحببتها وعشنا معاً قرابة العامين قبل أن نقرر الزواج.

قالت أمي بعصبية على الهاتف: تتزوج واحدة سلمتك نفسها قبل الزواج؟

ضغطت على نفسي كي لا أقول لها إن مجتمعنا الشرقي مليء بقصص بكارة تم رتقها قبل الزفاف بأيام، وأنها كمديرة مدرسة ثانوية للبنات كانت تعرف كيف أن الكثير من البنات في مجتمعنا يبدين العفة والطهارة ولكن واقعهن السري مختلف تماماً، على الأقل الأمر هنا واضح وصريح"[2] حيث يبدو واضحاً من موقفه هذا وكلامه عداءه لكل القيم والمعايير السائدة في العراق.

كل هذه المطبات، دفعت بحيدر نحو اغتراب نفسي حاد لم تظهر نتيجته إلا بعد حين، فقد أصبحت شخصيته تعاني من الانشطار والضعف، مما دفعه في النهاية إلى الانهيار جراء ما واجهه من ضغوطات وصراعات داخلية وخارجية. وكانت نتيجة ذلك الانفصال عن الذات وإنتاج ذات أخرى مختلفة ومعاكسة للذات الأصلية، وذلك عن طريق التحول من "حيدر" إلى "هايد". ومن أعراض هذا الفصام في شخصية حيدر: سلوك غير طبيعي، انعدام التعبير عن مشاعره وكبتها، مشاكل في العلاقات الاجتماعية والأسرية وفي العمل، عدم الاعتناء بالصحة الجسدية والنفسية، الإيمان بمعتقدات زائفة...

الشخص المغترب نفسياً يفقد القوة ويصبح متسماً باللامبالاة واللامعنى، ويصبح كل شيء أمامه باهتاً، فقد اتجه حيدر إلى الإدمان على الكحول، حتى أصبح فاقداً للشعور "شربت النبيذ دفعة واحدة، كما لو أن شربه دفعة واحدة هو الحل الوسط بين شربه وبين التخلص منه في آن واحد، شربته وانتهى.

تجاوزت تماماً ومنذ مدة أن أنتظر شعور السعادة من الكحول، كل ما أريده هو الخدر، أن أستسلم لنفسي، أن تخف المعركة في داخلي، كل ما أريده هو أن أعود كما كنت، هايد. ولو تخلصت من حيدر تماما"[3]

وبالتالي، فالاغتراب النفسي الذي يلازم الشخصيات قد جاء نتيجة تجاربها في مجتمعها، وهذا يتوافق مع تصور فروم للاغتراب، حيث يرى فروم أن "تفاعل الفرد مع مجتمعه يحدد مستوى اغترابه، فالخبرة المتضمنة في هذا التفاعل تخلق الإحساس بالاغتراب من عدمه. ويشعر الفرد بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم في أفعاله، إنه

[1] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص42.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص62.

[3] المصدر نفسه، ص113.

يصبح سلبياً عندما يستسلم لأفعاله ونتائجها".[1] وهذا ما نجده لدى شخصيات الرواية التي عانت من الاغتراب النفسي، فهي تخوض صراعاً مع ذواتها ومع محيطها الاجتماعي. وقد تجلت تداعياته في الانفصال عن الذات، والهرب من العلاقات الاجتماعية، وعدم القبول والرضا بالواقع المعاش، والشعور بعدم القيمة وعدم جدوى الحياة واللامعنى.

2- الاغتراب الاجتماعي:

يعتبر الاغتراب الاجتماعي من أكثر أنواع الاغتراب انتشاراً بين الناس "ويقصد به شعور المرء بالانفصال عن الكل الاجتماعي الذي ينتمي إليه، وهو انعكاس لوضع الفرد في المجتمع نتيجة ما يوقعه الأخير بالإنسان من عزل أو نبذ"[2] فالاغتراب الاجتماعي يحدث عندما يشعر الفرد بالانفصال عن الآخرين، وبالعزلة وعدم الانتماء لذلك المجتمع، أو الانفصال عن العادات والتقاليد المفروضة في المجتمع، وما يرافق ذلك من شعور بالألم واليأس والتشاؤم. فالاغتراب الاجتماعي يتجاوز العزلة الداخلية إلى العزلة وسط الآخرين، حيث يشعر الفرد أنه غريب في واقعه الاجتماعي وينفر من العلاقات الاجتماعية وقيم المجتمع.

تعاني الكثير من الشخصيات في الرواية من الاغتراب الاجتماعي، ومن بين هذه الشخصيات سعد، إذ يشعر أن حياته عبارة عن امتحان صعب؛ فقد أخاه أولاً، ثم أمه، ثم زوجته، ثم مرض والده وتخلى سعد عن كل أحلامه وعن حياته حتى ليعتني به، كما أن إصابته بالعقم جعلته يفقد الأمل بالمستقبل... كل هذه الأزمات تضافرت معاً لتُحدث شرخاً في نفسه دفع به في رحلة اغتراب طوال حياته، وجعله ينعزل عن المجتمع الذي يحطّم ذاته ويقزّمها.

وقد بدأت غربته الاجتماعية مع أول انكسار في حياته، وكان ذلك عندما عرف بأمر عقمه وأنه لن يستطيع الإنجاب مهما حاول، فبعد العديد من محاولات العلاج والفشل أصبح شخصاً آخر تماماً، حتى زوجته سوسن التي بقيت معه حباً به، أصبح يرى بقاءها مجرد شفقة عليه لا أكثر، لدرجة أنه أصبح شخصاً لا يُطاق "واجهت الأمر بالانتقام الساخر من كل شيء، كل شيء. انتقام من كل من يمر أمامي بتعليقات حادة وانتقادات لاذعة. لم يسلم أحد مني، لا أمي ولا أبي... حربي مع الكل شملت سوسن أيضاً، كنت أتمرد على فكرة أنها بقيت معي شفقة عليَّ. "لا أريد شفقتك" كنت أصرخ بها... لم أصمد في أي عمل طبعاً، لم يكن هناك مدير مكتب أو مقاول أو عميل يتحمل تعاملي هذا".[3] بعد أن أصبحت شخصية سعد صعبة المعشر، لم تستطع زوجته تحمله أكثر، لذلك تركته وهاجرت إلى السويد، لم يستطع هو الاعتراض على قرارها رغم أنه كان يحبها، لأنه رأى أنه من

[1] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص40.

[2] مدحت فوزي عبد المعطي حسين: الاغتراب في شعر ابن لنك البصري (الأبعاد والمثيرات وميكانيزمات الدفاع)، مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، ع35، 2022، ص400.

[3] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص150.

الإجحاف أن يجبرها على البقاء معه وهو لا يملك شيئاً ليقدمه لها، حتى أنه لم يعد قادراً على معاملتها باللطف الذي تستحقه.

كانت من نتائج غربته الاجتماعية الانغماس في لوم نفسه باستمرار والتقوقع على نفسه دون أصدقاء أو أي علاقات اجتماعية من أي شكل، حيث أنه انسحب من الحياة الاجتماعية ككل. وبهذا أصبحت أولى خطوات اغترابه النفسي كذلك.

كما صوَّر الكاتب الاغتراب الاجتماعي لشخوص الرواية من خلال المعاناة التي تعيشها مريم وعائلتها بصفتها عائلة عربية مسلمة تعيش وسط مجتمع غربي أوروبي، ورغم السنين الطويلة التي عاشوها هناك ومحاولتهم الاندماج مع ذلك المجتمع، إلا أنهم مازالوا يتلقون الرفض منهم ويُعاملون كدخلاء، وهذا ما جعلهم يشعرون أنهم يعيشون على هامش المجتمع. فعندما يشعر الفرد بأنه غير مرغوب به في البلد الذي يعيش فيه، يلازمه الإحساس بالعجز والغربة وعدم الانتماء، مما يولّد له أزمة داخلية وصراعاً يدفعه للاغتراب.

وشخصية مريم هي أكثر من تعاني من الاغتراب الاجتماعي، فهي تعتبر نفسها بريطانية رغم جذورها الشرقية، كونها عاشت طوال حياتها هناك وتربت وسطهم ولم تعرف وطناً غير بريطانيا. إلا أنها مازالت عاجزة عن إيجاد القبول داخل هذا المجتمع، فهي تعتبر فتاة عربية ومسلمة لا يرغب الكثير بالتقرب منها، وحتى لو فعلوا فسيبقون دائماً يعاملونها على أنها مختلفة عنهم، نلمس هذا في قول مريم: "كنت في الثانية عشر عندما اكتشفت أني مهما صارت لغتي ولكنتي بريطانية تماماً دون أي أثر عربي، ومهما بدوت مستعدة للاندماج، فإن المحيط حولي سيبقى يصنفني، سيضع دائرة كبيرة حمراء حولي ويكتب فوقها (عربية–مسلمة)".[1]

وقد بدأت معاناة مريم هذه في وقت مبكر من حياتها في بريطانيا، حيث تروي ما حدث لها عندما كانت في طفولتها تلعب مع صديقاتها في باحة المدرسة، تقول أن ليزلي كانت تتظاهر بأنها الملك وتحاول إزاحتها عن التل.

"قالت لي أثناء محاولتي دفعها وهي تمزح مضخمة صوتها: سأقتلك وأقطعك إلى قطع صغيرة. قالتها وهي تمزح أثناء اللعب، ولم أفهم الأمر غير ذلك.

بعد أيام كنت أنا "الملك على التل" وقلت الشيء ذاته لـ ليزلي وهي تحاول إزاحتي، تغير وجهها سريعاً وتركت اللعب، لم أفهم لماذا، ولم تتحدث معي بعدها في اليوم ذاته.

في اليوم التالي استدعت المديرة أمي... قالت لها المديرة إنني قد هددت إحدى زميلاتي بقتلها وتقطيع جثتها، وإنني ربما أحتاج لعلاج نفسي، وإنني سأوضع تحت المراقبة.

قلت للمديرة عندما استدعتني أمام أمي أن ليزلي قالت لي ذلك أولاً، ويمكن للكل أن يشهدوا معي. قالت لي المديرة أن ليزلي كانت تمزح معي حتماً، "أما أنتِ فقط قلتِها بطريقة أخافتها".

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص175.

شهدت كل صديقاتي مع ليزلي، الفتاة المسلمة هددت ليزلي بالذبح، هكذا انتهى الأمر.

يومها بكيت بشدة وقلت لأمي لأول مرة في حياتي: أريد أن أرجع إلى العراق. لم أكن أذكر أي شيء تقريباً عن العراق، ولم تكن هناك أخبار جيدة عنه ومنه بكل الأحوال، لكني شعرت أني مغبونة لأني عوملت بتمييز، فقط لأني لست بيضاء مثلهن"[1].

ولم تتغير هذه المعاملة حتى عندما كبرت مريم، تقول في موضع آخر: "أرسلت لي كلوي –صديقتي في الثانوية والتي تدرس الآن في جامعة تيسايد– رسالة على الانستغرام.

"هل من خطة للكريسماس؟ سنذهب إلى حفل kings of leaon في الـ23 من ديسمبر، جنيفر اعتذرت قبل قليل، ففضلت أن أخبرك".

بالتأكيد، آتي دوماً كخيار أخير بالنسبة لهن. في النهاية اسمي مريم بكر آغا"[2].

كبرت مريم، وكبرت معها آثار هذا الشعور بعدم الانتماء مما دفعها نحو الاغتراب الاجتماعي، وبعد عيشها سنوات في المنفى تحاول أن تتواءم مع هذا المجتمع، مازالت تشعر بالانفصال عنهم، وكل علاقاتها معهم مجرد علاقات سطحية فقد توقفت عن محاولة نيل رضاهم والفوز بقبولهم لها. فالإقصاء الذي تعرضت له مريم من مجتمعها جعلها تُدرك أنه لا يوجد لها مكانة بينهم، لذلك انعزلت بنفسها وقطعت علاقاتها الاجتماعية، فقد اكتفت فقط بصديقة واحدة هي نزرين والتي تتواصل معها فقط عبر الانترنت، وذلك بسبب أنها هي الأخرى تعاني من نفس الصراع الذي تكابده مريم، فأمها من كوسوفو ووالدها من أذربيجان، وتدرس العمارة في الجامعة في هولندا.

ويتضح أثر هذه المعاملة على نفس مريم اتجاهها إلى العمارة الإسلامية في تصميماتها، لا لشيء إلا للتمرد على هذا التمييز، ولتستغله ليعود عليها بنتائج إيجابية على الأقل، وهو أن تتميز بتصميمات فريدة من نوعها لا توجد عند أي من زملائها الآخرين. فعندما سأل سعد مريم عن سبب اهتمامها بهندسة الحرم المكي والعمارة الإسلامية بشكل عام، بينما هي لا تعتبر نفسها مرتبطة بالدين الإسلامي بأي شكل من الأشكال، أجابته: "لأنهم هناك، في مرحلة ما، سيعاملونني على أني مسلمة مهما كنت أشبههم، مهما كنت أعيش مثلهم، سيعاملونني على اسمي ولون بشرتي. لذا قررت، ما دام الأمر هكذا بكل الأحوال، أن تكون بصمتي المعمارية التي تميزني مستوحاة من العمارة الإسلامية، والمزج بينها وبين المدارس المعاصرة"[3].

هكذا يدرك سعد أن الدين بالنسبة لمريم كان تصميماً معمارياً يميزها عن بقية البريطانيين من زملائها. فقد فقدت ارتباطها تماماً بأصلها وبالدين الإسلامي، ولم يبقى منه سوى تلك المظاهر والسمات التي ترى بأن الآخرين

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص175، ص176.

[2] المصدر نفسه، ص71.

[3] المصدر نفسه، ص260.

يرونها فيها من الأساس، لذا فالأجدر لها أن تستغلها لصالحها. فلا هي تمسكت بجذورها الأصلية، ولا هي وجدت القبول وسط هذا المجتمع الجديد.

3- الاغتراب الثقافي:

قبل أن نتطرق إلى مظاهر الاغتراب الثقافي للشخصيات، يجدر بنا أولاً ضبط مفهوم مصطلح الثقافة، فهي وإن اختلف تعريفها واتسع مفهومها ليشمل الفنون والآداب ونمط العيش، إلا أنها "في مصطلح الفكر الديني تلك المنظومة من الأفكار والمبادئ والقيم التي تؤثر على السلوك، أي تؤطر السلوك بأطرها وتوجهه في اتجاه معين، وبهذا يصح أن يقال: ثقافة إسلامية، ثقافة شيوعية، ثقافة صوفية... فلكل إنسان منظومته الثقافية"[1]. وهذا المفهوم يتفق والحالة التي نقوم بدراستها في بحثنا هذا، فالثقافة المعنية هنا بالاغتراب الثقافي هي المنظومة الثقافية الإسلامية والعربية التي تتصارع مع الثقافة الغربية.

والاغتراب الثقافي يعرف بأنه "انفصال الفرد عن النظام الاجتماعي وأسلوب الحياة المتبع في بيئته الثقافية نتيجة الاعتقاد بعدم جدواها، والاعتماد على مرجعية ثقافية تستند إلى ثقافة أخرى في تسيير أمور حياته وتحديد اتجاهاته وتصوراته لجوانب الحياة المختلفة، مما يسبب عجزه عن المشاركة الفعالة في التصورات المستندة إلى الموروث السائد في ثقافته"[2] وهذا ما نجده عند بعض شخصيات الرواية، حيث إننا نلاحظ في بعض الشخصيات بُعدها عن ثقافتها الأصلية بسبب تشبعها بالثقافة الغربية التي عاشت وسطها في المجتمع الأوروبي. فالاغتراب الثقافي يُطلق على حالة "ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، وثقافة المجتمع تتألف من العادات والقيم السائدة في ذلك المجتمع، حيث تجد الفرد يرفض هذه العناصر وينفر منها ولا يلتزم بها، بل يفضل كل ما هو غريب وأجنبي عنها"[3] فالشخصيات ابتعدت عن ثقافة وقيم المجتمع العربي واتجهت نحو ثقافة وقيم المجتمع الغربي وتبنتها لإعجابها بها ولظنها أنها أسمى من الثقافة العربية البالية —حسب رأيهم-.

هناك شخصيتان في الرواية وقعتا في مأزق الاغتراب الثقافي وهما مريم وخالها حيدر، اللذان أعلنا القطيعة مع ثقافتهما الأصلية، بل وأصبحت بالنسبة لهما محطاً للسخرية والتهكم والرفض. فقد كشفت الكثير من المقاطع في الرواية نظرتهما الدونية والعدوانية للثقافة العربية.

فنجد مريم تتنكّر للثقافة العراقية وتسخر منها، وترى أن تقاليدهم بالية وعاداتهم سخيفة وبعيدة عن التحضر والرقي، ويبرز ذلك عندما أخبرتها أمها أنها ستقابل جدها وعمها لأول مرة في حياتها، فقد قابلت ذلك بالرفض

[1] محسن المدرسي: الشباب وأزمة الهوية، د.ط، دار البصائر، 2019، ص20، ص31.

[2] حورية هدهود: مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتوافق النفسي الاجتماعي لدى المراهق الجانح، جامعة المسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس، 2012-2013، ص44.

[3] زليخة جديدي: الاغتراب، ص349.

لأنها تنظر إليهما كجزء من ماضيها لا تريد العودة إليه، وكجزء من المجتمع العربي الذي تمقته، تقول مريم: "الآن، ودون سابق إنذار، صار عليَّ أن ألتقي بجدي وعمي اللذين لا أذكرهما، وأن أتحمل مجاملات لا طعم لها، وربما قبلات وأحضان على الطريقة العراقية، وسيقولان لي بالتأكيد إنهما لا يصدقان كم كبرت، وربما بعض الدموع مع قولهما إني "نسخة من أبي""[1].

تبدو شخصية مريم وكأنها متمسكة بأصولها بما أنها اختارت العمارة الإسلامية كتوقيع خاص يميز تصميماتها المعمارية، لكنها استغلت ذلك فقط لتتميز عن الآخرين رغم كرهها للثقافة الإسلامية وكرهها لأصولها العربية، وقد كان ذلك بنصيحة صديقتها نزرين لتتميز عن الآخرين، "يوم قلت لها إني الطالبة البريطانية الوحيدة غير البيضاء في قسم العمارة في شيفيلد، قالت لي إن هذا يمنحني فرصة إضافية للتميز على الجميع، موروث الجميع مشترك، لذا فغالباً تصميماتهم وأفكارهم ستكون متشابهة، أما أنتِ فموروثك مختلف، وهذا يمنحك فرصة لتقديم شيء مختلف... اتجهت إلى موروثي الذي أجهله تماماً لكي أقدم شيئاً مختلفاً... قبل ذلك، لم أكن أهتم لموروثي. أنا بريطانية من أبوين عراقيين، لا أذكر شيئاً عن العراق ولا أعرف غير بريطانيا"[2] فمريم تعتبر بريطانيا هي وطنها، ولا تشعر بأي انتماء كان لا إلى وطنها الأول العراق، ولا إلى ثقافتها العربية، ولا إلى دينها الإسلام.

ويتضح كرهها لجذورها في قولها: "في أول يوم ذهبت فيه للجامعة، أنا الوحيدة في الفصل حنطية البشرة سوداء الشعر، واسمي يصرخ بأنني أجنبية. عيناي الخضراوان –تقريباً– لن تغيرا كثيراً من هويتي"[3] يتضح من قولها هذا خجلها من انتمائها العربي، فهي رغم ما تلاقيه من أقرانها من معاملة مختلفة لكونها عربية، إلا أنها مازالت تحاول أن تثبت لهم أنها تستحق أن تكون واحدة منهم، مازالت تحاول أن تثبت أنها بريطانية وليست عربية.

ونجد مؤشرات ذلك في موضع آخر عندما هنّأت عمها سعد بالكريسماس وهم في مكة، أراد سعد تبيّن إن كان الكريسماس يعني لها عيداً دينياً أم مجرد تقاليد بحكم عيشها في المجتمع الغربي، كما أراد أن يعرف إن كانت مازالت تولي اهتماماً بالأعياد الدينية للمسلمين، لذلك سألها:

"بكم عيد تحتفلون عندكم؟

كنت أريد أن أعرف إن كانت تعتبر الأعياد الأخرى "الإسلامية" أعياداً أيضاً.

سألتني: تقصد أيام العطل الرسمية؟

– لا، أقصد عندما تحتفلون بالعيد في البيت.

– غير الكريسماس؟ عيد رمضان، والفصح، هناك أيضاً عيد آخر... نسيت اسمه.

– عيد الأضحى.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص15.

[2] المصدر نفسه، ص45.

[3] المصدر نفسه، ص45، ص46.

– نعم، العيد الذي تذبحون فيه الخراف! قالت مع علامات استنكار على وجهها.

لديها كل الأعياد إذاً، وقالتها بتسلسل يشي بأنها لا تفرق كثيراً بينها. كريسماس، ورمضان، وعيد الفصح وأخيراً العيد الذي نسيت اسمه"[1].

يتضح من هذا الحوار تخلي مريم عن ثقافتها العربية تماماً، وتبني الآراء الغربية إزاءها، فهذا مثال عن رؤية الغرب وموقفهم تجاه عيد الأضحى، الذي يرونه تصرفاً همجياً ومعادياً للإنسانية، وهو موقف استنكاري لشريعة مقدسة في الإسلام لا يجب أن يصدر من شخصية مسلمة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مريم مرتبطة بالثقافة الغربية أكثر من ارتباطها بثقافتها الأصلية، فاغترابها عن ثقافتها يعود إلى انصهارها في المجتمع العربي وتشبعها بأفكاره المعادية للإسلام دون فهم لجوهر شعائره والروحانية المرتبطة به.

فطبيعة البيئة التي عاشت فيها مريم، جعلتها تأخذ بعض الأفكار الخاطئة عن العرب، فقد كانت تظن أن السعودية ومكة في حال سيء معمارياً وأن الغرب متقدم في ذلك مراحل ومراحل. لكن بعد وصولها إلى السعودية ورؤية تحضرها، بدأت تبدي إعجابها وترى أن الوضع أحسن مما كانت تتوقع. إضافة إلى احتقارها للثقافة العربية ورؤيتها أن المجتمع العربي مجتمع ذكوري متسلط، وأن المرأة فيه مضطهدة ولا تملك أي حقوق. وهذه النظرة متجذّرة في الفكر الغربي الذي يحمل أفكاراً معادية للعرب والإسلام ويحاول نشرها في أبنائه.

أما الشخصية الثانية التي تعاني من الاغتراب الثقافي فهي حيدر، الذي يفضل الثقافة الغربية ويدافع عنها باستمرار، بينما هو يبتعد كل البعد عن ثقافته الأصلية ويرفضها وينفر منها. أما ابتعاده عن القيم السائدة في المجتمع العربي فيتضح في موقفه مع أخته ميادة، يتحدث حيدر عن مساعدته لها في الهجرة والاستقرار في بريطانيا معه بعدما توفي زوجها، ويقول أن الكثير من الناس اعتبره موقف الأخ الشهم الذي يقف مع أخته في محنتها يقول: "حصلت على الكثير من الثناء عن هذا، لكن الشهامة لم تكن دافعي، ليس لهذه الدرجة على الأقل. لم يبق لي شيء من هذه البديهيات الشرقية... لا الشهامة ولا النخوة ولا أي شيء من قيم لم يعد لها مكان في حياتي منذ زمن طويل"[2] فمن كلامه هذا، يظهر بوضوح تخليه تماماً عن قيمه العربية وتهكمه عليها.

وهذا تقريباً ما يلخص شخصية حيدر في الرواية، فهو لا يضيع أي فرصة لانتقاد العرب وثقافتهم، ودوماً ما يوجه انتقاداً لاذعاً لهم ويعتبرهم متخلفين، ومثال ذلك عندما دخل إلى المسجد الحرام لأول مرة، "دخلنا المسجد، نزعنا أحذيتنا ووضعناها في أكياس توزع لهذا الغرض وحملناها معنا بناءً على نصيحة سعد. هناك رفوف للأحذية ورغم ذلك هناك أحذية على الأرض في فوضى كريهة، لا أمل هناك في هذا الشرق الذي لن يتطور أبداً. سنبقى في هذه الفوضى للأبد"[3].

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص256.

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] المصدر نفسه، ص138.

كما يبرز ذلك أكثر في جدالاته المستمرة والكثيرة مع سعد، وقد جعل الكاتب هتين الشخصيتين رمزاً لكل من الثقافة الشرقية والثقافة الغربية، سعد الذي يحاول دوماً الدفاع عن الشرق، وحيدر الذي ينتقص من قيمته دائماً ويرجح الكفة للغرب. يقول الكاتب على لسان مريم التي كانت شاهدة على أحد هذه الجدالات بين خالها حيدر وعمها سعد:

"قال خالي: أنتم مصابون بفصام حقيقي، تستوردون كل شيء من الغرب وتذمونه في الوقت نفسه.

رد عمي الضربة: ربما هي درجات في الفصام، لن تصل ببعضنا إلى الاحتفال بالكريسماس، وتصل بغيرهم إلى ذلك.

لم يسكت خالي: على الأقل نحن متصالحون مع فصامنا، المشكلة فيمن يلعن كل جزء منه الآخر.

قال عمي: تعرف يا دكتور، ربما كنت على حق بعد كل شيء، ربما البعض متصالح مع نفسه والبعض ليس كذلك، لكن ربما كان التصالح أحيانا مثل التصالح مع السرطان عند بعض المرضى الذين يستسلمون للمرض، ليس كل تصالح يكون إيجابياً بالضرورة يا دكتور وأنت أعرف.

قال خالي بمرارة: الآن أصبح الغرب سرطاناً، لكن عندما يصيبكم السرطان تركضون للغرب ومستشفياته"[1].

يختصر هذا الجدال الصراع القائم بين الشرق والغرب، كما يوضّح موقف حيدر المعادي للعرب وثقافتهم وافتتانه بالغرب وبريقه، وهذا يبيّن مدى انصهاره مع الثقافة الغربية وتبنيه لأفكارها وايديولوجيتها المعادية للشرق ودفاعه عن مبادئها.

4- الاغتراب الأسري:

إن تشكيل شخصية الإنسان وبنائها مرهون إلى حد كبير بتنشئته الاجتماعية وتربيته داخل الأسرة، فالأسرة هي التي تمنحه مميزاته وتكوّن معالم شخصيته، وإذا كان الإنسان يعيش وسط أسرة مفككة، أو أسرة عاجزة عن إمداده بالحب والاستقرار النفسي، أو أسرة تشكل تهديداً له بدل أن تكون ملجأ أمانه النفسي. وبهذا يفقد الرغبة في التواصل مع أسرته، أو ربما يطوّر سلوكات عدائية وهجومية ضدهم... وهذا يقوده إلى فقدان التوازن النفسي والعاطفي وفي النهاية إلى الاغتراب الأسري. "ويعد الاغتراب الأسري أحد المصطلحات الحديثة، والذي أصبح يعبر عن آثار الفجوة الأسرية وانعكاساتها على أفراد الأسرة الواحدة، ويمثل إحدى المشكلات التي يعيشها الأبناء في أسرهم في هذا العصر، حيث تتجلى مخاطر المشكلة في مظاهر العزلة والشعور بالغربة وعدم القدرة على الاندماج في المحيط الأسري، وكذلك عدم القدرة على تعزيز التواصل السليم مع الأبوين"[2] وهذا ما لاحظناه في الشخصيات التي ظهر لديها هذا النوع من الاغتراب، فقد جاءت مظاهر الاغتراب الأسري واضحة لدى كل الشخصيات الرئيسية في الرواية.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص272.

[2] ندى نسيم: خطر الاغتراب الأسري، albiladpress.com، اطلع عليه يوم: 10 ماي 2023، على الساعة: 03:10.

أول هذه الشخصيات المغتربة أسرياً هو سعد في علاقته مع والده، "تقول الدكتورة هالة يسرى أستاذة علم الاجتماع والخبيرة الأسرية والتنموية أن إحساس الفرد بالاغتراب داخل أسرته تعني فقدان التواصل وروح المحبة والتعاطف والمودة"[1] فسعد كان يفتقد هذا مع العديد من أفراد أسرته بدءاً من أخيه وزوجته وأبيه، لكن هذا المشكل برز مع والده أكثر من غيره من أفراد أسرته. فقد اصطربت علاقته كثيراً معه في مرحلة ما من حياته، كما لعب شقيقه عمر دوراً في تنامي عقدة النقص لديه، لهذا كوَّن موقفاً عدائياً تجاه عمر، وموقفاً انسحابياً تجاه والده. ويصف سعد بطريقة عدائية كيف أن عائلته كانت تفضل عمر عليه حتى في قبولهم بامرأة شيعية زوجة له وإحاطتها بحب كبير فقط لأنها زوجة عمر، يقول: "كل ما يريده عمر يتحقق بلا شك، عمر بحبها؟ نحبها جميعاً ونصفق لها، نحن نصفق لعمر على أشياء أقل من ذلك بكثير، نصفق له إذا عطس، فكيف بمن أحبها واختارها لتكون زوجته؟ ولا كلمة يمكن أن تسيء لها ما دام عمر يمكن أن يغضبه ذلك"[2]

وقد نفَّس سعد عن غضبه تجاه عمر على أبيه مما أزَّم علاقته به. "بدأت مشاكلي مع أبي مبكراً، كنت أشعر أنه بفضل عمر عليَّ، عمر كان الأكبر والأذكى والأكثر وسامة، والأكثر طاعة والتزاماً بكل ما يقول، وكان أيضاً الأكثر تفوقاً... حملت كل ذلك معي في علاقتي بأبي في المراهقة وما بعدها، كنت أجد تفسيراً لكل مشاكلي في تفضيل أبي لعمر عليَّ، ومع الوقت صرت أتحدث عن ذلك وأتهم بل وأصرخ أحياناً... اصطدمت به في الوقت الذي كان هو يمر بأسوء أطوار حياته، وجعل ذلك الأمور أسوأ وأسوأ بيننا"[3].

وبقيت آثار هذه العلاقة المضنية بعد مرض والده بالزهايمر، فقد أصبح ينسى من يكون سعد، فهو في نفسه يظن أن عمر هو ابنه الوحيد، "لفترات طويلة كان يفقد صلته بنا تماماً، لا يعرف من أكون ويعاملني كما لو كنت غريباً عنه... ينسى اسمي ومن أكون، لكنه لا ينسى كيف يربط ربطة العنق؟"[4] تظهر هنا جلياً حسرة سعد، فهذا بالنسبة له دليل على انعدام أهميته بالنسبة لوالده، خصوصاً وأنه لم ينسَ عمر كما نسيه هو، بل إنه يخاطبه في أحيان كثيرة على أنه هو عمر.

كما يتبدى الاغتراب الأسري عند حيدر، في فقدانه صلته الوثيقة مع أسرته، حيث يقول عن زوجته: "للمرة الأولى منذ عرفت أميلي، أشعر أنها غير قادرة على فهمي مهما حاولت أن أشرح لها..."[5] فعلاقة حيدر مع زوجته قد تغيرت كثيراً، وكذلك الأمر مع ابنته وهو أساس اغترابه الأسري، لدرجة أنه قرر الذهاب إلى مكة برفقة أخته فقط ليهرب منهم ومن التجمع العائلي القادم في الكريسماس. "قال لي الدكتور بينيت قبل زيارتين أن آخذ

[1] أمل شاكر: الاغتراب الأسري أخطر الأمراض الاجتماعية، gate.ahram.org.eg، اطلع عليه يوم: 10 ماي 2023، على الساعة: 02:00.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص56.

[3] المصدر نفسه، ص147، ص148.

[4] المصدر نفسه، ص58.

[5] المصدر نفسه، ص61.

إجازة بعيدة عن كل شيء، اقترح تايلاند أو الكاريبي. لكن مكة ستكون أبعد بكثير، ليس جغرافياً، ولكن أبعد عن كل شيء، وكنت أحتاج لهذا.
كنت أحتاجها أيضاً أن تكون في الكريسماس. كنت أريد أن أهرب من الاجتماع العائلي الذي تصورت ميادة أني يجب أن أحافظ عليه. لم أكن أريد أن أرى سارة في هذه الفترة تحديداً"[1]

ومعاناة الأب من الاغتراب الأسري لم يؤثر فيه هو وحسب، بل تعداه إلى ابنته سارة فنتج عنه خلل في علاقتها مع والدها، فقد أدى اغترابه إلى تفكك الأسرة. "فمخاطر الاغتراب الأسري ما هي إلا نتيجة ممارسات أسرية خاطئة بالدرجة الأولى، فالتفكك الأسري يلعب دوراً كبيراً في ذلك. وبالتالي تغيب معالم الانسجام والتوافق الأسري، والذي بدوره يجر إلى ظهور مشكلات أخرى أكثر تعقيداً كالاغتراب النفسي وسهولة الانحراف والانجرار وراء المغريات الخارجية"[2] ويتبلور ذلك في اغتراب حيدر النفسي من جهة، وانحراف سارة من جهة أخرى، فانهيار العلاقة بينها وبين والدها هو ما دفعها بالدرجة الأولى لأن تصبح شخصاً منحرفاً، وإصرارها على عدم الزواج من صديقها حتى بعد حملها إنما يعود إلى الانفتاح الذي رباها والدها عليه، ثم إلى تمردها على والدها والقيم التي يمثلها. وبهذا يكون حيدر هو الذي "فالإنسان يصبح مسؤولاً في الأسرة ليس عن تصرفاته الشخصية فحسب، بل عن تصرف الأعضاء الآخرين وبخاصة الذكور تجاه الإناث"[3]

ويمكننا أن نرى في الحوار التالي مدى تأزم العلاقة بين سارة ووالدها عندما أخبرته بأنها حامل: "سئمت من هذا النفاق المستمر الذي تعيش فيه والذي تريدنا أن نعيش فيه أيضاً، جئت لأقول لك إنه سيكون لك حفيد 'خارج إطار الزواج'، وليس ابن حرام كما قلت بمفاهيمك المتخلفة... أنت أكبر أناني يمكنني أن أتخيله، العالم كله يدور حول اسمك ومركزك وسمعتك بين الجالية الثرثارة.

– ربما أكون أنانياً، لكنني بالتأكيد فشلت في تربيتك، هذا أسلوب تتحدثين به مع أبيك. ساقطة.

– اسمع إذاً ما ستقوله تلك الساقطة التي تحمل اسمك، لن أتزوج أنا ولوك، لا تتوقع أني سأسرع لعقد زواج يحفظ ماء وجهك عند الجالية، لا تتوقع أن يغير لوك دينه ليناسب دينك الذي يميز بين الرجل والمرأة في هذا الشيء"[4].

كما تظهر معالم الاغتراب الأسري أيضاً من خلال الفجوة الموجودة بين جيل الأبناء والآباء، فقد عالجت الرواية هذه القضية أيضاً والتي تعود إلى اختلاف المبادئ والقيم والعادات والميولات بين الجيلين، مما يؤدي إلى خلل

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص34-35.
[2] ندى نسيم: خطر الاغتراب الأسري.
[3] حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، ص115-116.
[4] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص142-143.

في التواصل والفهم عند كل من الطرفين. وقد تمثل هذا في علاقة مريم بأمها، برغم قربهما من بعضهما، إلا أن هذا العائق يقف حاجزاً يحول دون فهمهما لبعضهما في كثير من الأمور.

ومن بين النقاط التي تختلف عليها مريم ووالدتها أغلب الوقت هو الاعتماد على التكنولوجيا ووسائل الاتصال الاجتماعي وكيف ينظر كل جيل لها، فالجيل الذي تنتمي إليه الأم كبر دون وجود هذه الأشياء في حياته لذلك يشعر بالانفصال عنها على خلاف جيل الشباب الذي تنتمي إليه مريم. تقول ميادة عن ذلك: "مريم تعتقد أنها تعرف كل شيء. كل شيء عني وعن العالم وعما يجب أن أفعله أنا وتفعله هي، تعتقد أنها تعرف كيف يجب أن يسير العالم كله، جيلها كله على ما يبدو يعتقد ذلك. جيلها كله يعتقد أن غوغل يحتوي على كل شيء، وأنه ما من مشكلة إلا ولها حل عند غوغل، كل ما يجب هو أن تضع كلمة البحث الصحيحة. أورثهم غوغل كمية مخيفة من الثقة بالنفس والتصور الزائف عن سهولة العالم خارج الانترنت"[1].

مريم أيضاً تدرك وجود هذه الفجوة بين الجيلين وتعي أنها وأمها يعانيان في فهم بعضهما البعض، والسبب الأول هو كونهما تنتميان لجيلين بينهما فجوة عمرية كبيرة، أما السبب الثاني فهو ثقافة كل جيل، إذ أن أمها تنتمي لجيل تربى ونشأ في مجتمع عربي محافظ على التقاليد لحد ما، أما هي فتنتمي لجيل عاش في المجتمع الغربي ونشأ على مبادئه.

ومن بين الأمور التي لم تتفهمها أمها قط ولم تتقبلها هو صديقة مريم المقربة نزرين، والتي تتواصل معها فقط عبر وسائل التواصل الاجتماعي ولم تقابلها يوماً، لكنها مع ذلك تعتبرها صديقتها الأقرب –والوحيدة ربما– تقول مريم: "أمي تقول لي دوماً إنه من غير الطبيعي أن يكون الصديق الأقرب صديقاً في العالم الافتراضي. العلاقات الحقيقية ليست في العالم الافتراضي. هكذا كانت تقول.

ربما في عالم أمي، لكن ليس في عالمي أنا ونزرين.

في عالمنا أصبح الافتراضي حقيقياً كما العالم المادي بالضبط... شيء لن تستطيع أمي أن تتقبله. أمي التي لا تزال تحتفظ بأقراص مدمجة للأغاني التي تحبها وليس على الهاتف أو الآيبود كما بقية الخلق"[2]

ومما سبق، يمكننا القول أن الاغتراب الأسري يؤدي في نهاية المطاف إلى العديد من التأثيرات السلبية منها الاضطرابات النفسية التي تعود إلى فقدان التواصل الجيد مع أفراد الأسرة وتأزم العلاقات بينهم، مما يسبب لهم التوتر والقلق والاكتئاب كما حدث مع شخصية حيدر. كما تنتج عنه مشكلات مثل الابتعاد عن الدين جراء انعدام التنشئة السوية داخل الأسرة، وهذا ما حدث مع سارة. ويتسبب أيضاً في انفصال الفرد عن المجتمع وضعف علاقاته الاجتماعية مثلما ظهر عند حيدر.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص19، ص20.

[2] المصدر نفسه، ص46-47.

5- الاغتراب اللغوي:

الاغتراب اللغوي هو "حالة تعرض الشخص للانفصال اللغوي عن لغته الأصلية، وذلك عادة نتيجة للاختلاف الثقافي واللغوي بين المجتمع الأصلي والمجتمع الذي يعيش فيه الشخص حالياً. وتتضمن آثار الاغتراب اللغوي على الفرد فقدان المفردات والتعابير الأساسية للغته الأصلية، وصعوبة التعبير عن الأفكار والمشاعر بشكل دقيق وفعال، واضطرابات في النطق والإملاء"[1].

لم يحظَ الاغتراب اللغوي باهتمام كبير من طرف الروائي، ولم يرد في هذا الموضوع مواقف كثيرة، بحيث نجده فقط في بعض المواضع مع مريم حين تعترف أن لغتها العربية ضعيفة وأنه لابد لها من الإنجليزية لتفهم تماماً ما تقرأه. "أعطتني أمي كتاب أدعية صغير الحجم وجزء صغير من القرآن وقالت لي أن أقرأ فيهما، شجعتني وهي تقول "عربي وأمامه بالانجليزي". وضعتهما في حقيبتي دون نقاش، عربيتي لا تساعدني على قراءة القرآن بسهولة، لذا فوجود الإنجليزي ضروري"[2].

ضعف مريم في اللغة العربية جعلها غير قادرة على فهم معاني الكلمات في الأدعية، فعندما كانت تقرأ الأدعية من الكتاب أثناء الطواف، لم تفهم معظم الكلمات " رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّاب. لا أفهم (تُزغ) ولا (لدنك) أذهب إلى الإنجليزية

Our lord, let not our hearts deviate (from the truth) after you have guided us, and grant us mercy from you. Truly, you are th bestower.

لا تدعنا ننحرف إذن. عن هذا المسار الدائري حول المركز؟"[3]

أراد الكاتب بالإشارة إلى الاغتراب اللغوي أن يلقي الضوء على ظاهرة ابتعاد المغتربين في البلدان الغربية عن لغتهم الأم، وأنهم بذلك يعلنون الانسحاب من هويتهم الأصلية وفصلها عن ذواتهم، فاللغة ترتبط بالهوية وتؤثر كل واحدة منها في الأخرى، وهذا ما ينحو إليه حسن حنفي حينما يقول: "إذا قويت الهوية قويت اللغة، وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة. اللغة تعبير عن الهوية طبقاً للقول المشهور 'تحدث حتى أراك'. والعروبة ليست بأب أو أم كما في الحديث الشهير 'إنما العروبة هي اللسان'، فكل من تحدث العربية فهو عربي، وجميع علماء العجم الذين تحدثوا العربية كسيبويه والفارسي وابن سينا عرب. وغيرهم هم عرب، مثل: بلال الحبشي، سلمان الفارسي، صحابة الرسول... عرب بفعل اللغة"[4]. وبهذا أراد الكاتب إيصال رسالة مفادها أن كل من يحيد عن لغته العربية فهو بذلك يحيد عن هويته كعربي. وجسَّد ذلك في شخصية مريم التي تعاني من ازدواجية في الهوية، فهي تعتبر نفسها نصف-نصف لا هي عربية تماماً ولا هي بريطانية تماماً، تقف في منتصف كل شيء، حتى لغتها في المنتصف،

[1] نوال الحلح: الاغتراب اللغوي في بلاد اللجوء: عقبة أم عتبة، abwab.eu، اطلع عليه يوم: 10 ماي 2023، على الساعة: 03:40.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص170.

[3] المصدر نفسه، ص172.

[4] حسن حنفي: الهوية والاغتراب في الوعي العربي، alantologia.com، اطلع عليه يوم: 03 ماي 2023، على الساعة: 23:10.

تجيد اللغة العربية، لكنها لا تجيدها بما يكفي لتفهم كل شيء. وهذا انعكاس لحالة الاغتراب والأزمة التي تعاني منها. ومشكلة اللغة العربية عند الجالية المغتربة حتمية تقع فيها الغالبية خاصة من الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين.

وتظهر مشكلة أخرى مع تخلي مريم عن اللغة العربية، وهو تبنيها الألفاظ الغربية في حديثها اليومي، بعضها ألفاظ وإن كانت تبدو ألفاظاً عادية إلا أنها تحمل دلالة دينية أو ثقافية لا تتواءم والثقافة الإسلامية، وذلك مثل استعمالها لعبارة "بحق يسوع" دون الاهتمام بالمكان الذي تتواجد فيه. تقول ميادة: "صرخت مريم بصوت مرتفع "بحق يسوع يا أمي".

فكرت بمنظرها وهي تصرخ هكذا أمام الكعبة بين جموع المعتمرين. غالباً ستكون العواقب وخيمة.

قلت لها: إياكِ ثم إياكِ أن تقولي "بحق يسوع" هناك في مكة. إياكِ"[1]. وهذا ما حدث فعلاً عند رؤيتها الكعبة أول مرة وأيضاً في كثير من المواقف الأخرى في مكة، فهذه العبارة بالنسبة لمريم كانت عبارة تلقائية تقولها دون وعي منها بحكم البيئة التي عاشت فيها. فهي تستعمل الكثير من المفردات الإنجليزية في حديثها مع الجميع حتى مع جدها وعمها سعد، مثل ميري كريسماس، هابي نيو يير... وغيرها.

وهذا يجعلها تبدو أكثر بعداً عن ثقافتها الأصلية وهويتها العربية. إذ أن اللغة العربية ليست مجرد لغة، فهي لسان الإسلام ولغة وحيه، وقدرها عظيم كونها ترتبط بالقرآن، لذلك على كل مسلم أن يعتز بها ويحافظ عليها. حيث أن أهمية اللغة تكمن في أنها "تحمل ملامح من شخصية الأمة التي تتكلمها، وتتصل بخلفياتها الحضارية والفكرية وما اكتسبته من أساليب النظر والتفكير والفهم... على هذا الأساس، ينبغي أن ننظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة قومية للأمة العربية، فهي عنصر أساسي لهويتها الثقافية".[2] فالتأسيس للاغتراب اللغوي ينطلق من كون اللغة تأكيداً للهوية.

المطلب الثاني: سيكولوجية الشخصية المغتربة

تُعدّ الشخصية أهم عنصر في البنية السردية للنص الروائي، عليها يُبنى وبها يتحرك وباكتمالها يكتمل العمل الأدبي، فلا يمكن أن نتخيل أي نص حكائي دون وجود شخصيات تتحرك في فضاءاته وتتولى القيام بالأفعال، فهي أهم ركائز القصة إذ لا يستقيم وجود أي نص سردي أو حكائي مهما كان نوعه إلا بتوفر الشخصية فهي الذات الفاعلة داخل النص لذلك فهي تمثل العمود الفقري للقصة. أما سيكولوجية الشخصية "هو علم يحاول الإجابة على أسئلة تتعلق بالفرد: كيف هو؟ في ماذا يفكر؟ ماذا يفعل؟ كيف وصل إلى ما هو عليه؟ لماذا يفكر ويتصرف بهذا الشكل؟... إذن فسيكولوجية الشخصية تساعدنا على التعرف على الفرد وتفتح لنا المجال لكي

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص73.

[2] مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها، ص269.

نصف ونشرح سلوكه"[1]. لذلك اخترنا في هذا العنصر من البحث دراسة الشخصية من منظور علم النفس بتحليل أنماطها، وهي تعتبر محاولة لتصنيف الشخصيات وفق تكوينها النفسي واستجاباتهم السلوكية.

ويعرف علماء النفس الشخصية بأنها "تلك الأنماط المستمرة والمتسقة نسبياً من الإدراك والتفكير والإحساس والسلوك التي تبدو للآخرين شكلاً متناسقاً وتعطي للأفراد ذاتيتهم المميزة وصفاتهم الخاصة. فالشخصية إذن تكوين يتضمن الأفكار، الدوافع، الانفعالات، الميول، الرغبات، الاتجاهات، القدرات والظواهر المشابهة"[2] أما أنماط الشخصية فهي "سمات ملحوظة في السلوك، فكل منا لديه نمط للشخصية، وحامل نمط الشخصية ليس بحال هو مريض بذلك الاضطراب، ولكن لو تعرض إلى الضغوط النفسية القاسية والأزمات والصدمات وضاقت عليه سبل الحلول فإنه سيتجه حتماً إلى الاضطراب الذي يحمل في داخله ذات السمات العامة"[3] أي أن هذه الصفات التي تشكل نمط شخصية موجودة أساساً في الشخصيات، لكنها لا تتحول إلى اضطراب إلا بعد تعرض الشخص إلى صدمة أو أزمة أو ضغط نفسي من نوع ما. وهذا ما حدث لشخوص الرواية، فكل واحد تعرض لأحداث معينة ساهمت في إبراز هذا النمط وتحوله إلى اضطراب يختلف في نوعه ومستواه من شخص لآخر. وحالات الاغتراب المختلفة التي عاشتها الشخصيات ساهمت في تعزيز هذه السلوكيات الاضطرابية. وقد صنفنا شخصيات الرواية الرئيسية إلى الأنماط المناسبة لها، وبذلك خرجنا بخمسة أنماط للشخصية وهي: الشخصية الفصامية، القلقة، المكتئبة، احتقار الذات، وأخيراً الشخصية بين عالم الضياع والتخيلات. ورغم أن الشخصيات تحمل جزءاً من أنماط أخرى، إلا أننا وجدنا أن هذه هي السمات البارزة فيها أكثر من غيرها.

1- الشخصية الفصامية: (الشيزية)

مثلت هذا النمط من الشخصية في رواية كريسماس في مكة "مريم". وتجدر الإشارة إلى أن "الحالة المرضية التي تشخص اكلينيكياً هي غير ما نحاول إيضاحه في إطار الشخصيات وأنماطها، فالشخصية الشيزية وهي مختصر لكلمة شيزوفرينيا* أي الفصام، وليست اضطراب الفصام بعينه... وهي تشبه إلى حد كبير نمط الشخصية الانطوائية مع الفارق في وجود المظاهر العاطفية المتمثلة في الحساسية الزائدة وسرعة في الحساسية العاطفية... ومن السمات التي يتصف بها صاحب الشخصية الشيزية بأنه عنيد، شكاك، كتوم، فضلاً عن أنه قليل الرغبة في إقامة صلات اجتماعية أو صداقات واسعة، ويبتعد دائماً عن المشاركة الجماعية، ويفضل الكتب على الناس، فهو يميل

[1] محمد قاسم عبد الله: أضواء جديدة على سيكولوجية الشخصية، مجلة المعرفة، القاهرة، ع403، 1997، ص95.

[2] أسعد شريف الامارة: سيكولوجية الشخصية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 2014، ص132.

[3] المرجع نفسه، ص129.

* **الشيزوفرينيا**: هو اضطراب نفسي يتسم بسلوك اجتماعي غير اجتماعي وفشل في تمييز الواقع، تشمل الأعراض الشائعة اضطراب الفكر والهلوسة بالإضافة إلى انخفاض المشاركة الاجتماعية والتعبير العاطفي وانعدام الإرادة، غالباً ما يكون لدى المصابين بالفصام مشاكل نفسي أخرى مثل اضطراب القلق والاضطراب الاكتئابي. فصام، ar.wikipedia.org، اطلع عليه يوم: 20 أفريل 2023، على الساعة: 20:000.

للانسحاب من المجتمع والعزلة والانطواء "[1] وهذه الصفات كلها نجدها تنطبق على شخصية مريم. والشخصية الفصامية التي تميزها ليست كحالة مرضية نفسية يكون صاحبها مصاباً باضطراب تعدد الشخصيات، وإنما تُعد كنمط للشخصية يُترجم على شكل سلوكات. ويعود هذا الانفصام في شخصية مريم إلى الازدواجية التي تعاني منها في صراعها بين هويتين، هوية عربية وأخرى غربية.

وقد علَّقت نزرين على هذا الفصام عندما أرسلت لها مريم صورة مائدة الكريسماس في الفندق وهي تضع شجرة الكريسماس قبالة الكعبة، تقول مريم: "أخذت صورة لما أعددته من ديكور للكريسماس وأرسلتها إلى نزرين... قالت: يمكن تسمية هذه الصورة 'شيزوفرينيا' ويمكن لها أن تكون الصورة التي تعبر عن جيل بأكمله. الجيل M... فهمت ما تعنيه نزرين..."[2]

وتظهر سمات الشخصية الفصامية على مريم علاقتها مع الأشخاص حولها وأمها خصوصاً، فمريم شخص عنيد متمسك بأفكاره، كما أن دائرتها الاجتماعية صغيرة ومحدودة فهي تقول أن صديق واحد فقط يكفي، فهي تميل أكثر إلى العزلة والانطواء. بالإضافة إلى حبها لقراءة الكتب دائماً. "عدت إلى كتبي على الآيباد، ثلاثة كتب مفتوحة أقرأ فيها على التوازي، أمي تقول لي دائماً إن قراءة أكثر من كتاب في وقت واحد ليس طبيعياً... متابعة أكثر من شيء في وقت واحد هو الأمر الطبيعي بالنسبة لي، قراءة كتاب واحد فقط أمر ممل"[3].

رغم وجود العديد من سمات نمط الشخصية الشيزية لدى مريم، إلا أن أهم سمة ميزتها هي ازدواجيتها بين هويتين، وهذا العنصر سنتحدث عنه أكثر لاحقاً في المبحث الثاني من هذا الفصل كجزء من الأزمة الهوياتية.

2- الشخصية القلقة:

يتميز نمط الشخصية القلقة بالتوتر والقلق الزائد حتى في أصغر الأمور وأتفهها، فهي حالة مزاجية تتسم بالتفكير السلبي وتوقع الأسوء دائماً. ويمثل هذا النمط شخصية "ميادة". تقول مريم في وصف حالة أمها المبالغة في القلق: "أمي تقلق حتى مع الأخبار الجيدة... تخاف أن تكون غير مؤكدة أو أن يحدث شيء في آخر لحظة"[4]. كما يصفها سعد بقوله: "كانت حساسة وتسيئ فهم نكتي وتعليقاتي وتأخذ الأمور بشكل شخصي جداً، دخلت العائلة وهي متوجسة وخائفة من الرفض لأنها شيعية، لذا كانت تفسر كل ما أقول على نحو خاطئ تماماً، ثم أخذت تتوهم أن سوسن تحسدها وتكيد لها"[5] قلق ميادة وتفكيرها الزائد جعلها دائمة التوتر والحساسية.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص130.
[2] المصدر نفسه، ص268.
[3] المصدر نفسه، ص108.
[4] المصدر نفسه، ص9.
[5] المصدر نفسه، ص55.

الصفة الغالبة على الشخصية القلقة هي "الشعور بعدم الارتياح وتوقع المواقف الخطيرة دائماً أو توقع الأسوأ دوماً... وظهور القلق لابد أن يكون ناتج عن تراكم ازداد حتى ملأ تكوين الشخصية وغلب على السلوك"[1] وهذا ما نلاحظه عند ميادة، فهي تهوّل الأمور دائماً وتضخمها مثلما حدث عند اختفاء حيدر وعدم رده على مكالماتها ليوم كامل، كانت تشعر بالتوتر طوال اليوم، وعندما سمعت بأن شخصاً ما انتحر أثناء الطواف بالكعبة، كانت شبه متأكدة أنه حيدر خاصة مع معرفتها بحالته النفسية المتدهورة وانهياره بعد سماع خبر إنجاب ابنته سارة، لكن تضخيمها للأمر جعلها تتوجس أنه هو المنتحر. "مع بدء السعي كانت أمي قد انتقلت إلى مرحلة أعلى من إبداء القلق. سألني عمي جانباً إن كانت أمي هكذا دائماً، فقلت له إنها ملكة دراما بطبيعتها، تقلق كثيراً وتنتظر عند الباب وتحرجني في مواقف كثيرة"[2]. وعندما عادت إلى الفندق ووجدته هناك، تفاجأ حيدر من كمية المكالمات التي تلقاها منها، "ميادة، أنت مجنونة بلا نقاش... وجدت +99 مكالمة فائتة منها عندما فتحت هاتفي. "لو كنت طفلاً في الثامنة ما كنت ستتصرفين هكذا".

كنت أعرف أنها مرت بتجربتي قلق بسبب عدم الرد على الهاتف، وانتهت نهاية مأساوية: ميثم وعمر. من يلومها؟"[3]

فوصول ميادة لهذه الحالة القلقة المرضية كان نتيجة حتمية ومنطقية نظراً لكل ما عاشته في الماضي، فقد تعرضت للكثير من المواقف الخطيرة وعاشت تجارب مؤلمة ومواقف خطيرة وأوقات جعلت انتظارها لأي أخبار بمثابة العذاب، فأصبح هاجس القلق يسيطر عليها دوماً في أي موقف ترقب، وتشعر بعدم الارتياح وهي لا تدري ما الذي تواجهه وما الذي سيحدث لاحقاً. وكما قال حيدر فالتجربة التي مرت بها ميادة بسبب عدم الرد على الهاتف كانت عندما اختفى أخوها ميثم ليجدوه بعد أيام ميتاً، وبعد فترة ليست بطويلة، اختطف زوجها عمر لأيام، وتواصل معهم الخاطفين ليطلبوا فدية، وعندما دفعوها انقطعت الأخبار وظلوا ينتظرون تواصلهم لأيام، وكانت النهاية أن جاءهم اتصال من الشرطة ليتسلموا جثته.

هذه الصدمات التي عاشتها ميادة تراكمت لتحولها في النهاية لشخصية متوترة وقلقة على المستقبل وتتوقع دوماً السيناريوهات السلبية. والدليل على أن ميادة عاشت أكثر مما يمكن أن يحتمله بشر هو أن الكاتب جعل شخصية ميادة الشاهد على كل الجرائم الشنيعة التي وقعت أثناء الحرب الطائفية بين السنة والشيعة، فقد نقل لنا الكاتب الدموية التي عاشتها العراق في تلك الفترة بعينيّ ميادة عبر ذكرياتها عن حادثة خطف وقتل كل من أخيها وزوجها على التوالي، والقلق الذي اختبرته أثناء ترقبها أخباراً عنهما، ثم مشاعر الرعب وهي ترى حوادث القتل تزداد كل يوم.

[1] كارل ألبرت: أنماط الشخصية (أسرار وخفايا)، تر: حسين حمزة، ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2014، ص86.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص207.

[3] المصدر نفسه، ص215.

تروي ميادة مجريات حادثة أخيها ميثم بقولها: "تذكرت كل تلك المكالمات الهاتفية، وكل ذلك الانتظار لأيام سبعة بدت لي سبعة قرون... في الثامنة صباحاً دق هاتف جمانة من رقم غريب، شخص قال إنه زميل ميثم وأنه كان معه في السيارة، أوقفوا السيارة وأخذوا الجميع بمن فيهم ميثم وتركوه هو... لم تسأله جمانة لماذا تركوه، قال لها إنهم ضربوه وهددوه ثم تركوه، كان ذلك يعني أنه سني، وأن الباقين شيعة... قبل ظهر اليوم الثالث وجدوه مرمياً في ساقية مع آخرين، كان رأسه مفصولاً عن جسده. قطعوا لسانه، وأمعاؤه كانت مندلقة.

بقيت في بيت أهلي أسبوع العزاء، عندما رجعت توسلت عمر أن نغادر العراق، كان كل شيء يسير إلى الهاوية، ميثم قُتل لأنه شيعي، وعمر قد يُقتل لأنه سني، دوامة القتل الظالم لا تفرق بين أحد، كنا نسمع عن أشخاص قتلوا من الجانبين، دون أي تفسير غير طائفتهم.

كنت قد فقدت أبي، وحيدر يعيش بعيداً منذ عقدين، والآن ميثم، أخي الأقرب لي سناً وقلباً... لم يعد عندي غير عمر، كنت أقول ذلك وأنا أتوسل به.

حوادث القتل على الهوية استمرت بالازدياد، كل يوم كان هناك ثابت في الأخبار: العثور على 22 جثة مجهولة الهوية وأحياناً أكثر. الكثير من الجثث كانت تحمل أسماء واضحة الانتماء الطائفي، عمر على رأسها من جهة السنة، حيدر أو سجاد أو عبد الحسين من جهة الشيعة "[1]

هكذا بدأت سمة القلق تظهر وتتطور لدى ميادة، فبعد الذي شهدته في موت أخيها، كانت تتوقع أسوء من ذلك وهو أن يموت زوجها، وقد صدق توقعها في النهاية، وشهدت مأساة أخرى لا تقل فظاعة وصدمة من الأولى، وهي موت زوجها عمر بطريقة أكثر دموية من موت أخيها. فقد اختطف عمر ولأيام لم يسمعوا أخباره ولم يجدوا أي خيط للعثور عليه بعد البحث عنه في كل مكان، إلى أن أتاهم اتصال من الطب العدلي لاستلام جثته. "عندما وصلنا كانت رائحة الجثث المنبعثة من الطب العدلي تصل إلى الشارع. على الرصيف نسوة يلطمن ورجال يغالبون دموعهم... أشار لنا الموظف إلى مجموعة من الجثث المرمية على الأرض بين الثلاجات وقال: ربما تجدونه هناك على اليمين.

وجدت جثة كتب عليها: عمر أحمد عبد الرحمان بكر. طبيب.

لم أفهم ما علاقة هذا "الشيء" بعمر.

كانت الجثة مشوهة جداً وبلا ملامح وعلى نحو غير مفهوم... كان الوجه مليئا بدماء متجلطة، لون الشعر مثل لون شعره، الشاربان أيضا. الصدر عار ومليء بثقوب كما هي العادة، ثقوب فهمت لاحقا أنها أحدثت بالدريل الكهربائي... تأملت الوجه. نزعت الإيشارب من رأسي وأخذت أمسح الدم المتجمع على الوجه لعلي أجد شخصا آخر وينتهي هذا الكابوس.

مسحت الدم. لم أفهم ماذا رأيت، كان مكان العينين فارغاً.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص155-157.

شالعين عينه، شالعين عينه. ارتفع صوتي وأنا أقولها وأكررها...
كان الوجه له لكن دون العينين"[1].

من الأحداث التي مرت بها ميادة يمكننا استجلاء سبب تحولها فيما بعد إلى شخصية قلقة ودائمة التوجس وتوقع الأسوء في أي موقف يمر بها. فالجروح التي سببتها الأحداث الفظيعة التي عاشتها في العراق ما تزال ملتهبة حتى بعد اثنتي عشرة سنة، وقد حولتها لشخص يرى بلاءً في كل شيء. تصف ميادة حالتها لابنتها بقولها: "مهما قلت لكِ فلن يمكنكِ أن تتخيلي كيف كان الأمر في بغداد عندما قتل أبوك، وكيف كان الأمر بالنسبة لي، فجأة أصبحت وحيدة ومسؤولة عنكِ بعدما كان أبوك يفعل كل شيء... ما حدث في بغداد بقي جرحاً ينزف في داخلي، موس عالق في بلعومي، لا أستطيع أن أخرجه، ولا أستطيع أن أبتلعه، لم يكن أمامي سوى أن أسكت عن أي شيء. أي ذكرى أتحدث عنها كانت تنكش جرحي، تحرك الموس"[2].

3- الشخصية المكتئبة:

من أكثر الاضطرابات النفسية التي تقع فيها الشخصية المغتربة هو الاكتئاب، ويمكن تعريف الاكتئاب بأنه "موقف عاطفي أو اتجاه انفعالي، يتخذ في بعض الأحيان شكلاً مرضياً واضحاً، وينطوي على الشعور بالقصور وعدم الكفاية واليأس... وهو استجابة تتميز بالحزن الشديد وبحالة البؤس والتوعك والعجز، وبالشعور بعدم الرضى وضيق الصدر"[3]. وقد صوَّر الكاتب نمط الشخصية المكتئبة من خلال شخصية حيدر، الذي كان يدرك ويعي تماماً إصابته بهذه الحالة المرضية، وقد كان يتابع عند أكثر من طبيب نفسي إلا أن هذا العلاج لم يأتِ بالنتيجة التي كان يطمح لها، يقول حيدر: "العقاقير التي يصفها لي الدكتور بينيت كانت في البداية جيدة، خففت من نوبات الذعر التي كانت تنتابني، وخففت من حدة أعراض الاكتئاب وتشتت الذهن والأرق التي كنت أعاني منها، لكن لا يزال هناك ذلك الشعور المرير في داخلي بكراهيتي لذاتي، شعور لم أتخيل أني يوماً سأعرفه"[4] ومن العواقب التي يمكن أن يقود إليها الاكتئاب هو الإدمان على الكحول والسلوكات السلبية الأخرى، فقد اتجه حيدر للإدمان على لكحول هرباً من اكتئابه، إلا أنه دخل في دوامة أكبر وتسبب لنفسه بالمزيد من الأمراض والمشاكل، وحتى الكحول لم يعد يؤتِ مفعلوه كما كان –حسب رأيه– يقول حيدر في هذا الصدد: "تجاوزت تماماً ومنذ مدة أن أنتظر شعور السعادة من الكحول، كل ما أريده هو الخدر، أن أستسلم لنفسي، أن تخف المعركة في داخلي، كل ما أريده هو أن أعود كما كنت"[5]

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص264-266.
[2] المصدر نفسه، ص76.
[3] سوسن شاكر مجيد: اضطرابات الشخصية (أنماطها، قياسها)، ط2، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ص192.
[4] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص87.
[5] المصدر نفسه، ص113.

تفاقمت حالة الاكتئاب عند حيدر ووصلت أعلى درجاتها حتى وصل للتفكير بالانتحار، وعندما انتحر شخص في المسجد الحرام وظنت ميادة أنه حيدر، لم يخبرها أنه كان فعلاً يفكر بالانتحار من قبل ""هل تصورتِ أني أنا الذي انتحر؟" سألتها. سمعت بالأمر، وشاهدت جزءاً من الجلبة.

انتفضت "لا طبعاً ليس لهذه الدرجة، فال الله ولا فالك".

كان الأمر لهذه لدرجة وأكثر. على الأقل فكرت به مراراً، ليس الآن ولكن في البداية، كنت أعرف أن الأمر يحتاج شجاعة لا أملكها، شجاعة لحظة التنفيذ، وشجاعة تحمل العواقب في الآخرة"[1].

فشعوره بأن حياته وكل ما بناه تحطم، وأنه خسر ابنته وفوق ذلك هو السبب في فقدانها ووصولها لهذه الدرجة وارتكابها خطيئة كبيرة كهذه، وشعوره بالعجز عن مواجهة الجميع بعد هذا... كلها ضغوطات دفعت به للتفكير بالتخلص من مشاكله بالانتحار، لكنه لم يجد الشجاعة لذلك، ولم يتجاوز الأمر مجرد فكرة.

لم تكن مشكلته مع ابنته هي سبب اكتئابه الوحيد، فهو قد كان يعاني من هذه الحالة المرضية قبل وقت طويل من بروز هذه الأزمة، فهناك أسباب كثيرة أوصلته إلى هاوية الاكتئاب، وقد كان بدايتها التغرب عن الوطن، خصوصاً وأنه هاجر لأجل الدراسة فقط ولم يخطط لهجرة دائمة، إلا أنه وبسبب ظروف العراق السياسية اضطر إلى البقاء هناك للأبد، حتى أنه لم يستطع العودة إلى العراق عندما مات والده، وهذا شكَّل له عقدة أخرى تضاف إلى عقده المتأزمة، "ملأني شعور بالحسد تجاه سعد عندما رأيته وهو يساعد أباه، ويضعه في كرسي العجلة وهو يربت على يديه ويعامله بحنان... بينما أنا، عجزت حتى عن الحضور في جنازة أبي.

ذكرني سعد بكل ما لم أفعل، لقد نجح فيما فشلت فيه فشلي الأكبر. ربما فشلي الذي قاد إلى كل ما أنا فيه الآن".[2] ثم الأحداث التي عاشها فيما بعد من قتل على الهوية وموت شقيقه ميثم بسبب ذلك. ثم ذوبانه في المجتمع الغربي بسبب عيشه وحيداً وضغوطات أخرى كثيرة جعلته يتنصل من أصوله الشرقية ويعيش ك هايد، لا كحيدر. حيث أنه حاول خلق شخصية جديدة تناسب بيئته ومجتمعه اللذين يرفضان ذاته القديمة.

كل هذه التراكمات أصبحت مع الوقت عاملاً في إصابته بالاكتئاب، "لثلاثين عاماً كنت أصنع مني شخصاً، واليوم أنظر إليه ولا أعرفه. قالت أميلي إني أمر بأزمة منتصف العمر. الدكتور بينيت قال إني أمر باكتئاب حاد. أما أنا فقد كنت أشعر أني أضعت حياتي كلها"[3]

وقد يؤدي الاكتئاب إلى أعراض أخرى مثل "عدم التعامل بصورة سليمة مع أفراد العائلة أو الزملاء في العمل والأصدقاء في المجتمع، مما يزيد عنده الميل نحو العزلة والانفراد وسرعة الغضب والامتعاض"[4] وهذا ما نلاحظه عند

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص215.

[2] المصدر نفسه، ص137.

[3] المصدر نفسه، ص34.

[4] سوسن شاكر مجيد: اضطرابات الشخصية (أنماطها، قياسها)، ص193.

حيدر، فهو يعاني من مشاكل في العلاقات مع جميع الناس تقريباً، بداية مع اضطراب علاقته بزوجته، ثم ابنته وكل مشاجراته معها، وأيضاً جدالاته المستمرة مع سعد وانفعاله في أي حديث يدور بينهما، فقد أصبح شخصاً عدوانياً ومنفعلاً في تعاملاته مع كل الناس. فأصبح يواجه بسبب ذلك مشاكل في العمل وكل هذا بسبب الاكتئاب الحاد الذي يعانيه، يقول في هذا: "لم تكن ميادة تعرف أني كنت أراجع طبيباً نفسياً منذ أشهر، وأني كنت أواجه تحقيقاً في المستشفى بسبب أعراض جانبية للعقاقير أثرت على أدائي في إحدى العمليات. إضافة إلى تحقيق آخر بسبب نوبة غضب انفجرت فيها على ممرضة غبية تستحق كل ما كلته لها من شتائم"[1].

4- الشخصية المحتقرة للذات:

يشعر الإنسان أحياناً بالقهر من وجوده وبأنه مغلوب على أمره، وذلك عندما يواجه ظروفاً أقوى من أن يجابهها، فينسحب مستسلماً ويفقد ثقته بنفسه، وكذلك عندما يعيد النظر في حياته فيجد أنها قد حادت تماماً عن المسار الذي كان قد وضعه في البداية، ويجد أنه لم يحقق ما كان يطمح له، فتبدو له الهوة كبيرة بين واقعه وما كان يطمح للوصول إليه، وهنا تتغير نظرته لنفسه ويزدريها لما يراه فيها من ضعف وفشل وتقهقر. فالشعور باحتقار الذات هو "انخفاض تقدير الذات أي شعور الفرد بتقدير سالب نتيجة الوعي بالتباعد بين الذات المثالية المفضلة والذات الواقعية"[2]

تجسدت الشخصية المحتقرة لذاتها من بين شخوص الرواية في شخصية سعد، الذي كان شعور الفشل يرهقه يوماً بعد يوماً ويُتعب نفسيته أكثر فأكثر. كان الحل الذي رآه سعد أمامه هو التوجه إلى طبيب نفسي، لكنه لم يجد فيه ما يساعده على تصالحه مع نفسه والتخلص من شعور الدونية والفشل المرير، بل العكس تماماً، فتأثير الأدوية قد زاد من حدة هذه المشاعر، ويتضح هذا في قوله سعد التالي: "هذه الوصفة جعلتني أرى نفسي على حقيقتها: مجرد شخص فاشل مليء بأوهام عن ذاته المتضخمة، كان تقييمي لذاتي في أدنى درجاته... أجبرت نفسي على أن أتعامل مع كل ما مررت به على أنه عقوبة مستحقة عن كل غروري وعجرفتي ونظرتي الفوقية للعالم أجمع"[3].

فقد كانت شخصية سعد في الماضي شخصية نرجسية، متعالية، تنتقد الآخرين على أصغر العيوب وأبسطها، وترى نفسها أسمى من أن تقترف أخطاءهم، تصف ميادة شخصية سعد بقولها: "كان عمر يتعامل مع انتقادات سعد على أنها حالة مرضية، يقول إن سعدا لم يكن هكذا تماما إلى أن دخل قسم الهندسة المعمارية في جامعة بغداد... يقول عمر إن شعور سعد بالتفوق تعزز في دراسة العمارة. بدأ الأمر بأن سعدا كان ينتقد كل تصميم

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص34.

[2] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ص49.

[3] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص83.

لبناء يراه في أي مكان، بما في ذلك بيوت الأقارب والأصدقاء. ثم بدأ ينتقد التصميم الداخلي للبيت، الديكورات، الألوان... ثم صار الأمر على كل شيء. الملابس والأشكال وترتيب الأسنان وكل شيء.

كان عمر يقول إن سعدا يعتقد أن العالم كان يمكن أن يكون أفضل كتصميم، لكن الله اختار هذا التصميم لأن البشر لا يستحقون، عدا المعماريين طبعاً"[1] كان شعور الفوقية والعظمة يعتريه دائماً، فهو يرى نفسه شخصاً كاملاً، مثالياً، لذلك يرى الجميع بعين الاستصغار وأنهم أقل منه، ويوجه انتقاداته للجميع، خصوصاً ميادة، وهذا تسبب لها في فقدان الثقة والخوف من الجميع والتحسس لأي انتقاد مهما كان صغيراً.

وقد وصل تعاليه لدرجة التمرد على ما هو مقدس والتطاول على الإله، وهو يصرح بذلك حين يقول: "كانت الأنا عندي أكبر من أن تحتمل فكرة الخضوع لأحد حتى لو كان الله، وأسوأ من هذا كانت الأنا أكبر من أن تقبل أن تؤمن بما يؤمن به الناس العاديون. وكل الناس كانوا عاديين بالنسبة لي"[2]

ثم وجد سعد نفسه في مواجهة مطبات غيرت مسار حياته للأبد، مجموعة انهيارات نفسية وخيبات رافقته لفترات طويلة من حياته، بما في ذلك إصابته بالعقم الذي حوَّل كل تلك القوة إلى ضعف، ورضخ تحت وطأة الشعور بالنقص والفشل "تكالب كل شيء عليَّ، وأكثر الأشياء مرارة في فمي كان ذلك الشعور بالفشل الذي يخنقني حرفياً، لم أحتمل فكرة أني انتهيت لأكون رجلاً في الأربعين من العمر، دون زوجة أو ذرية أو حتى أمل بالذرية، يعيش مع والده شبه المقعد في منزل مساحته 800 متر مربع في شارع الأميرات، لديه ثلاث شهادات جامعية لا يعمل بأي منها، ويعيش عالة على ريع عقارات ورثها أبوه عن جده"[3]. أصبح شعوره بالدونية يؤرقه كل يوم، كان يرى نفسه شخصاً فاشلاً لعجزه عن فعل شيء يستطيع كل الرجال فعله، فقد كان عاجزاً عن إنتاج الحيامن وقال الأطباء أنه لا يوجد أمل في شفائه "كيف يمكن لشخص يحمل الأنا التي أحملها أن يواجه أنه سيبقى طيلة حياته عاجزاً عن إنتاج ما يستطيع 99.9% من ذكور العالم إنتاجه كل يوم دون تفكير في الأمر أصلاً؟ يستطيع أي مراهق جاهل أو رجل أمي أن ينتج ما لا أتمكن أنا من إنتاجه إطلاقاً"[4]

والشخصية التي تحتقر ذاتها وتستصغرها تتميز دوماً بالشعور بالذنب حيال أمور كثيرة حتى لو لم يكن لها ذنب بذلك، وتستمر في جلد ذاتها معلنة استحقاقها لكل ما يصيبها، فمن يحتقر نفسه يكون "أشبه بمن يكون في داخله شخص يتنمر عليه، فهو ينتقده ويصدر عليه الأحكام ويجعله يشعر بأنه عديم القيمة أو فاشل أو سيئ... ويقنعه هذا المتنمر في داخله أنه هكذا وأن الناس المحيطين به ينظرون إليه على ذلك النحو أيضاً"[5] فسعد كان يشعر بالذنب على موت شقيقه عمر رغم أنه لا دخل له بذلك ولم يكن بيده فعل شيء يحول دون حدوث

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص50.

[2] المصدر نفسه، ص81.

[3] المصدر نفسه، ص82.

[4] المصدر نفسه، ص149.

[5] فاطمة الشمراني: كراهية الذات والسلوك الهدام، shabab.in، اطلع عليه يوم: 11 ماي 2023، على الساعة: 19:00.

ذلك، وقد كان يشعر أنه لا يستحق الحياة حتى، فهو يرى نفسه شخصاً فاشلاً لا يعطي وجوده في الحياة أي قيمة، لذلك وجب عليه أن يموت بدلاً من أخوه عمر الطيب والناجح والمتفوق والذي يحبه الجميع، لأنه بنظره يستحق الحياة أكثر منه. "لم يمر ولا يوم واحد، طيلة هذه السنوات، دون أن أقول لنفسي هذا الذي تعتذرين عنه، أنا عقيم وفاشل، أنا الذي كان يجب أن يموت وليس عمر"[1].

5- الشخصية المتأرجحة بين عوالم الضياع والتخيلات:

من تبعات الاغتراب والاضطرابات النفسية التي تنتج عنه، نجد أزمة انفصال الفرد عن الواقع والهرب منه واللجوء إلى العيش في الخيال. "فيتوجه إلى الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه، إذ أن تعاقب الإخفاقات تؤدي بالإنسان إلى اعتزال واقعه اعتزالاً كلياً أو شبه كلي، وسعيه إلى بلوغ واقع آخر لا وجود له إلا في تصوره"[2] فيلجأ الإنسان للخيال ويبني عالماً خاصاً به هناك عندما يرى أن الواقع لا يشبع رغباته ولا يرضيه وعندما يواجه صدمات تفوق تحمله في هذا الواقع.

ونجد هذه الحالة النفسية متجسدة في شخصية الجد أحمد بكر آغا الذي عاش أزمات نفسية كثيرة ومتتالية بداية من إحالته للتقاعد ظلماً وإجحافاً، ثم وفاة ابنه عمر بطريقة مأساوية، ثم وفاة زوجته، ثم رحيل زوجة ابنه مع حفيدته الوحيدة وانقطاع الصلة بهم... وقد كان موت عمر هو الصدمة الكبرى التي أثرت على حالته العقلية، لاسيما بعد أن رأى جثته وهي ممزقة وعينيه منزوعتين. ذهب أحمد مع ميادة ذلك اليوم لاستلام جثة ابنه من الطب الشرعي، وتحكي ميادة مجريات تلك الأحداث تقول: "مسحت الدم، لم أفهم ماذا رأيت، كان مكان العينين فارغاً. كان الوجه له لكن دون العينين.

سمعت صوت عمي وهو يقول للموظف: هل رأيتم عينيه؟

تصورت أنه يقصد كم هما جميلتان، لكنه كان يسأل الموظف إن كانوا قد وجدوا عيني عمر في مكان ما.

الرجل لم يتحمل الصدمة... قال: ميادة، ربما نجدهما بين الجثث أو في مكان آخر. لقد جن.

قلت له وأنا أبكي: عمو، دعني أبحث عنهما وانتظر أنت في السيارة.

نظر لي ودموعه تهبط بصمت: إن شاء الله، لكن يجب أن نجدهما يا ميادة، عديني بذلك.

سألني عمو في السيارة: هل وجدتهما؟

أجهشت في البكاء ولم أرد. لم أعرف أبدا أنه سيستمر بالبحث عنهما حتى بعد اثنتي عشرة سنة"[3] تسبب ذلك بصدمة نفسية حادة له بقيت معه حتى بعد سنوات من تلك الحادثة. فبعد 12 سنة وعندما قابل مريم ابنة

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص240.

[2] محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ص97-98.

[3] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص265-267.

عمر التي ورثت نفس لون عينيّ والدها، عادت إليه تلك الذكريات، وأصبح يرى فيها عينيّ عمر التي فقدهما ذات مأساة. يروي سعد: "قال أبي فجأة وهو ينظر إلى مريم: عيناك جميلتان جداً.

ابتسمت مريم واحتضنته بشدة. خفت أنا مما سيأتي.

قال أبي: جميلة جداً، تذكرني بأحدهم، اسمه على طرف لساني، كانت عيناه جميلتين هكذا...

ثم أطرق وهو يفكر كما لو أنه يحاول أن يتذكر.

"بابا؟ هل ذقت من الكباب هنا؟ إنه لذيذ جداً... قلت وأنا أحاول أن أغير اتجاه تفكيره.

"منذ فترة لم أره... لا أدري لماذا؟" قال أبي وهو يكمل.

ثم نظر مرة أخرى إلى عيني مريم، نظر كما لو كان يستنطقها، من تشبهين.

ثم بدا عليه أنه تذكر.

"نعم، تذكرت، عمر... إنه عمر".

انطفأ أبي فوراً، بدا ذلك عليه، كما لو أن أحدهم سحب سلك الكهرباء من المكبس، بالتدريج بدأ يخفت أكثر فأكثر مثل حاسوب يقوم بإغلاق برامجه"[1] رغم أن أحمد نسي جزءاً من تلك المأساة بسبب إصابته بالزهايمر، إلا أنه يعود بين الفينة والأخرى لذلك اليوم، وعندها يواجه الصدمة مجدداً ويغيب عن العالم. يقول سعد في موضع آخر: "أبي ليس بخير... بعد لقائه بمريم أصبح ساهماً طيلة الوقت، وأصبح يتحدث في نومه، يقول شيئاً عن عمر، استيقظت لأجده يبحث عن شيء في الحقائب والدولاب، سألته عم يبحث فلم يرد، وعندما حاولت مساعدته نهرني، ثم اكتشفت أن عينيه كانتا تدمعان"[2]. أعادت له مريم ذكريات عمر، وتسبب ذلك في إحياء صدمته، يحكي سعد: "دخلنا الجناح. كانت الفوضى في كل مكان، أبي كان قد نثر كل ما في الحقائب على الأرض وهو يبحث بينها بشكل هستيري...

"أبي، ماذا حدث؟ ما الذي تبحث عنه؟"

نظر لي كما لو كان ينظر في الفراغ، ثم أدار وجهه إلى مريم. قال: أبحث عن عيون عمر... عيون عمر... لابد أنها موجودة في مكان ما"[3]

نلاحظ من الأحاديث السابقة أن العيش في الواقع وهو بكامل وعيه بالنسبة لأحمد لا يسبب له سوى الألم جراء تذكر تلك الذكريات، لذلك أنشأ أحمد عالماً خيالياً للهروب من واقعه المأساوي، عالم موجود في ذهنه هو وحده، ويعيش فيه حياة خالية من البؤس والشقاء، الكل فيه سعيد. يقول سعد: "في عالم أبي لا يموت أحد، حتى

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص190.

[2] المصدر نفسه، ص232.

[3] المصدر نفسه، ص262.

والده ووالدته اللذين ماتا منذ نصف قرن لا يزالان على قيد الحياة، بل ويزورانه أحياناً. كان عالماً مثالياً تماماً، لا موت فيه، ولا فيه من يحزنون"[1].

"دخل أبي في هذا العالم بالتدريج، بدأ ينسى بعض التفاصيل بعد حادث عمر، صغيرة أولاً، ثم بدأت تكبر... بعد أقل من سنة توفيت أمي، فكان أثر ذلك أكبر عليه... بعد يومين من انتهاء العزاء بدأ يتصرف وكأن أمي لا تزال حية، وأنها خرجت منذ قليل للسوق، وأنها تأخرت لأنها ستجلب بعض الحاجيات أو أنها ذهبت لخالتي – التي توفيت قبلها– أو أنها كانت هنا للتو.

بعدها عاد عمر إلى الحياة، وعادت مريم إلى البيت، وهو رجع إلى رتبته العسكرية وحياته الوظيفية قبل التقاعد وأنا أصبحت طبيبا مثل عمر وتخصصت في جراحة الجملة العصبية.

بنى في عقله عالماً مثالياً بديلاً لعالمنا، واستقر وانعزل فيه"[2].

فالإنسان المقهور يهرب من واقعه المؤلم إلى خياله ويبني فيه عالماً مثالياً، وقد كان العالم المثالي بالنسبة إلى أحمد بكر آغا في الزمن الماضي الذي كان يعيش فيه أزهى أيام حياته، حيث استبدل واقعه البائس بصورة أكثر إشراقاً حيث كان لا يزال في وظيفته التي يحبها ويعتز بها، وكل أفراد عائلته محيطين به. ورغم أن "الهروب للخيال لا يغير من الواقع المادي شيئاً، ولكنه على الأقل يغير الواقع النفسي. ويزداد التمسك بالماضي والنكوص إليه عادة بمقدار شدة الآلام المعنوية الحاضرة من ناحية، وإغراءات الماضي السعيد من ناحية ثانية"[3]. فالإنسان يميل إلى العودة للماضي والذكريات القديمة عندما يشعر بالاختناق في حاضره ويثقل الاغتراب كاهله، لذلك يفر إلى الماضي أملاً في تجرع بعض السعادة التي كان يعيشها يوماً، وبحثاً عن شخصيته القديمة فيها ولو بمجرد تخيلات.

المبحث الثاني: مظاهر الأزمة الهوياتية

تلعب الهوية دوراً كبيراً وحاسماً في حياة الفرد، فعلى أساسها يتحدد سلوكه وتتبلور أفكاره ويعرف مكانته في المجتمع وفي الوجود، لكن عندما يواجه الإنسان تضارباً في القيم والمعتقدات، ويمر بتحديات وصراعات تؤثر على هويته، يجد نفسه أمام ما يسمى بأزمة الهوية، مما يرمي به في عوالم التيه والتشوش ويبدأ رحلة ضلاله باحثاً عن هويته ليحتمي إليها ويؤكد ذاته في الوجود.

فكل فرد يواجه مرحلة تحولية في فترة ما من حياته يعيد فيها تقييم ذاته، ويبحث عن هويته الضائعة في محاولة العودة إلى جذوره، ويؤثر على ذلك السياق الاجتماعي وتحديات العصر التي تضغط على الوتر الحساس للفرد، فيضيع في سعيه الدؤوب لتجاوز العقبات وإيجاد مسار نموه كي يصل لمرحلة نضوج شخصيته، ولذلك يدخل في

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص116.

[2] المصدر نفسه، ص58.

[3] مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، ط9، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005، ص109.

دوامة أزمة هوياتية "فأزمة الهوية يمكن النظر إليها بوصفها جملة العوائق التي تعترض محاولات الشخص لتحديد نفسه".[1] فالهوية تعتبر "المؤسس الأول لحركة الإنسان كفرد وكمجموعة أفراد، فالإنسان الفرد بهويته الفردية الشخصية يحدد مصالحه ورغباته وطموحاته ودوافع أعماله وتوجهاته. كما أن الهوية الجمعية لمجموعة أفراد، عائلة كانت أو عشيرة، دينية كانت تلك المجموعة أم مذهبية، أو شعباً... تطور وعيه نحو الهوية الجامعة الوطنية أو القومية، كل هذه الهويات هي التي تحدد حركة المجموعات البشرية وطموحاتها وأهدافها"[2] فتصرفات الفرد وسلوكاته ومبادئه وطريقة كلامه، وحتى أحلامه وأهدافه... كلها تنبع من هويته كفرد وهويته وسط الجماعة أو الدولة.

وتواجه الهوية في عصرنا الحالي مجموعة من التحديات أدّت بها إلى التصدع والتشتت والضياع. وقد ألقت الرواية التي بين أيدينا الضوء على بعض من هذه الأزمات التي تواجه الفرد في تحديد هويته أو ترسيخها أو الحفاظ عليها، سنحاول معرفتها والكشف عن تجلياتها في المتن الروائي.

وقد تبدّت أزمة الهوية في الرواية من خلال القلق والاضطرابات التي أصابت مختلف الشخصيات في صراعهم لاكتشاف ذواتهم وانتماءاتهم، وكذا العودة إلى جذورهم ومحاولة التشبث بهوياتهم الأصلية، والبحث عن قيم يتبنوها لتوضح لهم أين يضعون أقدامهم في درب الحياة. كما تعددت أشكالها وأسبابها وتأثيراتها ومظاهرها على مختلف الشخصيات.

وبعد الدراسة والتحليل، تمكنا من استخراج أربع مظاهر للأزمة الهوياتية وهي: أزمة التدين، أزمة الازدواجية (الذات بين هويتين)، أزمة التنشئة والتربية، أزمة الترابط الاجتماعي

1- أزمة التدين (الدين):

من بين أهم أشكال أزمة الهوية التي واجهت شخصيات المتن الروائي والتي برزت بقوة في الرواية هي أزمة التدين، فهي أحد القضايا الشائكة التي تهدد هوية الفرد وتوازنه النفسي وتكوينه الشخصي، والتي تحدث بسبب تضارب القيم الدينية بين ما هو سائد وما يؤمن به، وتعارض تلك القيم مع رؤاه وقناعاته.

يمكن استشفاف أزمة الدين والصراع القائم بخصوصه منذ اللحظة الأولى التي تقع فيها عينيك على الرواية، فالعنوان خير مثال على وجود مشاحنة حادة مقترنة بالدين، وعلى أعتابه يقف القارئ متسائلاً: كيف يمكن جمع كلمة "كريسماس" مع "مكة"!، فمكة تمثل قمة التدين والروحانية والقداسة، بينما يمثل الكريسماس قمة الانفتاح والتحرر، بل إنه يمثل الغرب عامة والدين المسيحي خاصة، فالكريسماس له خصوصية دينية باعتباره طقساً دينياً لدى معتنقي الديانة المسيحية. أما مكة فهي الفضاء الروحاني الذي يحوي الكعبة المقدسة، وهي رمز ديني إسلامي بحت... ولهذا يطرح السؤال نفسه بإلحاح؛ كيف نضع عيد رأس السنة الميلادية الذي يحتفل به المسيح مع مناسك

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص25

[2] أنيس النقاش: الكونفدرالية المشرقية (صراع الهويات والسياسات)، ص242.

إسلامية مقدسة! فمن هنا تبدأ في التساؤل عن الصراع القائم في هذه الرواية التي أعلنت في بدايتها اكتساح عالم المتناقضات... وهذا العنوان يلخص أحداث الرواية ويدلّ دلالة مباشرة على الفصام في الهوية العربية وأزمة التدين الذي يسقط فيه المهاجر العربي في البلدان الغربية خاصة.

وعندما تخوض في غمار الرواية، تجد أن الشخصيات تواجه صراعاً في ذاتها ومع مجتمعها أساسه الدين، والدين هو "نظام للفكر والعمل تشترك في اعتناقه جماعة ما، ويمكن اعتبار موقفنا الديني وجهاً لبنية شخصيتنا حيث هويتنا تتحدد بما نكرس أنفسنا من أجله... فالدين يلبي أهم حاجات الإنسان كالرغبة في الأمان والتعلق بغاية ما، كما يقدم قيماً مرجعية تبرر سلوكه الاجتماعي أو تشكل الدافع لهذا السلوك، وإلى جانب ذلك يقوم بوظيفة حارس الأخلاق ومصدر القيم"[1] أي أن الدين هو الذي يوجّه سلوكنا ويحدد مبادئنا وقيمنا ونظرتنا للوجو، وتُعيّن لنا حدود ما يمكننا القيام به، وتجاوز تلك الحدود تعني وقوع الفرد في أزمة هوية دينية، فتشظي القيم الدينية أو التخلي يعدّ من أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان المعاصر، فالدين هو الأساس المرجعي لهوية الفرد والمتحكم في تصرفاته وشخصيته، ووجود خلل فيه يعني وجود خلل في هويته كفرد مسلم.

لكن المشكلة العويصة التي تقع فيها الأقلية المسلمة في البلدان الغربية هو المحافظة على معالم الشخصية الإسلامية، فمن الصعب جداً المحافظة على قيم الدين الإسلامي عندما يكون المرء محاطاً بمجتمع معادٍ للإسلام ويرضخ لضغوطاته ومتطلباته، لاسيما في وجود ظروف أخرى تضعف من شخصية الفرد وتجعله لقمة سائغة للتأثيرات الخارجية التي تسلبه القدرة على توجيه حياته بالاتجاه الذي يريده.

فأزمة الدين من بين أكثر الأزمات التي يعاني منها المغتربين في البلدان الغربية، لأن أغلبيتهم يذوبون في الأجواء السلبية لتلك المجتمعات وثقافتهم وعاداتهم البعيدة كل البعد عما تنادي به الأخلاق الإسلامية، فتهتز عقيدتهم و"يغرقون في بحر من الضياع جراء عدم وجود منهجية ثابتة وواضحة في الحياة، فوسائل الضياع هنا كثيرة يضاف إليها ضعف الروابط والعلاقات وانحسار الجانب الأخلاقي"[2]

قدم الكاتب في روايته نماذج مختلفة من الشخصيات المسلمة؛ جعل من مريم مثالاً لبعض المسلمين الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، فبالرغم أن والديها مسلمين، إلا أنها لم تتلقَ تربية إسلامية، وكل ما تعرفه عن الإسلام والمسلمين تعلّمته من مجتمعها الغربي وما تراه في وسائل الإعلام المتعدية على الإسلام. أما ميادة فهي تحاول إثبات أنها مسلمة، فتصوم رمضان وتحفظ الأدعية وتتحمس للذهاب إلى العمرة وتحرص ألا تقيم ابنتها علاقات غير شرعية، ولكنها مع ذلك لا تواظب على الصلاة ولا تفكر في ارتداء الحجاب وتشاهد فيلماً رومانسياً في الطائرة أثناء ذهابها للعمرة وكأنه شيء عادي. أما حيدر فهو مبتعد تماماً عن الدين، لا يصلي ولا

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص65

[2] محمد حسين فضل الله، الهجرة والاغتراب (تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة)، ط1، مؤسسة العارف للمطبوعات، لبنان، 1999، ص134.

يصوم، ومدمن على الخمر، وكان على علاقة غير شرعية مع زوجته قبل الزواج، وربى ابنته على الانفتاح والحرية المفرطة، ولكنه بعد ذلك صدم عندما علم أن ابنته ستنجب دون زواج. وكان سعد في شبابه لا يبالي بالدين ويتحامل حتى على الإله، ولكنه تغير تماماً بعد مروره بتجارب فشل عديدة.

بين يدينا إذاً أربعة شخوص مختلفين في انتماءاتهم وتكويناتهم وقناعاتهم وشخصياتهم وظروفهم المحيطة... اجتمعوا معاً لتأدية مناسك العمرة دون هدف ديني، يعون جيداً قداسة مكة لكن كل منهم يرمي إلى تحقيق غاية معينة؛ مريم تهدف إلى إنجاز مشروع تخرجها حول اقتراح تصور بديل لهندسة الحرم المكي. وميادة ترغب بتعريف مريم على عائلة والدها وإعادتها إلى جذورها الأصلية لتحميها من براثن المجتمع الغربي. أما حيدر فقد أراد فقط الهروب من الاجتماع العائلي الذي سيعقد في الكريسماس بعد أن صُدم بمعرفة أن ابنته حامل من رجل أسود. وأخيراً سعد الذي كان متحمساً للعمرة فلطالما رغب بالذهاب ولم تسعفه ظروفه، إلا أنه في هذه الحالة كان فقط متحمساً من أجل لقاء ابنة أخيه "مريم" بعد اثنتي عشرة سنة من افتراقها عنهم.

وقد قدّمت لنا الرواية ثلاث نماذج ترتبط بأزمة الدين وهي: الابتعاد عن الدين، الاستهزاء بالدين، والتمسك بالدين.

أ- الابتعاد عن الدين:

تبرز أزمة الابتعاد عن الدين في الرواية بشكل لافت جداً، ذلك أنها أساساً جوهر الرواية ومبتغاها، فالكاتب أراد تسليط الضوء على هذه الفئة من المغتربين الذين يضيعون دينهم ويسمحون لرياح الغرب بتبديد ما تبقى من انتماءاتهم الدينية، يفتتون بالغرب لدرجة التحول إلى كائن آخر. وهذا ما جسده الروائي في شخصيات مثَّلت أزمة الابتعاد عن الدين سواءً بتأثير عيشها في المجتمع الغربي، أم بتأثير ظروف أخرى وهي: مريم، ميادة، حيدر.

عندما يرى سعد صور مريم على الانستغرام، يدرك أنها تأثرت بالبيئة الغربية التي نشأت فيها أيما تأثر، "كل صور مريم كانت تحمل لي فكرة أنها قد أصبحت غربية تماماً وأن لا علاقة لها بالدين أو بعادات الشرق، صورة بروفايلها كانت ترتدي فيها تنورة قصيرة جداً، ومكشوفة الذراعين. تألمت عندما رأيت الصورة أول مرة. فكرت أن أخي لو كان موجوداً ما كان سيقبل بذلك، ثم تذكرت أقرباء وأصدقاء كثيرين لا يرون مشكلة في ذلك، ربما كان أخي سيفعل مثلهم، ربما كنت أنا سأفعل مثلهم لو عشت حياتهم"[1] فقد تخلت مريم عن تعاليم الدين الإسلامي ومبادئه المحافظة واستبدلتها بالمظاهر الغربية المتحررة. وحتى إن كانت تعيش في أوروبا، إلا أن الابتعاد عن الدين لا يجب أن يكون مبرراً، فالهوية الإسلامية لا يجب أن تكون ضعيفة في مواجهة سيل الثقافة الغربية.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص27.

وتمتد هذه المشكلة لتتجاوز المظهر الخارجي والملابس، فمريم لا تحمل بداخلها أي إيمان بالمعنى الديني، حتى رغم اعترافها أنها مسلمة ومعرفتها بمدى أهمية الدين الإسلامي وعقائده، إلا أنها لا تشعر بتاتاً باقترابها من الإسلام بالمعنى الروحي، فهي مسلمة بالاسم فقط، وقد صرَّحت بذلك بنفسها "لم أكن ملحدة إطلاقاً، ولم أكن لا أدرية* أيضاً، ولكني لم أكن "مؤمنة" بالمعنى الذي تفهمه أمي من الكلمة، كنت أؤمن بوجود "شيء ما" قوة كبيرة في هذا الكون، الأديان وسائل تواصل مع هذه القوة، وهذا لا يجعلني ضدها، ولكنه لا يجعلني مع واحد منها أكثر من سواه. أمي لم تكن متدينة كثيراً، لكنها كانت مؤمنة بمعنى عام، مؤمنة بتفاصيل كثيرة عن الحساب والجنة والنار لا أجد نفسي منجذبة لها، لا أرفضها، ولكن لا أجد أنها تعنيني كثيراً"[1] ويتضح ذلك أكثر في رد فعلها عندما رأت الكعبة لأول مرة، رغم أنها أعجبت بجمالها إلا أنها لم تتأثر بها لكونها جزء من موروثها الديني "وجدت الكعبة أمامي، كان مشهداً يأخذ الأنفاس. لم أفهم هذا الجمال، لم أفهم لماذا هو جميل هكذا... أفهم أن يتأثر المؤمنون بهذا المشهد، فهذا جزء من إيمانهم، لكن كيف يحدث هذا معي؟ ليس لديَّ هذا الرصيد من العاطفة الذي يجعلني أتحسس لهذا المشهد"[2]

حتى ميادة التي كانت في ظاهرها تبدو كامرأة محافظة وملتزمة بعض الشيء، إلا أن سلوكاتها تدل على عكس ذلك رغم أن ابتعادها عن الدين ليس بنفس حدّة ابنتها وشقيقها. فأزمة الابتعاد عن الدين تظهر لديها في أمور مثل عدم ارتدائها الحجاب، ومشاهدتها فيلم رومانسي أثناء الذهاب للعمرة، وتقبل سلوك ابنتها في الاحتفال بالكريسماس أثناء العمرة... كما أنها ابتعدت عن الدين في فترة ما من حياتها في الماضي، وذلك من خلال إعلان تمردها على الدين بسبب غضبها على ما لحقها من مأساة جراء وفاة شقيقها وزوجها. فقد كانت تدعو الله أن يعود لها زوجها عمر عندما تم اختطافه، وقالت أنه لو عاد فستلتزم أكثر بالصلاة وترتدي الحجاب، لكن بعد أيام وجدوا زوجها ميتاً بعد أن تم تعذيبه وتحطم كل شيء أمامها، تقول: "عندما حدث ما حدث، لم أستطع أن أصلي، أو حتى أتمكن من الدعاء. قرأت القرآن في العزاء كما الكل، لكن ثمة شيء في داخلي كان قد انكسر.

في الأشهر التالية، كنت مملوءة بالغضب، الغضب من كل شيء واتجاه كل شيء، غضب تجاه ما حدث لي ولعمر وغضب من أجل مريم وغضب لمستقبل غامض عليَّ أن أواجهه وحيدة.

كنت مملوءة بالغضب والنقمة، كنت غاضبة –أستغفر الله– على الله ومن الله... لماذا ترك كل هذا يحدث لي ولعمر ولمريم ولميثم ولجمانة ولبناتها، لماذا؟ هل كان يعاقبنا؟ ما الذي فعلناه كي نستحق كل ذلك؟"[3]

* **اللاأدرية:** هو توجه فلسفي يؤمن بأن القيم الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير محددة ولا يمكن لأحد تحديدها، خاصة تلك المتعلقة بوجود الله وعدمه وما وراء الطبيعة، بعبارة أبسط: هو عدم الجزم بوجود أو عدم وجود إله. أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص69.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص69.

[2] المصدر نفسه، ص134.

[3] المصدر نفسه، ص166.

مرت ميادة بأزمة الابتعاد عن الدين لفترة قصيرة فقط، ومع ذلك فقد بقيت بعض آثارها لديها في المستقبل، ولم تتخلص تماماً من هذه المشكلة. ويعود ذلك أساساً لعيشها في المجتمع الغربي وتأثرها بمحيطها بشكل أو بآخر رغم محاولتها الحفاظ على ما تبقى لها من هويتها كمسلمة.

بينما يمثل حيدر الشخصية المنسلخة تماماً عن الدين الإسلامي، فهو قد تقمص شخصية الرجل الغربي لأبعد الحدود، وعاش حياته كلها في أوروبا بهويته الغربية الجديدة. لدرجة أنه كان يشرب الخمر في الطائرة في طريقه إلى مكة بنية العمرة دون أن يرى حرجاً في ذلك، "نبيذ أبيض من فضلك" قلت للمضيفة.

نظرت إلي مريم وميادة... ميادة كانت تنظر لي بلوم وعتب، رفعت سماعتها وقالت: حيدر! حتى بالطريق للعمرة!

رفعت يدي كما لو أني لا أريد أن أناقش الأمر وقلت لها: قدح واحد أخير. عشرة أيام دون كحول.

شربت النبيذ دفعة واحدة، كما لو أن شربه دفعة واحدة هول الحل الوسط بين شربه وبين التخلص منه في آن واحد. شربته وانتهى"[1].

فارتباط حيدر بالدين لم يعد يتعدى حضور الاجتماعات مع الجالية الشيعية في بريطانيا في الحسينية*، هناك طلب منه الإمام أن يذهب للصلاة قبل أن يتحدث معه، يقول حيدر عن شعوره عندما وقف للصلاة لأول مرة بعد فترة طويلة جداً مباشرة قبل ذهابه للعمرة "وقفت لأصلي، منذ دهور لم أفعل. كنت أحضر كل سنة مجلس العزاء الحسيني الذي يقام في ميدلزبره، وكانت هذه هي صلتي الوحيدة الباقية بالدين. لكن لم يكن حضور العزاء يتطلب الصلاة، حاولت أن أتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي صليت فيها فعلاً، لم أذكر.

وقفت لأصلي وأنا مرتبك، لم أكن أدري إن كان سبب ارتباكي هو تقصيري في الصلاة، أم أنه كان لأني خشيت أنه يراقبني وأن أخطئ في حركات الصلاة"[2] ويعود ابتعاد حيدر عن الدين لهذه الدرجة أساساً لأنه عاش وحيداً في بريطانيا منذ شبابه، حيث لم تكن هناك أي ضوابط أو حدود لحريته، فانصهر تماماً في المجتمع الغربي ولم يعر أي اهتمام لدينه أو القيم التي تربى عليها في العراق، ثم انغمس أكثر فأكثر وتزوج من فتاة بريطانية وربى ابنته على الحرية والانفتاح.

ب- الاستهزاء بالدين:

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص113.

* **الحسينية:** هي مكان تجمع المسلمين الشيعة لإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي وأهل بيته في معركة كربلاء ويُعتبر مركزاً للنشاطات الدينية والثقافية. يُقام فيها المجالس العزائية والمحاضرات الدينية والمسرحيات التمثيلية التي تروي قصة استشهاد الإمام الحسين. أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص113.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص95.

تجسد تدنيس الدين في الرواية في شخصيتين هما: شخصية مريم وخالها حيدر، المشحونان بمفاهيم مضادة ومعادية للفكر الإسلامي.

في خضم الإعداد لرحلة العمرة، لاحظت مريم توتر أمها فظنت أنها ألغت الرحلة التي يفترض بها أن تكون خالصة لأجل مشروع تخرجها، ويظهر من طريقة كلامها نقداً لاذعاً للدين الإسلامي باعتباره يُعلي من شأن الذكورية والتسلط على المرأة. تقول مريم: "أخشى أنها تُخفي عني خبراً سيئاً يتعلق بإلغاء سفرتنا الموعودة.

سألتها: ما السر الذي تحاولين إخفاءه عني؟

تظاهرت بعدم الفهم: سر؟ أي سر؟

قلت بصوت متوسل: أرجوك، أرجوك، أرجوك لا تقولي لي إن "أخوك" ألغى الأمر فجأة، وبالتالي ستلغى السفرة كلها لأننا نحتاج إلى "مُحَرَّم" لكي نسافر حسب تعليمات "دينكم" الذكوري؟

شددتُ على "أخوك" و"دينكم" كما لو أني أقول لها إن المشكلة مشكلتها.

قال أمي وقد قطبت جبينها: "خالك" لم يلغي الأمر، فحاولي أن تكوني ممتنة له، وتحدثي أيضاً باحترام أكبر عن "ديننا".

شددت هي أيضاً على "خالك" و"ديننا"... ثم انفجرت ضاحكة: ثم إن اسمه "مَحْرَم" وليس "مُحَرَّم".

قلت: أياً كان... لا فرق"[1]

وعندما عرفت مريم أنها ستقابل عمها وجدها في مكة، كانت غاضبة لأن أمها لم تخبرها بذلك، ولأنها تجبرها على مقابلة أشخاص لم تعرفهم من قبل. ومرة أخرى ينعكس في كلامها عدم احترامها للإسلام وتعاليمه، وهذا يعكس مدى جهلها بالدين الإسلامي بسبب تشبعها بالثقافة الغربية التي ترعرعت فيها. "قلت لها: كيف تخططين للأمر دون إخباري على الأقل؟ كيف سأستطيع التركيز في مشروعي وأكون في حالة صفاء وتركيز ذهني وأنا في صحبة ذكوريين متسلطين وكارهين للمثليين؟

ضحكت أمي بسخرية: ذكوريين؟ كارهين للمثليين؟ هل تعتقدين أن المثليين يقومون بمظاهرات في بغداد للمطالبة بحقوقهم وأن الناس هناك تصنف (مع أو ضد) المثليين؟ هذا كلام فارغ لا يصدقه إلا من لم يعش يوماً واحداً في بلداننا ولا يعرفها إلا من خلال عالمكم الافتراضي المزيف.

قلت بصوت مرتفع: وربما يرغبان في إجباري على وضع غطاء الرأس، أو تزويجي من قريب لهما!

ضحكت ساخرة: يجبرانك على وضع غطاء الرأس؟ حقاً؟ ألا ترين أنني بلا غطاء؟ ألم تري صوري في بغداد؟

رددت: حتى لو كان كذلك. المجتمع كله ذكوري بقيمه وعاداته!"[2]

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص12، ص13.

[2] المصدر نفسه، ص13، ص14.

فمريم قد تأثرت تماماً بالمجتمع الغربي وما يدعو إليه، فهي تدافع عن حقوق المثليين وترى في الشذوذ حرية شخصية، ثم إن نظرتها للإسلام تنحصر على ما يروج له الغرب ومؤسساته الإعلامية، فصورتها للإسلام ارتسمت بما تراه وتسمعه في مجتمعها الجديد فقط. وقد كوّنت فكرة مسبقة عن المجتمع العربي وعن تعاليم الإسلام، فهي ترى أنها مجحفة بحق المرأة وأنه مجتمع ذكوري تحتقر فيه المرأة والسلطة المطلقة فيه للرجل. وقد ورد في الرواية ما يدل على استهزاء مريم بالدين الإسلامي وتعاليمه في أكثر من موضع.

والشخصية الثانية التي تمثل أزمة الاستهزاء بالدين التي يقع فيها من اختار نكران هويته وأصوله والإعلاء من شأن الثقافة الغربية هي حيدر خال مريم. مثل مريم، هو الآخر لم يتوانى في السخرية من الإسلام وتعاليمه ووصفها بالتخلف والرجعية، يقول: "تأشيرة العمرة لا يمكن أن تصدر لمريم دون وجود مَحرَم... نسيت ما يتعلق بهذه الأمور تماماً، الحمد لله أني تركت هذا التخلف كله وراء ظهري. في عصر النت والفضاء لا يزالون يمنعون المرأة من السفر دون رجل معها"[1]

ج- التمسك بالدين:

تعتبر شخصية سعد أقرب شخصية للدين مقارنة بشخوص الرواية الأخرى، ورغم أنه هو الآخر كان في وقت ما بعيداً عن الدين، إلا أنه عاد بسرعة إلى الله واقتنع أنه الملجأ الوحيد للتخلص من كل آلامه. يتحدث سعد كيف عاد إلى الله وأصبح متديناً مقارنة بماضيه، فالأزمات التي مر بها جعلته يشعر أنه محاصر لكنه استطاع تجاوزها بالتمسك بالدين، يقول: "كان الدين هو المنفذ من ذلك الحصار.

قبل هذا، كنت غير مكترث به من الأساس، وكنت أعيش حياة بعيدة عن الدين... كنت أصوم رمضان وأصلي فيه بتقطع... سبق لي أن شربت البيرة والويسكي بعدد مرات الأصابع لا أكثر... لكن عندما حدث ما حدث، وجدت نفسي بالتدريج أذهب إلى الله مليئاً بالطعنات والكدمات والخناجر. لا، لم أكن منكسراً، كلمة الانكسار مخادعة، كنت محطماً، كنت مجرد بقايا، ذهبت إليه زحفاً، أملاً في أن ينقذني، أن يجعلني أواصل الحياة، أن يجعلني أملك ما أحيا من أجله... كنت أزحف إلى الله في الوقت الذي كان فيه كثيرون يتركونه."[2]

فالأزمات التي يمر بها الإنسان قد تبعده أحياناً عن الله لفترة مؤقتة بسبب غضبه وضعفه، لكن عندما يدرك الإنسان موقفه جيداً ويعي حجم أخطائه، يعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا سبيل للسعادة والراحة في الحياة إلا سبيله، فتصبح الأزمات سبباً في تقربه أكثر من الله وتمسكه بالدين لأنه يجد فيه العزاء والمواساة.

ويظهر تمسك سعد بالدين وشخصيته المحافظة في مناوشاته مع حيدر دائماً، فقد مثلت جدالاتهما الصراع بين الشرق والغرب، بين الدين ونكرانه... ويوضح المقطع التالي موقف سعد إزاء ذلك "لدي شيء أريد أن أعطيه

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص32.

[2] المصدر نفسه، ص81.

لمريم، ليس بسبب الكريسماس، نحن ليس لدينا كريسماس لأنه ليس عيدنا، ولكن بسبب أننا اجتمعنا اليوم... وهذا الذي...

قاطعه خالي: من تقصد بـ"نحن"؟ من "أنتم" الذين ليس لديكم كريسماس؟

قال عمي ببرود مستفز: نحن المسلمون طبعاً، ليس لدينا كريسماس، لدينا عيد فطر وعيد أضحى كما تعلم.

أخذ خالي الطعم وابتلعه استفزه عمي: أنتم المسلمون ونحن ماذا، كفار؟

قال عمي ببرود أكثر استفزازاً: كيف فهمتها هكذا دكتور؟ قلت "نحن" قصدت نحن جميعاً، وأشار بيديه إلى الجميع"[1]

رفض سعد الاحتفال بالكريسماس، وتصريحه المباشر برأيه أمام الجميع، يمثل موقفه المعادي لهذا التصرف وتمسكه بقيم الإسلام واحترامه له، فهو يعي جيداً تشبعهم بالفكر الغربي حتى أصبحوا يحتفلون بمناسبات تمثل الدين المسيحي بأريحية ودون أن يروا حرجاً في ذلك رغم كونهم مسلمين.

2- أزمة الازدواجية (الذات بين هويتين):

عندما يكون الفرد واقفاً على الخط الفاصل بين ثقافتين ومجتمعين وهويتين، يصبح غارقاً بين مشاعر وانفعالات متناقضة. وقد صورت الرواية حالة التمزق الذي يعيشه المغتربين، فأشارت إلى الصراع الداخلي في الذات الواحدة بين ثقافتين وهويتين مختلفتين لا تنسجمان ولا تمتزجان تحت أي ظرف.

فالمغترب يعاني من تضارب بين قيم المجتمع الذي يعيش فيه ويتفاعل معه، وبين القيم التي تنتمي لجذوره الأصلية. وتبدو أزمة الهوية واضحة من خلال الازدواجية التي تعاني منها الشخصيات، والانشطار والتشتت ما بين الهوية العربية الأصلية والهوية الغربية الجديدة.

"مريم، معمارية، شرقية وغربية معاً... تستخدم الحد الأدنى، تفكر بالحد الأقصى، نباتية، روحانية، مولودة في عالم يستحق إعادة تصميم. هل أفكر خارج الصندوق؟ أي صندوق منهم؟!"[2]

هكذا قدَّمت مريم نفسها في النبذة التعريفية الخاصة بها على الإنستغرام، وهو تعريف يحيل مباشرة إلى التوهان والشتات الذي تعيشه وعدم معرفة انتمائها. وقد مثّلت شخصية مريم الجيل الثاني من المهاجرين، وهم الشباب الذين يكبرون وهم يتلقّون مبادئ المجتمع الغربي وقيمه، لذلك أصبحت تعاني ازدواجية في الهوية، حيث حدثت لها حالة من الانقسام والانشطار جعلتها تتأرجح ما بين انتمائها للهوية الغربية والعيش بعاداتها وتقاليدها، وبين الرجوع لأصولها العربية الإسلامية والتمسك بقيمها.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص271.

[2] المصدر نفسه، ص68.

وقد وقفت هذه الشخصية في مركز الأزمة الهوياتية، جسَّد الكاتب من خلالها الذات التي تعاني من أزمة هوية وتبحث عن التوازن الهوياتي، الذات التي تدرك واقع أنها تتخبط بين هويتين متناقضتين؛ هوية شرقية أصيلة، وأخرى غربية متحررة. ويعبر عن ذلك هذا الكلام الصادر عن مريم: "هذا التمزق بين ما عليّ أن أدافع عنه لأنه جزء من هويتي، وبين ما أرفضه في داخلي لأني لست مقتنعة به، هذا التمزق الذي ورثته من بيئتي التي ظلت تمدني بتناقضات طيلة الوقت، التناقضات التي يبدو أني سأقضي حياتي وأنا أحاول التصالح معها أو التنسيق فيما بينها"[1]. فهي تتصارع بين هويتين متضادتين تحمل كل منها عكس ما تحمله الأخرى من مبادئ وقيم وعقائد وثقافة ولغة.

يبرز هنا التضاد بين الهويتين بشكل واضح وجلي لديها، ومريم تُدرك ذلك جيداً وتحاول التوفيق بين الهويتين، لكنها لم تبلغ ما تصبو إليه رغم كل محاولاتها، وبقدر ما تشعر بالقرب أكثر من هويتها الجديدة، إلا أنها في سعي مستمر ودؤوب للتصالح مع هويتها الأصلية كعربية ومسلمة وتجاوز العقدة التي تشعر بها تجاهها وتقبل انتماءها. فهي تحاول معرفة موقعها من هذه التناقضات وتحديد هوية ثابتة لها. وتقول كذلك في هذا الصدد: "التنافس الحقيقي والذي يصل إلى حد الصراع، هو بين الجذور التي ورثتها عن أمي وأبي، والتربة التي وضعوني فيها.

مثل "درب الآلام* بالضبط"، لكن يسمونه الآن "أزمة هوية" أزمة هوية الجيل الثاني من المهاجرين... بطريقة ما، عنوان الجيل الثاني هو في الركض المستمر بين هويتين، بين الصفا والمروة بطريقة ما"[2].

لم تجد شخصية مريم موقعها في حرب الهوية المزدوجة، فهي ذاتها لا تعرف أين انتماؤها بالضبط، وتعيش متخبطة بين القبول والرفض لهويتها الشرقية، وقد غذى ذلك ما أخذته من الوسط الأوروبي الذي تعيش فيه، الذي ينبذ ويشوه كل ما له علاقة بجذورها الشرقية.

ويقول سعد عن ازدواجية مريم: "مريم مزدوجة الهوية تماماً. اعتقدت دوماً أن ازدواج الهوية مساوٍ لفقدانها. لا أعرف الآن إن كانت مريم فاقدة لهويتها، أم أن هويتها هي في الجمع بين هذين العالمين"[3]. وبهذا تجسّد مريم مثالاً للمعاناة من ازدواجية بين الفكر والسلوك، فما تفكر فيه عكس ما تقوم به في الواقع... فمثلاً ترى الحجاب أداة لقمع المرأة وتنتقد المجتمع الذكوري المتسلط الذي يجبر المرأة على وضعه –في رأيها– بينما تحاول أن تثبت لزملائها وأستاذها عكس ذلك... وهذا الاختلاف بين ما تفكر به وما تفعله أرّم من ازدواجيتها لاسيما وأنها تعي هذا الأمر تماماً وتدرك عدم التوافق بين ما تعتقده وما تفعله.

---

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص174.

* **درب الآلام**: حسب العقيدة المسيحية، درب الآلام هو الطريق الذي سلكه السيد المسيح من الحكم عليه إلى موقع الصلب، ويمر بين أزقة القدس القديمة. أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص174.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص174.

[3] المصدر نفسه، ص257.

وهذا ما يوضحه حوارها مع صديقتها عندما راسلتها لتسألها إن كانت تستطيع قضاء ليلة الكريسماس معها، وقد كان ذلك في خضم التجهيز لرحلة العمرة، فردت عليها مريم: "لا للأسف، لن أكون هنا".

- أها إجازة خارج البلاد... أين؟
- مكة، في العربية السعودية.

أرسلت كلوي وجهاً يتفكر. ثم قالت: هل أنت جادة؟

رددت: نعم، أخطط لذلك منذ فترة.

استلمت ثلاث وجوه مصدومة.

- ما الأمر؟ كتبت لها، وقد بدأت تستفزني.
- أليس هذا هو المكان المقدس للمسلمين الذي تذبح فيه الحيوانات؟
- نعم، هو المكان المقدس لنا، والذبح لا يحدث دائماً، فقط في موسم معين.
- لم أكن أعرف أنك متدينة، أو أي من أسرتك، هل ستضعين النقاب؟

يا للسؤال، لم يكن النقاب وارداً، ولا الحجاب. لكن مجرد معرفتها أني سأذهب لمكة جعلتها تنزل كل ما في ذهنها من أفكار جاهزة عليَّ.

- ربما سأفعل، عليك أن تنتظري إلى حين عودتي لمعرفة الأمر.

جوابي صدمها أكثر، كانت تريد جواباً من نوع: بالتأكيد لا، ماذا تظنين، هل جننت؟ لو كنت أتحدث مع زميلة مسلمة لربما قلت لها ذلك. لكن مع كلوي، لن يحدث"[1].

نفس الأمر حدث عندما سخر أستاذ لها في الجامعة من المسلمات اللاتي ترتدين الحجاب. فتعليق الأستاذ على ذلك جعلها تشعر بالإهانة كونها مسلمة بعد كل شيء، تقول: "في سنتي الجامعية الثانية، حدث ما جعلني أتعامل مع الحجاب لا على أنه علامة قمع، بل على أنه هوية وتحدي أيضاً.

أحد الأساتذة الزائرين في الجامعة في مادة التصميم، علق على البصمة الإسلامية في تصميم كنت قدمته، بعد عدة ملاحظات سلبية قال شيئاً إيجابياً عن التصميم، ثم سألني: هل أنت مسلمة؟

أجبته بالإيجاب، فقال: جيد إذن أنك لا تضعين شيئاً على رأسك. أولئك اللواتي يضعن هذا الشيء لا قدرة لهن على الخيال والإبداع. هذا الشيء الذي على رؤوسهن يعكس أن أجنحتهن قد قصت، لا يمكنهن التحليق كما فعلتِ.

شعرت بالإهانة، كما لو أنه صفعني"[2]. وبعد ذلك قررت مريم في المرة القادمة عندما حان موعد تقديم تصميم آخر مع نفس الأستاذ، أن تتقن عملها أكثر وتوضح أكثر البصمة الإسلامية في تصميمها، ثم ذهبت وهي ترتدي الحجاب، كي ترد على الأستاذ وتثبت له عكس ما يتصوره، وتُريه أنها تعتز بهويتها كمسلمة. وعندما سألها

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص72.

[2] المصدر نفسه، ص111.

أصدقاؤها عن سبب فعلها لذلك، قالت أنها لن تسمح له أن يهين هويتها رغم أنها غير مرتبطة بمظاهر الدين وشعائره.

فمريم تدافع عن الإسلام وتبيّن ارتباطها بالهوية الإسلامية أمام البريطانيين، مع أنها هي بنفسها تسخر من الحجاب وتراه أداة لقمع المرأة... تدافع عن الإسلام وتذمه في الوقت ذاته! وهذا يلخص التناقض والازدواجية التي تعاني منها شخصية مريم. ونرى ذلك بشكل واضح ومباشر عندما أخبرتها أمها أنها ستقابل في رحلة العمرة عمها وجدها، أطلقت هجوماً عنيفاً بسبب الخلفية الفكرية التي تحملها على الإسلام، وهي ذات الخلفية التي تحملها صديقتها كلوي وأستاذها. فقد ردت مريم على أمها بانفعال: "ربما يرغبان في إجباري على وضع غطاء الرأس، أو تزويجي من قريب لهما!

ضحكت ساخرة: يجبرانك على وضع غطاء الرأس؟ حقاً؟ ألا ترين أنني بلا غطاء؟ ألم تري صوري في بغداد؟

رددت: حتى لو كان كذلك. المجتمع كله ذكوري بقيمه وعاداته!"[1]

ثم تبرز هذه الازدواجية مجدداً في وقت لاحق أثناء عندما كانت تؤدي مناسك العمرة وأثناء السعي بين الصفا والمروة، رغم أنها كانت تمارس تلك المناسك دون ارتباط روحي بها كما ينبغي للمسلم أن يفعل، لكنها شعرت بالفخر لأنها شعائر تُعطي قيمة للمرأة، تقول: "قرأت أن هذا السعي كان تجسيداً لرحلة هلع وخوف زوجة إبراهيم على ابنها... الجزء "الفيمنست" مني شعر بالفخر لوجود شعيرة تجبر الرجال على السير على خطى امرأة. سأقول ذلك بفخر لأصدقائي في الجامعة عندما يقودون الحديث إلى ظلم الإسلام للمرأة، ربما سيكون الأمر مبهراً، النسخة الإسلامية من "درب الآلام" تسير على خطى امرأة وليس رجل، وعلى جميع الرجال أن يسيروا – ويهرولوا– على خطاها تلك[2].

تشعر بالفخر إذاً، وتريد الدفاع عن الإسلام أمام الآخرين كجزء من هويتها وموروثها، رغم أنها هي بنفسها لا تؤمن بما تحاول الدفاع عنه، فتقول في هذا الصدد: "لو كتبت ما أفكر به على الإنستغرام لوجدت تعليقات: ماذا عن الحجاب، تعدد الزوجات، ختان الإناث، جرائم الشرف؟ وسيكون عليَّ أن أشرح وأوضح الفرق بين بعض هذه الأمور، وأن أدافع عن أشياء لا أؤمن بها من الأساس"[3]

ويلخص ازدواجية مريم مشهد إعدادها لطاولة الكريسماس في الفندق بمكة، ووضع شجرة الكريسماس بمحاذاة الكعبة، "أطفأت الأضواء، كنت النتيجة رائعة بصرياً. شجرة الكريسماس على الستارة الشفافة، وخلفها الكعبة متلألئة بأنوارها. أنوار الحرم المحيطة بالكعبة وأنوار الجبال في مكة اختلطت مع زينة الشجرة"[4] فكريسماس بالنسبة

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص14.

[2] المصدر نفسه، ص174، ص175.

[3] المصدر نفسه، ص174.

[4] المصدر نفسه، ص268.

لمريم هو جزء من ثقافتها، ومكة هي أيضاً جزء من موروثها، وهذا يجسد معركة التناقض والتضارب والانفصام داخل مريم.

وهذه الازدواجية تعيشها أيضاً والدتها ميادة، ويعبر عن ذلك سلوكها في الطائرة أثناء توجههم إلى مكة، فقد كانت تشاهد فيلماً رومانسياً حتى أثناء توجهها لأداء العمرة، "اختارت أمي من الشاشة مقابلها فيلم the notebook، تراه ربما للمرة الألف وستبكي عليه للمرة الألف"[1] وقد عبرت مريم عن هذه الازدواجية التي تعانيها عائلتها بسخرية، فهم على متن الطائرة متوجهون لأداء مناسك العمرة، أمها تشاهد فيلماً رومانسياً وتبكي عليه وخالها يشرب النبيذ بينما يقرأ في كتاب أدعية، قالت عن ذلك: "دموع على الnotebook ونبيذ أبيض وكتاب أدعية، وعمرة في الكريسماس. كيف يمكن لعائلة أن تجمع تناقضات أكثر؟"[2]

كما يصف حيدر ما يعانيه بسبب هذه الازدواجية، وكيف أنه وصل لما وصل إليه بسبب ترك الهوية الغربية تنتصر على هويته الأصلية، فلو أنه تمسك بهذه الأخيرة، لما كانت حياته ستنقلب هكذا رأساً على عقب. "عشت عشرين عاماً وأنا في حالة هدنة مع فصامي، هدنة جعلتني لا أنتبه إلى أني مضيت بعيداً في الفصام، لو أني حافظت على توازن ما، لو أن فصامي كان بدرجة أقل... أما كان يمكن أن تكون الأمور مع سارة مختلفة؟ أما كان يمكن ألا نصل إلى هذا الذي وصلنا إليه؟"[3]

تستعر حرب حيدر مع الازدواجية عندما بدأت هويته الشرقية تطفو على السطح بعدما خال أنه تخلص منها، ظن أنه حذف تماماً الأنا الشرقي من ذاته، لكنه بعد الصراعات النفسية التي عانى منها نتيجة الانصهار في المجتمع الغربي، وجد نفسه يتأرجح بين الأنا الشرقي المضمر بداخله، والأنا الغربي الذي أصبح يسيطر على ذاته. "هايد، هكذا تناديني أميلي منذ أن تعارفنا. كنت أضحك من الأمر في بدايته... لم أكن أدري أن هذه النكتة ستتحول إلى حقيقة بين سيد حيدر ابن حجي مرتضى الباقر، ابن الكرادة العريقة، وبين دكتور هايد باكر... وضعت يدها على كتفي وطبطبت عليه: تمالك نفسك يا هايد، عليك أن تتقبل الأمر ولو بالتدريج... أنت تعيش "متلازمة الأب الشرقي" وسيمر الأمر سريعاً"[4]

انغماس حيدر في حياة متحررة في المجتمع الغربي بداية من العيش مع أميلي معاً قبل الزواج، ثم الزواج بها رغم معارضة عائلته بالزواج من فتاة بريطانية غير مسلمة، ثم عدم الاهتمام بتلقين تعاليم الدين الإسلامي لابنته وفتحه لها كل آفاق التحرر وتركها تتشبع بالثقافة الغربية. أفضى في النهاية إلى موت حيدر الرجل العربي الذي اعتبره "بقايا رجل شرقي متخلف" وولادة هايد على أنقاضه، الرجل البريطاني المتحرر. يقول حيدر في وصف حالته

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص108.
[2] المصدر نفسه، ص115.
[3] المصدر نفسه، ص281.
[4] المصدر نفسه، ص60.

هذه: "تعرض هايد إلى اختبارات عديدة نجح فيها كلها بتفوق، مثبتاً أن حيدر قد مات بالفعل. أول صديق لسارة، أول موعد لها مع شاب، أول سهرة في النادي الليلي، أول كأس، أول مرة ترجع مخمورة... كل مرة كان هايد يتصرف كأي رجل بريطاني أبيض... ربما كان لديَّ خوف من أن يُفهم الحرص الأبوي الطبيعي على أنه بقايا رجل شرقي متخلف"[1]

لكن حيدر استيقظ من سباته واكتشف أن ذاته الشرقية لم تمت، وإنما كانت في سبات مؤقت فقط وقد استيقظت الآن، بسبب الصدمة التي واجهها حين علم أن ابنته حامل من صديقها وترفض الزواج منه... وبعد أن كان قد قرر قطع الصلة مع ابنته، تراجع عن قراره وحاول إصلاح علاقته معها وأدرك أنه لا يستطيع السماح بأن تضيع من بين يديه، ولا أن تضيع نفسه "لا أريد أن أعتبر أن سارة انتهت، ولا أريد أن أخسر أميلي، ولا أريد أن أعيش المزيد من الازدواجيات في حياتي..."[2]

3- أزمة التنشئة والتربية:

تحدثنا سابقاً عن أزمة التدين، وكيف يؤثر العيش في البيئة الغربية وتشرّب ثقافتها على معالم الهوية الإسلامية، فمن الطبيعي أن يجرفهم التيار ويجعلهم ينسلخون عن دينهم. والمشكلة تكون أخطر لدى الأجيال الناشئة والشباب ممن كبروا وتربوا في أحضان هذا المجتمع الغربي، فنجد الهوية الإسلامية باهتة عندهم لافتقارهم لمرجعية إسلامية وتعوّدهم على أسلوب الحياة الغربي الذي لم يعرفوا سواه. وحتى لو بذل الوالدين جهداً في تنشئتهم على تعاليم الدين الإسلامي، فلن يكون كافياً ولابد من وجود اضطرابات واعتلالات بسبب تأثير البيئة الاجتماعية على شخصياتهم "فإذا كان الكبار من رجال ونساء قد انطلقوا من جذور عميقة في انتماءاتهم الإسلامية من موقع الفكر والممارسة، فإن الجيل الناشئ لم يختزن هذه العناصر في ذاته لأن ما يحمله منها لا يمثل إلا بعض الكلمات الطائرة والمفاهيم الضبابية التي لا تلامس أعماقهم إذا كانت قد لامست بعض سلوكياتهم"[3]. فلا يمكن للشباب أن يتقبلوا ببساطة المفاهيم الجاهزة التي يقحمها الآباء في عقولهم، بحيث يصعب على الآباء غرس ثقافة بلدهم الأم في أولادهم خصوصاً إن انقطعت الزيارات للوطن وعاشوا منقطعي الصلة بعائلاتهم هناك، فلا يصبح لديهم أي شيء يربطهم بتلك الجذور، وهذا تماماً هو الوضع بالنسبة لشخصيات الرواية، فقد قطعت العائلة صلتها تماماً بجذورها العراقية بعد هجرتهم إلى بريطانيا.

قدمت الرواية نموذجين للتنشئة في المجتمع الغربي، النموذج الأول هو الناجح وتمثل في شخصية مريم التي تحاول والدتها جعلها تعود لأصولها العربية وتتمسك بهويتها كمسلمة رغم صعوبة فعل ذلك نظراً لأنها تربت على القيم الغربية، لكنها مع ذلك استطاعت لحد ما رسم حدود لها وإبقائها ضمن مجال سيطرتها. أما النموذج الثاني وهو

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص62.

[2] المصدر نفسه، ص281.

[3] محمد حسين فضل الله، الهجرة والاغتراب (تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة)، ص239.

الفاشل، فهي سارة ابنة حيدر التي تخلت تماماً عن أصولها، وتعيش كامرأة غربية بانفتاح تام ودون ضوابط، حتى أنها أنجبت خارج إطار الزواج. هتين الشخصيتين تعكسان مدى التزام الوالدين بالتربية؛ فوالدة مريم مازالت رغم كل شيء تحاول الحفاظ على ما تبقى لهم من جذور والتمسك بالدين ولو قليلاً. أما والد سارة، فهو بحد ذاته انجرف مع حياة المجتمع الغربي ونكر أصوله وأصبح يعيش حياته بحرية تامة نقلها إلى ابنته، لذلك واجه فيما بعد نتائج هذه التربية بطريقة لم يتخيلها يوماً.

بالنسبة لمريم، فهي رغم اعتزازها في بعض المواقف بهويتها كمسلمة، إلا أن نشأتها في هذا المجتمع أثرت عليها وجعلتها تتزعزع، ورغم أن أمها لم تنجح تماماً في جعلها تلتزم بدينها، إلا أنها نجحت لحد ما في إبعادها عن تأثيرات المجتمع الغربي، من خلال فرض سيطرتها عليها ووضع بعض القواعد والضوابط وجعلها تلتزم بها. وقد أظهر الكاتب ذلك من خلال سعد الذي كان قلقاً على نشأة مريم في بريطانيا خصوصاً بعدما عرف بمشكلة حمل سارة من صديقها. كان يقول في نفسه "ميادة أخت رجال ويعتمد عليها وتربيتها كانت بطريقة مختلفة. لكن إلى أي حد يمكن لميادة أن تنجح بمفردها؟ أين الحدود التي ستقف عندها؟... هي عاقلة ولا أظنها ستحارب كل شيء. تعرف أنها لن تنتصر لو فعلت ذلك"[1] وقد أراد من خلال استجواب مريم أن يعرف إلى أي حد نجحت ميادة في تربيتها وإبعادها عن مؤثرات المجتمع الغربي، "سألتها دون مقدمات: هل لديكِ بوي فرند؟

قالت: لا، اطمئن، ليس بعد.

كانت تفهمني جيداً. اطمئن وليس بعد، يعني أنه لم يحدث حتى الآن ولكنه سيحدث.

أكملت هي بينما نخرج من باب المول: هل تعرف ميادة آل باقر؟ إنها صعبة جداً في هذه الأمور، أي بوي فرند محتمل سيمر أولاً عبر ماكينة تقطيع اللحم الخاصة بها، ولن يبقى شيء منه بعد ذلك.

هززت رأسي بتفهم وأنا أتظاهر بالحزن والتعاطف مع مريم: نعم مفهوم... الله يكون في عونك.

وكان قلبي يرقص فرحاً وهو يهتف: ميادة، ميادة، ميادة!"[2]

ومريم تعرف جيداً أن أمها لن تسمح لها بتجاوز الحدود التي رسمتها لها، تقول مريم عندما أخبرتها أمها بما حدث مع سارة وحذرتها من تجاوز الحدود مثلما فعلت ابنة خالها، "عشت أنا عشرات الدرامات الصغيرة من قبل أمي، أخذت النصائح والإرشادات عن عدم التمادي كحقن في العضلة، عشرات القصص عن النهايات السيئة للتمادي، وعشرات التحقيقات عن صديقاتي وكل من أعرفه جعلت في داخلي حدوداً تمنعني من أن أمضي إلى ما مضت له سارة"[3]

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص257.

[2] المصدر نفسه، ص261.

[3] المصدر نفسه، ص213.

ومن هنا يظهر حرص ميادة على تنشئة ابنتها تنشئة سوية، كما تبدو رغبتها في إعادتها لجذورها وترسيخ القيم الإسلامية فيها من خلال حوارها التالي مع سعد: "قلت دون مقدمات: سعد، أنا خائفة على مريم.

تغير وجهه: ماذا حدث؟

- لا، لم يحدث شيء، لكن ما حدث ما سارة ألا يوحي لك بكل المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها مريم؟
- ماذا تقولين؟ بالتأكيد الأمر مختلف مع مريم، لا أنتِ مثل أم سارة –مع كل احترامي لها أنا لا أعرفها– ولا أنتِ مثل حيدر، مريم ناضجة وعاقلة، وما شاء الله عليكِ، ربيتِ وأحسنتِ التربية، تعبكِ عليها واضح يا ميادة"[1]. بسبب خوفها على مريم، طلبت ميادة من سعد أن يساعدها على الانتقال إلى لندن حيث تتواجد الجالية العراقية بقوة، لتدمجها في مجتمع عربي مسلم، وتزوجها بشخص عراقي أو على الأقل مسلم بغية ترسيخ ما تبقى من هويتها والمحافظة عليها من الضياع.

أما سارة فقد انحرفت تماماً، وأثبتت أن طريقة التنشئة ومدى اهتمام الوالدين بذلك هو الحد الفاصل بين الالتزام والانحراف، فطريقة تربية والدها حيدر لها كانت سبباً في انحرافها، وهو يدرك جيداً أنه السبب في ذلك، لكنه أدرك خطأه متأخراً بعدما عرف أنها حامل وأنها لا تنوي الزواج من صديقها رغم ذلك. وعندما كان يطوف بالكعبة، وصل إلى الحجر الأسود ووجد نفسه يدعو الله بحرقة لأجل ابنته "وجدت نفسي أهمس: سارة يا رب، سارة حامل من صديقها ولا تنوي الزواج، تريد أن تنجب بلا زواج ولا عقد من أي نوع، وهو لن يسلم... أحمل عارها يا رب، أحمل وزر تربيتي لها، أحمل عاري، أحمل الثمن الباهظ الذي دفعته والذي لم يخطر في ذهني سابقاً"[2]

4– أزمة الترابط الاجتماعي:

عالجت الرواية الكثير من القضايا المرتبطة بمسألة الهوية، وكذلك العديد من القضايا الاجتماعية، والعنصرية أحد تلك القضايا التي حاول الكاتب أن يطرحها ويبين بشاعتها. كما تناول ظاهرة أخرى قد يعتبرها البعض مسألة دينية، إلا أن الكاتب هنا تعامل معها على أنها ظاهرة اجتماعية بحتة، وهي قضية التعايش وتقبل الآخرين في ظل الاختلافات الدينية والطائفية كجزء من ضروريات إنشاء مجتمع مسالم ومتعاون من أجل استقرار الحياة الاجتماعية. وعلى الرغم أن الكاتب لم يركز كثيراً على هتين المسألتين ولم يستطرد فيهما، إلا أن لهما حضوراً بارزاً في الرواية ومهماً في الأحداث، كما لهما ارتباطاً قوياً بالمسألة الرئيسية التي يحاول معالجتها.

أ– العنصرية:

العنصرية ظاهرة اجتماعية لطالما كانت موجودة في المجتمعات البشرية منذ القدم، وقد كانت الأقليات هي ضحية المعاملة القائمة على أسس عرقية خصوصاً، وتعني العنصرية "الاعتقاد بأن الإرث الثقافي أو العنصري

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص292.

[2] المصدر نفسه، ص141.

لجماعة فرد يتفوق فطرياً على الإرث الثقافي أو العنصري للجماعات الأخرى، يصاحب هذا الاعتقاد اتجاهات التعصب ضد أعضاء الجماعات التي صنفت بوصفها أدنى أو أقل.[1]

وقد نبذ الإسلام منذ ظهوره هذا الاتجاه في التفكير وحارب العنصرية بكل أشكالها، فهناك الكثير من النصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية تحارب التمييز العنصري وتذمه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" سورة الروم، الآية 22. وكذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لعربي فضل على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى". ونجد اليوم المجتمعات الإنسانية المعاصرة تشهد موجة كبيرة من العنصرية خاصة في المجتمع الغربي، فهي تحمل فكراً عنصرياً خالصاً وتشجع عليه.

تطرقت الرواية للتمييز العنصري الذي تتعرض له الجالية العربية المغتربة في البلدان الأوروبية من خلال شخصية مريم كما سبق ووضحنا في المبحث الأول، إلا أن الكاتب تناول هذه القضية من زاويتين، فقد ركز في حالة مريم على نتيجة ذلك التمييز عليها وكيف أنه دفعها للاغتراب الاجتماعي والشعور بالاختلاف وسط مجتمع تظن أنها تنتمي له، مما أحدث في نفسها تأزماً وتسبب لها بحالة من التشتت والعجز عن معرفة موقعها من المجتمع.

والآن، نسلط الضوء على الجانب الثاني الذي تطرقت له الرواية بخصوص ظاهرة التمييز العنصري، ففي العادة نجد الأقلية هي التي تتعرض للعنصرية خاصة بالنسبة للمغتربين العرب، لكن الكاتب هنا قلب الطاولة، وحوَّل العربي من ضحية إلى جاني، ليثبت أن العنصرية ظاهرة تتبدى في كل البشر على حد سواء.

وقد عبر الكاتب عن ذلك من خلال شخصية حيدر المتشبعة بالثقافة الغربية والمنصهرة فيها، فجعله مثالاً للرجل البريطاني المتعالي والذي ينظر لغيره من الأجناس الأخرى باحتقار ودونية، وقد كان ذلك واضحاً وجلياً في عدم تقبل حيدر لعلاقة ابنته سارة مع صديقها لأنه داكن البشرة. فعندما أخبرته ابنته أنها حامل من لوك ولكنها لن تتزوج منه، كل ما كان يشغله أن ابنته حامل من شخص أسود، وليس كونها ستنجب طفلاً خارج إطار الزواج، فلون صديقها كان ضربة موجعة له أكثر من إنجابها بطريقة غير شرعية. فعندما قالت له بتحدي أنها لن تتزوج بصديقها "لوك" فقط لتحفظ ماء وجهه عند الجالية وأن لوك لن يغير دينه من أجله، كان رده ساخراً: "الزواج؟ عن أي شيء تتحدثين؟ هل تعتقدين أن زواجك من لوك تحديداً سيحل أي مشكلة بالنسبة لي؟ هل تعتقدين أنك تعاقبينني بعدم الزواج من لوك؟ الزواج من لوك هو العقوبة بالنسبة لي، لوك تحديداً.

وقفت سارة بتحدٍ: لماذا لوك تحديداً؟

...هل تريدين حقاً أن تسمعي؟ سألتها وأنا أعطيها فرصة للخروج من هذا.

كن رجلاً صريحا ودعني أسمعها.

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص102

إذن اسمعيها، لأن لوك أسود ابنكِ سيكون أسود مثله، سيبقى ذلك في أحفاده، أحفادي أنا، سيكون زنجياً، لا شيء سيغير ذلك، عقد الزواج لن يغير من شيء، المشكلة في الأب.

سكتت سارة وعلى وجهها ابتسامة ساخرة متألمة. قالت لي وبصوتها نفس نبرة التحدي: سيكون الأمر أسهل عليك لو كان لوك أبيض؟ لو كنت حبلى من أي من أصدقائي البيض؟

سكت، لم أشأ أصلاً أن أفكر في جوابي.

قالت: لا أصدق كم أنت متناقض ومنافق. هذا الحديث عن الشرف والحمل خارج إطار الزواج كله يمكن أن يطير من أجل أوهامك العنصرية، لو كنت حبلى من جوشوا فلا بأس، يمكنك أن تتقبل الأمر وتتعايش معه. لكن مع أب أسود، لا، الأمر مختلف[1]. فرفض حيدر علاقة ابنته من لوك لم يكن منبعه الخوف من الله أو الوقوع في الخطيئة، بل كان ثمرة الأفكار العنصرية الغربية المغروسة في رأسه، والتي أحالته إلى إنسان متنكّر لجذوره وموروثاته ومبادئه الإنسانية.

ورغم أن حيدر يعتقد أنه الأكثر تفوقاً مما جعله يحتقر السود، إلا أنه بنفسه ينتمي إلى مجموعة أقلية، ويعاني أمثاله من هذه المعاملة العنصرية، فلطالما كان العرب في المجتمعات الغربية يواجهون تعاملاً مختلفاً يقوم على أساس عرقي ويتشرّب من عقلية الرجل الأبيض المتفوق على غيره. وقد واجهته ابنته بذلك وذمت تفكيره الرجعي لاسيما بالنظر لجذوره هو الآخر، "ألا ترى أنك تعيش دوراً لا يناسبك؟ لقد صدقت أكثر مما يجب دور (الرجل الأبيض)

نزعة التفوق البيضاء غير مناسبة لجلدك، هل تعتقد لمجرد أنك تزوجت من بيضاء وصرت تحاول التحدث باللكنة البريطانية أنك ستحوز عضوية في نادي البيض العنصريين ويحق لك أن تعاير السود بلونهم؟ لقد نسيت نفسك، أنت عربي، نصف أسود. نفس هؤلاء البيض يحتقرونك كما يحتقرون السود، بل وأكثر.

ما الذي يجعلك تعتقد أنك مؤهل أصلاً لتكون عنصرياً؟ الدور أكبر منك...

أسميت لوك زنجياً؟ لا أحد يسمي السود بهذا الآن، لكن تذكر أن عرقك ونسبك ليس أرقى منه بأي حال من الأحوال... بدلاً من تأتي من الغابة جئت من الصحراء ومعك تخلفك وشعورك بالدونية".[2]

لقد أراد الكاتب بهذا أن يشير إلى ظاهرة العنصرية التي تتجذر في كل البشر مهما كان انتماؤهم، فهي مرض يأبى الكثير أن يشفوا منه وهي تجردهم من إنسانيتهم. وهناك فئات رغم معاناتها من التعامل العنصري معها، نجدها مازالت تعامل غيرها بعنصرية! كما أننا نستشف بهذا موقف الكاتب المضمر من الفكر الغربي، ويبدو ذلك جلياً من خلال محاولته إظهار أن ظاهرة العنصرية مرتبطة بالعالم الغربي أكثر، ومتجذرة في كل شخص لا يعيش بتعاليم الدين الإسلامي الذي لا ينظر لهذه الاختلافات العرقية أو الجنسية... والدليل على ذلك أن نظرة حيدر تغيرت تجاه لوك لاحقاً بعد أن أصبح حيدر شخصاً جديداً بالعودة إلى الله، وخلع عنه رداء الرجل البريطاني الأبيض.

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص143، ص144.

[2] المصدر نفسه، ص145.

ب- التعايش في ظل الاختلاف الديني والعرقي:

يشير مصطلح التعايش إلى "حالة العيش المشترك التي تجمع مجموعتين أو أكثر تختلف عرقياً أو دينياً أو فكرياً عن بعضها الآخر مع احترام كل مجموعة لمعتقدات المجموعة أو الجماعات الأخرى، وقدرة هذه الجماعات على حل خلافاتها بصورة سلمية. وعلى هذا الأساس، يستند مفهوم التعايش على وعي الأشخاص أو الجماعات بأن لها هويات دينية أو عرقية أو فكرية مختلفة والإقرار أن اختلاف الهويات هذا لا ينبغي أن يقود إلى صراعات عنيفة أو دموية بين حاملي هذه الهويات أفراداً كانوا أم جماعات"[1]

تناول الكاتب هذه القضية وطرح فكرة التعايش المشترك وتقبل الآخر، باعتبارها مسألة شائكة وحساسة وغاية في الخطورة، فالاختلافات الدينية والطائفية كانت السبب الرئيسي لكل الاضطرابات التي عاشتها شخصيات الرواية، وهي التي أدت في المقام الأول إلى بدء رحلة الاغتراب وأزمة الهوية المصاحبة لها. "فالانتماءات المذهبية والدينية كانت من أهم العوامل التي أذكت نار الصراع وأججت حمية الفوضى والاقتتال، وأحدثت شرخا عميقا في جسد الأمة، ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك الحضور القوي لإشكالية الصراع الطائفي والمذهبي بين السنة والشيعة والذي ينبني على استحضار صراعات تاريخية قديمة تحولت من الطابع السياسي إلى الطابع العقدي"[2] لذلك يدعو الكاتب إلى التعايش دون تعصب وإطلاق أحكام على الآخر، سواءً في ظل الاختلاف الديني (بين المسلمين والمسيحيين) أو الاختلاف المذهبي (بين السنة والشيعة)، وهي المجموعات التي شكّلت أقطاباً للصراع في ثنايا المتن الروائي.

فبالنسبة لمسألة التعايش بين المسلمين والمسيح، نجد أن التعايش بينهما يتطلب تعلّم التفاهم والتسامح وتقبل الاختلاف والاحترام المتبادل بين الطرفين. وهذا ما كان سعد يحاول فعله رغم أنه يمثّل الشخصية الأقرب إلى التدين مقارنة بباقي الشخصيات، فقد أراد الكاتب أن يوصل رسالة مفادها أن تقبل المسيحين لا يعني تقبل ديانتهم، فيمكن للمسلم أن يكون متديناً ومع ذلك يتعايش مع المسيحي في إطار التعايش الاجتماعي دون أن يقحم الدين في علاقته الاجتماعية بهم.

وقد صوّر الكاتب هذه المسألة من خلال التطرق إلى الجدل الذي يقع فيه المسلمون والمسيح كل سنة بخصوص جواز تهنئة المسيح بعيد السنة الميلادية من عدمه، فاعتبرها الكاتب قضية اجتماعية لا علاقة لها بالإيمان أو الدين، فهو يحاول إنهاء الخلافات الاجتماعية ونشر روح المحبة بين الأديان بحيث يقضي على التفرقة دون أن يمس ذلك بالدين. فعندما هنأته مريم بالكريمساس كان متفاجئاً بالبداية، لكنه اعتبره دون أي دلالة دينية، يقول

[1] ألفرد ستيبان: التعايش في ظل الاختلاف، مجلة أوراق ديمقراطية، العراق، ع02، 2005، ص17.

[2] أكرم بلخيري: التعددية الدينية كحل للتعايش السلمي، مجلة العلوم الاجتماعية، ألمانيا، ع07، 2018، ص65.

سعد: "قدرت أنها ربما لا تعرف بوجود خلاف كبير حول "جواز تهنئة المسيحيين بعيدهم" وأن هناك معارك تحدث على السوشيال ميديا بسبب هذا الأمر، أما أن يتبادل مسلمان التهنئة، فهذا ما لا خلاف عليه.

لم أكن أعير اهتماماً كبيراً لهذا الأمر. ماذا أفعل إذاً رأيت جاري "أبو سلوان" في يوم عيده؟ أدير بوجهي إلى الجهة الأخرى وأتظاهر بأني أرد على مكالمة مهمة؟ ماذا أفعل إذا رأيت "السيدة كريمة" في أسواق عبد الله الدليمي وهي التي درستني في الابتدائية؟

كان الأمر بديهياً لا يحتاج إلى فتوى، ترى شخصاً تعرفه وتسلم عليه في الأحوال الطبيعية، كيف يمكن أن تتجاهله يوم عيده؟

كانت أمي تزور صديقتها "خالة فايقة" في عيدهم... خالة فايقة كانت أرثوذوكسية، كانت تأتي لنا بالبيض الملون في عيد الفصح. الله يرحمها، هناك معركة أخرى كبيرة حول الترحم عليها، لكن ما علينا"[1].

وتبدو دعوة الكاتب إلى هذا النوع من التعايش واضحة جداً وخفية في الوقت ذاته، حيث أنها تظهر وتتضح بعد تحليل أول عتبة للرواية ألا وهي الغلاف. فلننطلق من عنوان الرواية بحد ذاته، والذي يدل من جهة على الصراع بين ثقافتين وديانتين مختلفتين، وفي الوقت ذاته يمكن أن يشير إلى التعايش بينهما من جهة ثانية، فالجمع بينهما في عنوان واحد يعدّ بحد ذاته دعوة للتعايش بينهما... كريسماس ومكة... رمز المسيحية ورمز الإسلام. فنرى كلمة "كريسماس" باللون الأحمر وهو لون ملابس بابا نويل الذي يظهر في احتفالات الكريسماس واللون الطاغي فيها، أما كلمة "مكة" فاختار الكاتب لها اللون الأبيض والأسود، وهذا في نظرنا إحالة لصورة الكعبة، فالأسود يمثل لون كسوة الكعبة، والأبيض رمزٌ لنقائها.

ثم ننتقل إلى الغلاف، وأول ما نلاحظه هو الصندوق المفتوح بينما يظهر طرف قبعة حمراء يتدلى منه، فالصندوق هو رمز الأصالة، رمز الإسلام، أما القبعة الحمراء فهي قبعة بابا نويل التي يضعها المسيح في احتفالات الكريسماس. وهذا يشير إلى احتضان بعضهما البعض. كما نلاحظ أيضاً في الغلاف الزخرفة في الخلفية، وهي فسيفساء تشير للهندسة الإسلامية وهو ما يميز الطابع الهندسي المعماري الإسلامي، ونلاحظ احتواء هذه الزخرفة على نجمة ثُمانية. وهذه النجمة "تظهر في عدد من الثقافات حول العالم فيمكن أن نجدها على الأعلام الوطنية وفي الأيقونات والرموز الدينية كما نجدها تزين الكثير من المباني الحديثة والأثرية، وبالبحث في تاريخ ودلالات هذه النجمة سنجد أنها تحمل تاريخاً عميقاً ومدلولات ثقافية ودينية مختلفة ترتبط بكل ثقافة من الثقافات التي تستخدمها. أما في الأديان فنجدها عند اليهودية والمسيحية والإسلام... ويرجع بعض المسيحيين النجمة الثمانية إلى التعميد، باعتبار السيد المسيح قد عُمّد حين كان عمره ثمانية أيام... ويعتبر استخدام النجمة الثمانية مثلاً

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص255، ص256.

للتعايش والتسامح بين الثقافات والأديان المختلفة"[1] وهذا يتوافق ورسالة الكاتب التي تدعو للتعايش بين المسيحية والإسلام، فنرى الفسيفساء التي ترمز للهندسة الإسلامية وهي تحتوي النجمة الثمانية التي ترمز للدين المسيحي.

أما بالنسبة إلى التعايش في ظل الاختلاف المذهبي، فقد تناوله الكاتب من منظور الحرب الطائفية الدموية التي وقعت في العراق والتي لها علاقة مباشرة بالأزمات التي مرت بها شخصيات الرواية. وقد أشار الكاتب في مواضع كثيرة من الرواية الحال التي كانت عليها هذه الطوائف قبل وبعد الحرب، فالعراق قبل الحرب كان مجتمعاً يسوده الأمن ومبنياً على التعايش بين السنة والشيعة دون النظر إلى أي طائفة ينتمي الشخص أو ما هي هويته، لكن الحرب فعلت فعلتها فيهم، وحال السلام إلى نار تستعر راح في لهيبها من الطرفين الكثير. ويظهر هذا في حديث سعد مع ميادة، يقول: "عندما يجتمع عراقيون ويتعرفون على بعضهم لأول مرة، ويكتشف كل جزء منهم أن الآخر من الفئة الثانية، يحرص الجميع على تأكيد أنه لا فرق بين سنة وشيعة، ثم يسألون "بس لو نعرف من وين اجت هالطائفية" تأكل وتشرب معهم منذ قرون، وبعدين يسألون هذا السؤال الخالد.

ضحكت ميادة بصوت حاولت التحكم به. قالت: صحيح يا سعد، لكنها كانت تأكل وتشرب معهم دون أن تقتل، هذا هو الفرق"[2]. ويقول في موضع آخر: "سابقاً كنا نتبادل النكات كل فئة عن الأخرى على نحو ودي وطبيعي، بعد "الطائفية" أصبح الأمر لا يحتمل ذلك، النكات ضمن كل فئة لوحدها"[3]

ثم بعد سنة 2003، ازدادت حدة التوتر والصراع بينهما، وتحول الاختلاف السياسي إلى خلاف عقائدي. تقول ميادة في وصف الحرب الدموية التي قامت بين الطائفتين "ميثم قتل لأنه شيعي، وعمر قد يقتل لأني سني، دوامة القتل الظالم لا تفرق بين أحد، كنا نسمع عن أشخاص قتلوا من الجانبين، دون أي تفسير عن طائفتهم.

حوادث القتل على الهوية استمرت بالازدياد، كل يوم كان هناك ثابت في الأخبار: العثور على 40 جثة مجهولة الهوية، وأحياناً أكثر. الكثير من الجثث كانت تحمل أسماءً واضحة الانتماء الطائفي. عمر على رأسها من جهة السنة، حيدر... أو سجاد... أو عبد الحسين، من جهة الشيعة"[4]

أشارت الرواية كثيراً إلى هذه المسألة وأكدت على وجوب تقبل الاختلاف والتعايش سلمياً بين الطائفتين، كما حاول الكاتب من خلال الشخصيات إظهار أن الأفراد الذين ينتمون للطائفتين لا يواجهون أي مشاكل بينهم، والدليل أن الشخصيات الرئيسية للرواية ينتمي نصفها للسنة والنصف الآخر للشيعة، ومع ذلك فهم لم يتركوا هذا الاختلاف يقف عائقاً أمامهم أبداً، بل إنهم لا يحسبون له أي حساب.

[1] رمز النجمة الثمانية بين العصور القديمة والحضارة العربية الإسلامية، wikimaghreb.com، اطلع عليه يوم: 12 ماي 2023، على الساعة: 04:50.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص325.

[3] المصدر نفسه، ص118.

[4] المصدر نفسه، ص157.

5- أزمة البحث عن الهوية:

تجاوبت الشخصيات مع رحلة البحث عن الهوية بطرق مختلفة ومتفاوتة، تباينت ما بين الرفض والتردد والرغبة في تأكيد الهوية واستعادتها واكتشاف الذات. وقد أطَّر الكاتب في الرواية لنظرية مفادها أن الدين الإسلامي هو الأداة الفعالة لتجاوز تشتت الهوية واستعادتها، فهو تذكرة الذات الباحثة عن هويتها للعودة إلى هذه الهوية المفقودة من خلال تحقيق التوزان النفسي. فلا يمكن للفرد أن يعيش دون تحقيق هويته وتأكيدها، ولا يمكن للذات أن تستعيد هويتها وتحققها إلا من خلال العودة إلى جذورها لفهم حقيقة هويتها، فهو السبيل الوحيد للقضاء على الاغتراب وشعور الضعف والعجز والتشتت واللانتماء.

ونجد هذا متوافقاً مع طرح فروم* الذي حدد مجموعة من الحاجات الأساسية التي يحتاجها الإنسان لتحقيق الشعور بالرضا والتوافق النفسي، "فوضع قائمة حاجات الوجود الإنساني وهي خمسة: الحاجة إلى الهوية، الحاجة إلى الانتماء، الحاجة إلى التعالي أو التجاوز، الحاجة إلى الارتباط بالجذور، والحاجة إلى إطار توجيهي... كما أكد أن الحاجة إلى الهوية تأتي على قائمة حاجات الوجود الإنساني، والتي نشأت عن ظروف وجوده وأصبحت جزءاً من طبيعة الإنسان"[1] ومن تحليل الرواية، نجد أن الكاتب قد أسس نصه السردي على هذه الحاجات، فقد عالجتها الرواية من خلال الشخوص المختلفة.

وقد تحولت فكرة البحث عن الهوية إلى شكل ملموس بالنسبة لشخصيات الرواية عند ذهابها إلى العمرة، ورغم أن الغاية منها كانت مختلفة، إلا أنها جعلتهم يعيدون الارتباط بجذورهم، ويعززون من ترابطهم الأسري الذي كان مفككاً، ويحققون وجودهم الذاتي، فممارسة الشعائر المرتبطة بالعمرة وفهمها بالإضافة للجو الروحاني لمكة لعب عاملاً نفسياً حيوياً في تثبيت الهوية بعد رحلة بحث مضنية.

انطلقت الشخصيات إلى مكة وهي تائهة ومشتتة، مُثقلة بالذنوب والندم، مشحونة بذكريات الماضي التي بقيت جرحاً لم يندمل... مريم تبحث عن شيء لا تعرفه، تبحث عن جذور تربطها بوطن لا تعرف ماهيته ولا تجد له أي آثار بداخلها. ميادة غير قادرة على نسيان ما عاشته في العراق من أهوال، وتلوم نفسها باستمرار على إهانة عائلة زوجها في لحظة انهيار بعدما وجدت جثة زوجها منزوعة العينين. حيدر ينغمس في اكتئابه ويؤنب

* **إريك فروم**: عالم نفسي وفيلسوف أوروبي-أمريكي وناقد اجتماعي، ولد سنة 1900 في ألمانيا، هاجر منها هرباً من الاضطهاد النازي إلى أمريكا عام 1932، واشتغل بالتدريس في الجامعات الأمريكية وممارسة العلاج النفسي، وفي سنواته الأخيرة انتقل إلى سويسرا حيث لم يتوقف عن الكتابة والنشاط الفكري إلى أن توفي هناك سنة 1979، يركز في كتبه وبحوثه على قضايا الإنسان أو نفسيته أو شخصيته، ويحاول أن يبين طريقاً آمناً لبقاء البشرية ونضج الشخصية الإنسانية. ينظر: إيريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، تر: سعد زهران، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص5-6.

[1] هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ص27

نفسه على انصهاره في حياة المجتمع الغربي المنفتح مما عاد سلباً على حياته النفسية وعلى ابنته. وسعد يبحث عن معنى لحياته بعد أن فقد الرغبة بالعيش، يعيش بشعوره بالفشل ويندم على الطريقة التي عاش بها حياته في الماضي.

كانت شخصية مريم أكثر من تعاني من الأزمة الهوياتية، وقد كانت طوال حياتها تبحث عنها ولم تجدها، لم تستطع إيقاف الصراع بين الأنا الشرقية والأخرى الغربية، وقد بدأت منذ لحظات استعدادها لرحلة العمرة تسعى للتقرب أكثر من هويتها الشرقية "قررت أن أقرأ عن المناسك والطقوس التي تؤدى خلال العمرة، أبحث عن معانيها وأهدافها، عن تاريخها، وماذا يريد الناس منها أن تحقق لهم"[1] فرغم أنها ذهبت للعمرة من أجل مشروع تخرجها، إلا أنها تعاملت معها أيضاً كفرصة لاستكشاف جذورها والتعرف على جزء من تكوينها لم تكن تعرفه.

وبعد كل ما مرت به مريم في رحلة العمرة هذه، بعد أن واجهت ماضيها ووجدت جزءاً منه كان مخفياً عميقاً في ذاكرتها، أدركت أنها لا تستطيع الهرب من هويتها، وأن ارتباطها بها سيبقى وثيقاً مهماً حاولت أن تُظهر عكس ذلك، ونجحت أخيراً في تثبيت هويتها الشرقية وفهمها، تقول مريم: "للمرة الأولى أفهم أن الإسلام ليس هوية معمارية أضيفها إلى تصاميمي كي أتميز بها عن زملائي، بل هو هذا السلام الداخلي الذي استشعرته للحظات ضوئية يمكنني أن أحملها بقية عمري. هذا الصلح داخل نفسي، مع نفسي، الذي شعرت به بعدما عشت عمري في فصام مستمر"[2] وقد وصفت شعورها بعد هذه الرحلة قائلة: "لا أملك كلمات لأصف هذه الرحلة، كان من المفترض أن أعمل فيها على مشروع تخرجي، لكن ما حدث فيها كان أهم بكثير من أي شهادة جامعية، لقد تعرفت فيها أكثر على أهلي، على عمي وجدي، على جذوري، على من أكون، على مجسات استشعار روحانية في داخلي لم أكن أعرف بوجودها... لا شيء يمكن أن يصف هذه الرحلة.

منذ الآن، حياتي ستقسم إلى مريم قبل الكريسماس في مكة، ومريم بعد الكريسماس في مكة"[3]

انتهت في مكة رحلة مريم المضنية في البحث عن هويتها وانتمائها، فوجودها وسط بيئة قريبة من جذورها جعلها تعرف نفسها أخيراً "كنت أبكي لأني أتعرف على نفسي من جديد. أرى نفسي من جديد لأول مرة. كانت أربعة أيام لم تُعرِّفني على أهل أبي فقط، بل على جزء آخر من نفسي لم أكن أعرفه، على مشاعر داخلي لم تكن لدي أدنى فكرة عن وجودها، ربما كنت أبكي فرحاً لأنني وجدت نفسي.

كنت في دوامة مشاعر مضطرمة، لكني كنت واثقة من شيء واحد: لديَّ الكثير مما أستحق أن أتمسك به، الكثير مما يمكن أن يمنحني القوة"[4].

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص71.

[2] المصدر نفسه، ص317.

[3] المصدر نفسه، ص332.

[4] المصدر نفسه، ص316.

الوجود في مكة عرف مريم على ذاتها ومكونات شخصيتها الفريدة، وجعلها تقتنع أنها لا تستطيع الهرب من هويتها. وتتضح هنا أهمية البيئة للفرد، فمريم لم تبتعد عن هويتها إلا بسبب عيشها في المجتمع الغربي الذي يحمل كل مقومات طمس الهوية العربية والإسلامية. وقد تحدث محمد حسين فضل الله في كتابه "الهجرة والاغتراب" عن هذه المشكلة التي تواجه المسلمين المغتربين خصوصاً الشباب منهم الذين كبروا على القيم الغربية وضاعوا فيها، وأكد على ضرورة توفير بيئة ملائمة لهم لحمايتهم وإعادتهم لجذورهم وهويتهم، "هؤلاء الضائعون يحتاجون إلى تهيئة المناخ الطبيعي سواءً كان ثقافياً أو روحياً أو اجتماعياً من أجل أن ندلّه على نفسه ونرجع به إلى ما كان يعتبر من الثابت عنده لتهيئة المناخات الدينية والاجتماعية والسياسية والروحية التي يمكن أن تملأ نفسه سواءً بواسطة الحوار أو بالأجواء النظيفة التي يتنفسها، أو إثارة السلبيات في الواقع الذي يعيشه وقد راح يسقط تحت تأثيره"[1]. فمريم باعتبارها شابة تمثل الجيل الثاني من المهاجرين هي أحوج ما يكون لهذا، وقد تفطّنت أمها ميادة لذلك، فنظَّمت لقاءها مع عائلة زوجها في العمرة كمحاولة لإعادة ربط مريم بجذورها في مكان مشحون بالدلالات الدينية والروحية.

البيئة الغربية التي أثَّرت سلباً على مريم، فعلت نفس الشيء لحيدر، فذوبانه في المجتمع الغربي أدى إلى إنكار هويته الشرقية تماماً، وهذا تسبب له في اضطرابات نفسية كثيرة جعلته يعود للبحث عن الأنا الشرقي الذي دفنه. وقد بدأ يشعر بضرورة ذلك عندما واجه صدمة حمل ابنته، عرف حينها أن إنكار هويته الشرقية لم تجلب له سوى المصائب، وتأكد من ذلك عندما كان يتابع مع طبيبته النفسية "فاي" وكان ينزعج منها بدلاً من أن يشعر بالراحة ويتحدث بصراحة عما يختلج صدره وعن مشاكله النفسية، كان يرى أنها لا تفهمه بتاتاً لاسيما بسبب اختلاف الثقافة فبعض الأمور التي تبدو عادية لمن تربى في مجتمع عربي، كانت تبدو لها مرضاً نفسياً أو سبباً له. فمثلاً ضرب الأب لأولاده وهم صغار كجزء من التربية والتأديب، يبدو في المجتمع الغربي من أعمال العنف واضطهاد الأطفال، لذلك حاولت جعل مشكلة عدم تقرب حيدر من والده ترتبط بضربه له في صغره والذي لم يكن شيئاً يُذكر في الحقيقة. وفي المقابل، شعر براحة كبيرة عندما زار المسجد لأول مرة بعد ذهابه لبريطانيا، وقد كان حديثه مع الإمام أنجع بكثير من حديثه مع الطبيبة النفسية. وهذا دليل آخر أراد الروائي أن يدعم به رسالته بأن الدين هو طريق الراحة دائماً. يقول حيدر: "وقفت لأصلي، منذ دهور لم أفعل... صليت وذهبت إليه مجدداً.

قلت له: أنا ضائع يا مولانا.

تحدثت وتحدثت، عن كل شيء، لا، ليس كل شيء بالضبط، لكن تحدثت أكثر بكثير مما فعلت مع فاي. وكان يفهمني، كان ينتمي إلى نفس البيئة، كنت أرى في عضلات وجهه أنه يفهم ويشعر بما أقول"[2].

[1] محمد حسين فضل الله: الهجرة والاغتراب (تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة)، ص135.

[2] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص95.

وعن شعوره بالتحسن في مكة والتخلص من المشاعر السلبية، يتحدث حيدر قائلاً: "قررت أن أنزل إلى الحرم الآن وبينما المطر يهطل بشدة، أردت أن أغتسل بالمطر النازل على أرض الكعبة... كنت أريد من المطر أن يغمرني، أن يغسلني، أن يطهرني... كنت رافعاً يدي كما لو كنت أحتضن الماء النازل من عند الله... يا رب... سارة... لم أقل شيئاً في دعائي، فقط سارة يا رب، يعرف الله كل شيء... انسحبت وصليت تحت المطر... وعندما سجدت كان وجهي مغموراً بالماء على أرض الحرم، وكنت أشعر أن كل هذا يخفف من أثقالي وأدراني وذنوبي. في سجودي تحت المطر ذاك كنت أهمس له، أقول: يا رب"[1].

بعثت مكة في نفس حيدر طمأنينة أنقذته من الازدواجية والشتات الذي كان يعاني منه، وساعدته على الخروج من حالة الفصام النفسي التي أثقلت كاهله لسنوات "سجدت أمام النافذة تجاه الكعبة وتضرعت لله أن يساعدني أحسست أن ثمة من يقول لي في ذهني: وأنت؟ ألن تساعد نفسك؟ بلى. سأفعل. سأكون أقرب. سأحاول على الأقل"[2]

والشيء ذاته بالنسبة إلى ميادة، فقد كان لرحلة العمرة أثر نفسي كبير عليها في الشفاء من جراحها وتجاوز آلام الماضي التي كانت ترهقها لوقت طويل جداً. تتحدث ميادة عن شعورها بعد إكمالها مناسك العمرة، تقول:

"تحللت من إحرامي، قصصت شعرات من شعري تحت الحجاب.

بدا لي ذلك كما لو أني أزيح جزءاً من العبء الذي أحمله على ظهري منذ 22 شباط 2006.

لم أفكر أبداً أن العمرة يمكن لها أن تفعل ذلك.

في الحقيقة، لم أعتقد أن العبادات كلها يمكن أن تفعل ذلك"[3].

يرى فروم أن "الإنسان المعاصر بحاجة إلى قدر من الأمل كي يخرج من حالة ضياعه البشري ليتمكن من العودة إلى ذاته، كما أنه بحاجة إلى بعث الإيمان"[4] فهذه العائلة الصغيرة التي ناضلت شتاتها لفترة طويلة دون منارة تهتدي إليها، وجدت أخيراً الأمل والقوة للاستمرار في الحياة رغم كل التحديات، ووصلت في نهاية المطاف إلى مرحلة التصالح مع ذاتها وتحقيق هويتها، فتحقيق الفرد لهويته مطلب أساس لعيش حياة سوية والتقدم للأمام.

6- إيديولوجية الرواية

حملت رواية كريسماس في مكة إيديولوجية –أو إيديولوجيات– واضحة وصريحة، وأساسها هو أن الدين هو طريق التعافي ولا حل غيره، والعودة إليه هو سبيل الراحة والطمأنينة والتصالح مع النفس والمجتمع فبه تنحسر

[1] أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ص282.

[2] المصدر نفسه، ص284.

[3] المصدر نفسه، ص166.

[4] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص105-106.

الأزمات وتنتظم السبل. أما الابتعاد عن الدين فيولّد المآسي وهو منبع كل الآلام والمعاناة التي يجابهها الإنسان في حياته. فقد واجهت الشخصيات شتى أنواع الآلام والاضطرابات والأزمات عندما حادت عن الدين... مريم أصيبت بفصام بسبب ازدواجية هويتها وجهلها بالإسلام. ميادة غضبت على الله واعترضت قضاءه وقدره وعاشت حياتها كلها تتخبط في صراعات نفسية داخلية. حيدر انغمس في الحياة الغربية المنفتحة وأدمن الخمر مما تسبب له بالاكتئاب وجعله شخص عدواني نتج عنه هوة عميقة بينه وبين أسرته. سعد لم يعد يعرف الله بل وصل لحد التطاول والتعالي عليه وفي النهاية تجردت روحه من الحياة... وكل هذه الأزمات لم تحل إلا بعد العودة إلى الله... فقد أراد الكاتب ترسيخ فكرة أن الدين هو الحل، هو الحقيقة التي تقودنا لمعرفة ذاتنا، هو النور في آخر النفق الذي يجده من ضل لوقت طويل. وأن الدين يستطيع معالجة ما لا يستطيع علاجه الأطباء النفسيين والأدوية والانغماس في الملذات والشهوات والركض وراء تحقيق النجاح.

ومن ضمن رسائل الرواية أيضاً أنه ليس بالضرورة أن يكون هناك تصادم وصراع بالنسبة للجيل الذي نشأ في الغرب، فلا بأس بالمزاوجة بين الثقافة الغربية والعربية، ولابد من إيجاد طريقة للصلح بين موروثه ووطنه الجديد. فقد أصبح هذا وطنهم ولا تستقيم حياتهم إلا بتقبل هذا المجتمع الجديد مع الحفاظ على هويتهم الشرقية، فيجب أن يجدوا منطقة وسط بين رفض هذا المجتمع والانصهار فيه، ويكون ذلك بمحاولة التعايش والاندماج في حدود بيّنة، وتقبل ازدواجية الهوية دون الإصابة بالفصام والانفصال بدمجهما وعقد الصلح بينهما.

كما ركَّز الكاتب على أهمية الأسرة في تجاوز هذه الأزمات، وفي تكوين إنسان سوي ومستقر نفسياً وعاطفياً، وذلك من خلال التنشئة الصحيحة وتعزيز المحبة والتآلف بين أفراد الأسرة. حيث تبدو ثنائية الأسرة والدين طاغية جداً في الرواية من بدايتها إلى نهايتها.

وتظهر إيديولوجية أخرى واضحة وهي التعايش في ظل الاختلاف الديني والمذهبي وتقبل كل طرف للآخر دون إطلاق أحكام جاهزة وإعلان الرفض لمجرد الاختلاف. فالشخصيات المختلفة في انتماءاتها وعقائدها وآرائها ومصائبها قد توحدت في مكة تحت ظل الإسلام رغم كل التناقضات التي تجمعها، وفي تلك الأرض المقدسة تتلاشى الذنوب بالندم والاستغفار والتوبة والتوجه إلى الله.

هذه الإيديولوجية التي تعلن عن نفسها بوضوح بين سطور الرواية تنبع من إيديولوجية الكاتب؛ فأحمد خيري العُمري معروف بتأثره الكبير بفكر مالك بن نبي، بحيث تُصنف كتاباته ضمن فكر النهضة الذي كان مالك مؤسسه*. وقد صرّح بذلك كثيراً خلال مقابلاته الصحفية، وفي أحدها يقول: "كان فكر مالك يمثل تحويل

* **فكر النهضة**: أعطى مالك بن نبي في فكره النهضوي أهمية كبيرة لتجديد العقل الإسلامي والتفكير المستقل، واعتبر أن النهضة الإسلامية تحتاج إلى تجديد وتحديث في جميع المجالات، ودعا إلى الاستفادة من مبادئ وقيم الإسلام وتطبيقها بطريقة متجددة ومعاصرة. وأكد على ضرورة التوازن بين الإسلام والحداثة، مؤكدًا أنه لا يجب أن يكون هناك تناقض بين القيم الإسلامية والتقدم العلمي التكنولوجي. بالإضافة إلى ذلك، اهتم مالك بن نبي بترسيخ الهوية الثقافية واللغوية للشعوب العربية والإسلامية، وشدد على ضرورة حماية الثقافة الوطنية والتحرر من الهيمنة الثقافية الأجنبية.

مسار، كما لو أني اكتشفت أن هناك فكراً مختلفاً، فكنت في السابعة عشر عندما تعرفت على شروط النهضة، وقد حدد هذا الشيء بوصلتي وقررت أن أمشي في هذا الطريق... كنت من البداية أعتقد أن فكر مالك قمة عملاقة نحتاجها جميعاً لكن ينقصه الأسلوب الأدبي الذي يوصله إلى فئات أوسع من الناس، لأن أسلوبه صعب بعض الشيء، فكان هدفي الجمع بين فكر مالك ولغة بسيطة وجذابة تصل إلى الناس"[1]

والكاتب أحمد خيري العمري معروف بأفكاره الدعوية وبثه لها في إنتاجاته الأدبية المختلفة من كتب وروايات ومقالات... وحتى غير الأدبية كالبرامج الدينية واستغلال وسائل التواصل الاجتماعي للوصول إلى الشباب ووعظهم.

[1] زكرياء الجزائري: مقابلة مع الكاتب أحمد خيري العمري، قناة الأنيس الفضائية، الجزائر، 9 نوفمبر 2019.

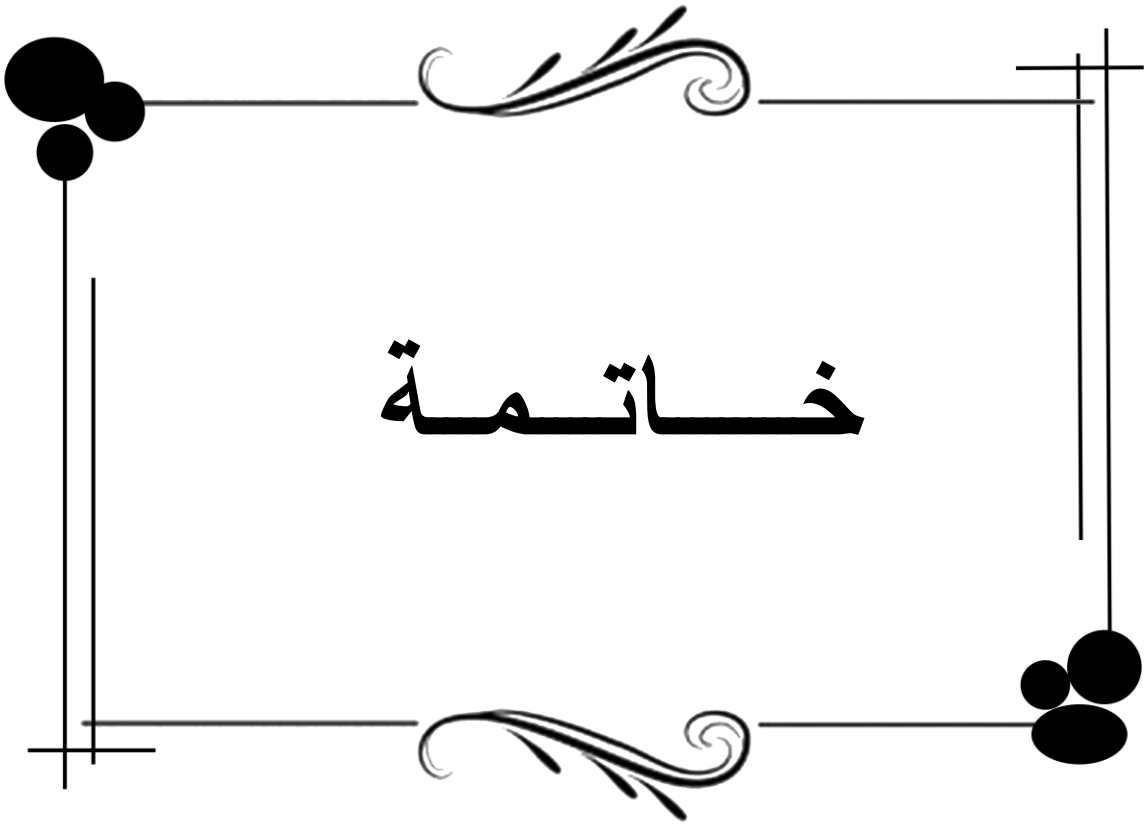

خـــاتـــمـة

خاتمة:

قبل طي آخر صفحات هذا البحث المتواضع، سنقوم باستعراض نتائج تمثل ثمرة الجهد الذي بذلناه في سبيل إخراج البحث على أحسن صورة، والذي لم يكن ليتم لولا عون الله وتوفيقه، وأهم النتائج التي وصلنا إليها بعد الدراسة والتحليل والخوض في موضوع الاغتراب وأزمة الهوية كالتالي:

– تناولت الرواية الاغتراب من خلال أشكال عدّة تمثلت في: الاغتراب النفسي، الاجتماعي، الثقافي، الأسري، والاغتراب اللغوي. وقد وصلنا بعد الدراسة والتحليل أن هذه الأنواع من الاغتراب تم صوغها وفقاً للنظريات المتناولة في الكتابات والدراسات المختلفة الخاصة بالاغتراب.

– حاولت رواية كريسماس الاقتراب من واقع المهاجرين العرب في البلدان الغربية، وعيشهم الدائم وسط مجتمع ينبذهم مهما حاولوا التواؤم معه، وصراعهم اللامتناهي في البحث عن هويتهم المفقودة والتوفيق بين كل التناقضات التي يحملونها، وكفاحهم الضاري لتجاوز آثار الماضي والقبول بمآلهم الحالي والتعايش مع ألم الحنين لوطنهم.

– كشفت الرواية عن الاضطرابات والمعاناة التي يشعر بها المغتربين، وحالة الاغتراب التي يعيشونها التي تأتي بالتزامن مع أزمة هوية، مما يؤثر على ممارسة حياتهم اليومية بشكل طبيعي وعلى سلوكاتهم وحالتهم النفسية.

– عندما يكون الفرد بين هويتين، تتولّد بداخله صراعات وتمزقات تنمو وتتسع مع كل صدام وتناقض بين الهويتين، ورغم أنه يدرك ويعي تماماً وجود هذا الصراع، إلا أنه يواجه صعوبة في الوصول لحالة توازن بينهما والتعايش مع حالة التمزق التي تصيبه، مما يسبب له اختلالات واضطرابات نفسية حادة وحالات من الفصام.

– لأن رواية كريسماس في مكة رواية شخصيات، فهي تعتمد على عدة شخصيات رئيسية وتقترب من مكنوناتها بإعطاء كل شخصية حيزاً للتعبير عن نفسها من خلال جعلها السارد لأحداث الرواية، فقد استخرجنا مظاهر الاغتراب والأزمة الهوياتية من خلال دراسة وتحليل الأحداث التي عاشتها ومواقفها وأقوالها من تصريحات معلنة وأخرى مضمرة، ساعدتنا في الكشف عن صراعاتها وأزماتها مع ذاتها ومع الآخرين.

– تم التعبير عن أنواع الاغتراب المختلفة وأزمات الهوية المتعددة من خلال المؤشرات والمظاهر التالية: العزلة، الانفصال عن الذات، الانسحاب من المجتمع وفقدان الروابط الاجتماعية، الشعور باللامعنى، احتقار الذات، الاكتئاب، العصبية، الابتعاد عن الدين، مخالفة قيم المجتمع.

– نجح الكاتب في تسليط الضوء على عيوب ومساوئ ومؤثرات المجتمع الغربي السلبية وذلك عبر توظيف ظاهرتيّ الاغتراب وأزمة الهوية، والتأكيد على أن المجتمع الغربي عبارة عن بيئة تنمو فيها المتناقضات وتتقوى فيها المشاعر السلبية والأمراض النفسية والعلل الاجتماعية.

– اشتغلت الرواية بكثرة وبتكثيف على الجانب الديني، وتمكن الكاتب من بث إيديولوجيتة في المتن الروائي عن طريق الشخوص المختلفة والمتناقضة في انتماءاتها وآرائها وسلوكاتها. وأوصل من خلالها رسالة واضحة وصريحة وهي أن الدين هو طريق التعافي ولا حل غيره، والعودة إليه هو سبيل الراحة والطمأنينة والتصالح مع النفس والمجتمع، فبه تنحسر الأزمات وتنتظم السبل. أما الابتعاد عن الدين فيولّد المآسي وهو منبع كل الآلام والمعاناة التي يجابهها الإنسان في حياته.

– استطاعت الرواية أن تجيب عن أسئلة كثيرة عالقة في ذهن العديد من الأفراد من بينها سؤال الهوية والانتماء، والرواية تندرج تحت هذين العنصرين، فقد عالج الكاتب هذا الموضوع من خلال الشخصية المركزية مريم التي كانت طوال حياتها تتساءل عن هويتها التي أصبحت تعاني التشظي والازدواجية ما بين هويتها الأصلية الشرقية وهويتها الجديدة الغربية.

– أثبتت الرواية وجود أزمة في الهوية تأتي متلازمة مع حالة الاغتراب التي تمر بها الشخصيات، وتنعكس آثار هذه الأزمة على جانبين: جانب داخلي يتعلق بعلاقة الذات مع نفسها، وجانب خارجي بعلاقتها مع الآخر. تمثل الجانب الداخلي في الأزمات النفسية والاضطرابات السلوكية والأمراض المختلفة مثل التوتر والقلق والاكتئاب والفصام. أما الجانب الخارجي فتمثل في التفكك الأسري وضعف الروابط الاجتماعية... إلخ.

– قدم الكاتب حلولاً لتجاوز حالة الاغتراب وتحقيق الهوية، وهي تختلف باختلاف نوع الاغتراب ومستوى الأزمة، لكنها لابد أن تمر بمرحلتين أساسيتين، فالمرحلة الأولى هي كما تتفق جل الدراسات من أن السبيل لمواجهة الاغتراب وأزمة الهوية هو الوعي بوجودهما، وهذا يتناسب مع ما قدمه الكاتب في الرواية، فشخصيات الرواية لم تبدأ رحلة البحث عن الهوية والتصالح مع الذات وتجاوز الاغتراب إلا بعدما أدركت بوجود هذه الأزمات بداخلها واقتنعت بضرورة الخروج من حالتها المتأزمة. وإذا كانت هذه هي الخطوة الأولى، فالخطوة الثانية التي أقرها الكاتب هي التمسك بالدين عن طريق التوبة والعودة إلى الله.

– وأخيراً ما يمكننا قوله عن علاقة الاغتراب بأزمة الهوية أنهما ظاهرتين مرتبطتين لا يمكن فصلهما عن بعضهما، فكل منهما يلعب دور السبب والنتيجة، يمكن أن نجد الاغتراب سبباً لحدوث أزمة هوية، كما يمكن أن تكون أزمة الهوية سبباً في النحو للاغتراب. وهذا ما أبرزته رواية كريسماس في مكة. وكلاً من الاغتراب وأزمة الهوية مشكلتين سببهما الواقع الاجتماعي والبيئة التي تعيش فيها الشخصيات وتتفاعل معها، لاسيما عند تعرضها للإقصاء والتهميش.

مـــــلاحـق

ملحق 1: التعريف بالروائي (أحمد خيري العمري):

"أحمد خيري العُمَري كاتب وطبيب أسنان عراقي من مواليد بغداد في عام 1970، ينتمي إلى الأسرة العُمَرِية في الموصل التي يعود نسبها إلى الخليفة عمر بن الخطاب، والده مؤرخ وقاضٍ عراقي معروف هو خيري العُمَري.

بعد أن أتم أحمد خيري العُمَري تعليمه المدرسي، التحق بجامعة بغداد ودرس الطب وتخصص في قسم الأسنان، وتخرج عام 1993.

لكنه عرف ككاتب إسلامي عبر مؤلفات جمعت بين منحى تجديدي في طرح الموضوعات والأسلوب الأدبي، زواج بين الكتابة والفكر والفلسفة والدين. وصلت خطاباته إلى فئة واسعة جداً بسبب لغته المميزة وبيانه الواضح، إضافة إلى أن اعتماده على التأصيل القرآني جعل من أفكاره أكثر قبولاً. ويُعد الدكتور أحمد خيري العُمَري أحد أقرب الكتاب للشباب بأفكاره وأسلوبه في الكتابة؛ فهو يعرض الأفكار الكبرى بطريقة بسيطة تناسب الجميع. وعلى الرغم من تخرجه من كلية طب الأسنان إلا أنه عُرف منذ أول ظهوره على أنه كاتب إسلامي شاب"[1].

"من خلال اتخاذ القرآن كركيزة يبني عليها كلماته ومعتقداته، يعتمد العُمَري على تمحيص اللفظ القرآني، واشتقاق دلائله ومعانيه، ثم إيصال الفكرة بأسلوب جذاب، وأكثر ما يُميز أسلوبه هو العقلانية، هو يرى أن العقل والدين لا يتعارضان، بل يؤدي كل منهم للآخر ويرتبطان في تناغم كزواجٍ لا مفر منه ولا طلاق فيه.

شقّ العُمَري طريقاً يصل من خلاله إلى الشباب العربي غير القارئ، حتى لا تظل كلماته حكراً على فئة معينة من الناس، وحتى لا تكون حبيسة الورق؛ فأنشأ قناته باليوتيوب، يبث من خلالها أفكاره في مدة لا تتعدى الربع ساعة، أمثال: لا نأسف على الإزعاج، سبع دقائق لتغيير العالم، البساط أحمدي، -Anti- إلحاد".[2]

"من أكثر الأشياء التي جعلت من الدكتور أحمد خيري العُمَري شخص مشهور ولديه قاعدة متكاملة من الجمهور، برنامجه التلفزيوني "لا نأسف على الازعاج" هذا البرنامج تم تقديمه عام 2015 في شهر رمضان المبارك، كان يتم بثه يومياً طوال شهر رمضان على القنوات الفضائية كمثل قناة الشارقة وقناة اقرأ"[3].

[1] تسنيم الخمايسة: تعرف على الكاتب أحمد خيري العمري، www.methaal.com، اطلع عليه يوم: 20 أفريل 2023، على الساعة: 00:20.

[2] مروى محمد: أحمد خيري العمري وتجديد الفكر الإسلامي، sasapost.co، اطلع عليه يوم: 20 أفريل 2023، على الساعة: 00:54.

[3] هدير محمد: من هو الدكتور أحمد خيري العمري، www.almrsal.com، اطلع عليه يوم: 20 أفريل 2023، على الساعة 01:15.

أعماله:

العُمري معروف بغزارة الإنتاج وتنوعه، فقد تنوعت كتاباته بين البحث العلمي والرواية والرسالة الأدبية، بالإضافة إلى عشرات المقالات التي ينشرها في صحيفتي "العرب القطرية"، و"القدس العربي" في لندن. ومن أعماله:

1- البوصلة القرآنية: سنة 2003.
2- ليلة سقوط بغداد: سنة 2004.
3- سلسلة ضوء في المجرة: سنة 2005، تضم ستة عناوين هي: الذين لم يولدوا بعد، أدرينالين، (يوم، شهر، سنة)، تسعة من عشرة، كش ملك، غريب في المجرة.
4- الفردوس المستعار والفردوس المستعاد: سنة 2005.
5- أبي اسمه إبراهيم: سنة 2006.
6- سلسلة كيمياء الصلاة: سنة 2008، تضم خمسة عناوين هي: المهمة غير المستحيلة، ملكوت الواقع، عالم جديد ممكن، فيزياء المعاني، سدرة المنتهى.
7- ألواح ودسر: سنة 2009.
8- استرداد عمر: سنة 2013.
9- سيرة خليفة قادم: سنة 2013.
10- طوفان محمد: سنة 2014.
11- حجاب أروى: سنة 2014.
12- القرآن لفجر آخر: سنة 2015.
13- لا نأسف على الإزعاج: سنة .2015
14- شيفرة بلال: سنة 2016.
15- السيرة مستمرة: سنة 2018.
16- ليطمئن عقلي: سنة 2019.[1]
17- كريسماس في مكة: سنة 2019.
18- القرآن نسخة شخصية: سنة 2020.
19- بيت خالتي: سنة 2020.
20- الخطة السرية لإنقاذ البشرية: 2021.

[1] تسنيم الخمايسة: تعرف على الكاتب أحمد خيري العمري، اطلع عليه يوم: 20 أفريل 2023، على الساعة: 01:29.

ملحق 2: غلاف الرواية بطبعتيه

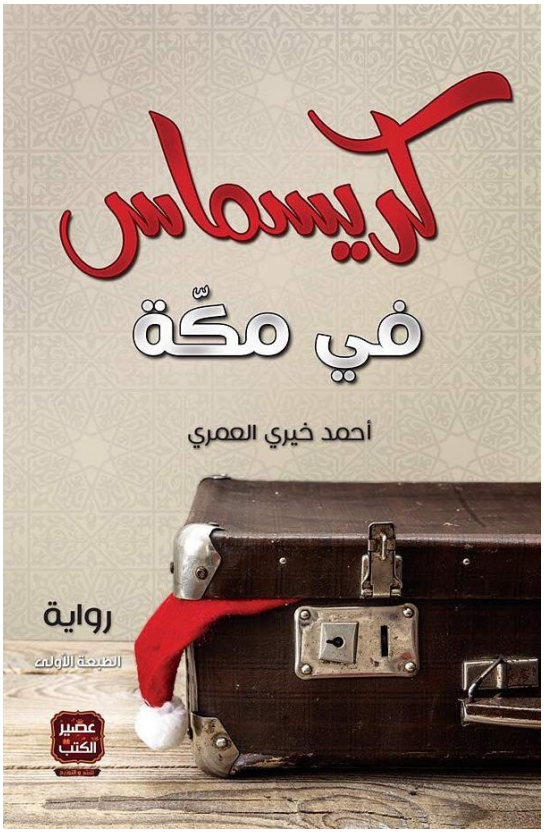

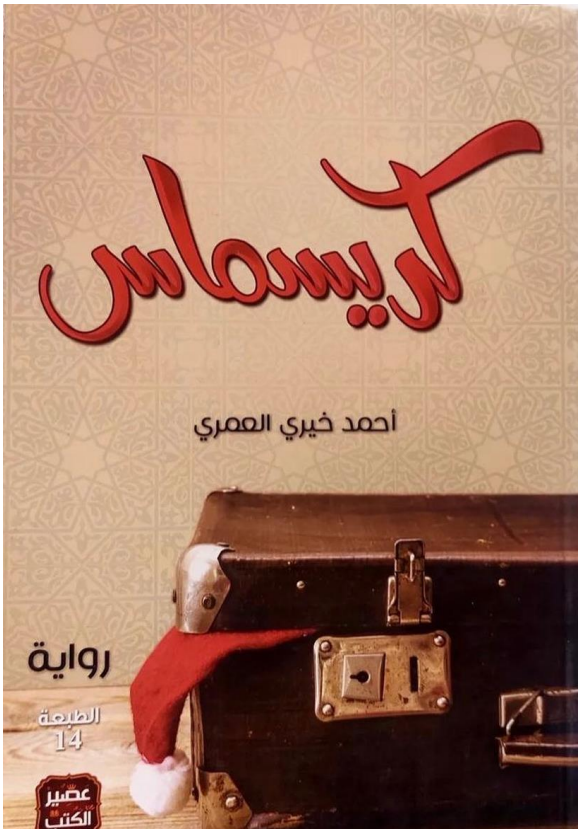

ملحق 3: تقديم رواية كريسماس في مكة:

1- نبذة عن الرواية:

تعتبر رواية كريسماس في مكة من بين أشهر الأعمال الروائية لأحمد خيري العُمري، وهي صادرة عن دار عصير الكتب المصرية سنة 2019، وصدرت بنسختين؛ واحدة بعنوان "كريسماس في مكة" والأخرى بعنوان "كريسماس" وذلك خشية أن تُمنع في بعض الدول العربية لما يحمله العنوان من جمع بين نقيضين يمكن أن يعتبره البعض مساساً بقدسية مكة. إلا أن من يقرأ الرواية يجد أن هذا الخوف ليس مبرراً، فالرواية تحمل رسالة واضحة ومباشرة تدعو للعودة إلى الله، وليس العكس.

تضم الرواية قصتان متوازيتان، ينتقل الكاتب بينهما جيئة وذهاباً؛ القصة الأولى هي القصة الرئيسية والتي تشغل أكبر حيز من الرواية، وتدور أحداثها في الزمن الحالي تنتقل من بغداد إلى إنجلترا ثم إلى مكة، وتروي معاناة عائلتين عراقيتين انفصلتا بسبب الدمار الذي لحق العراق جراء الاحتلال الأمريكي لها سنة 2003 والحرب الطائفية بين السنة والشيعة التي قتلت الكثير من الطائفتين. والقصة الثانية هي قصة ثانوية وتشغل حيزاً صغيراً فقط من الرواية (40 صفحة من أصل 337 صفحة، متوزعة على ثمانية فصول)، وهي تندرج ضمن المتخيل التاريخي؛ حيث تروي أحداث هجوم التتار* على بغداد عام 656 هجرية/ 1258 ميلادية، فتدور أحداثها في الشام ومصر والحجاز، وتتحدث عن سقوط آخر الخلفاء العباسيين. كان أحمد المستنصر بالله عم الخليفة المستعصم مسجوناً تحت الأرض منذ 10 سنوات لأن الخليفة كان يخشى من انقلابه ضده، وعند الهجوم على بغداد، أخرجه أحد معاونيه من السجن، وهربا من بغداد التي تحولت لمكبّ جثث ومعقل ينتشر فيه الوباء، لجآ إلى مصر حيث تلقى الدعم ليكون الخليفة ويعود لتحرير بغداد، لكنه قُتل على يد التتار في الطريق قبل حتى أن يصل ليحاول.

عرض لنا الكاتب مجموعة الصراعات التي عاشتها الشخصيات، ابتداءً من الصراع العقائدي بين السنة والشيعة، ثم التخبط في صراع آخر عنوانه الهوية بعد أن اضطرت العديد من العائلات الهرب من ويلات الحرب ليحتضنها مجتمع غربي طمست فيه الهوية العربية والإسلامية، فعائلة ميادة التي غادرت بحثاً عن بيئة آمنة للعيش، وجدت نفسها تواجه كفاحاً آخر في تربية الأبناء في ظل هذا المجتمع المنحلّ أخلاقياً، إضافة إلى الصراع الداخلي الذي يواجهونه بين محاولة الحفاظ على هوية عربية مسلمة أو العيش بهوية غربية تناقض كل ما يدعوا له الإسلام، والبحث عن التقبل وسط هذا المجتمع الذي يحتقر أي شخص من أصول شرقية.

* **التتار**: التتار هم شعب ينحدر من شعب القفجاق وقبيلة البلغار التركية الذين نزحوا من بلادهم إلى المجر وجزيرة القرم نتيجة الغزو المغولي، ثم تم دمج التتار في الجيش المغولي في القرن الثالث عشر.

2- ملخص الرواية:

هاجرت ميادة برفقة ابنتها مريم ذات السبع سنوات إلى بريطانيا سنة 2005 هرباً من المجازر التي كانت تُرتكب في العراق بين السنة والشيعة، وهي مجازر كانت قائمة على الهوية الطائفية، فقد قُتل أخوها الشيعي من طرف السنة، ثم قُتل زوجها السني من طرف الشيعة. تمكنت ميادة من الهجرة بسهولة بما أن أخوها "حيدر" كان مقيماً في بريطانيا بالفعل، فقد استقر فيها ويعمل طبيب استشاري في جراحة العمود الفقري، بينما كانت أمها في السويد رفقة زوجة أخيها الراحل "ميثم"، وتركت شقيق زوجها "سعد" ووالده "أحمد" في العراق. هكذا تشتتت العائلتين وانقطع التواصل بين ميادة وعائلة زوجها الراحل، وعاشت ابنتها مريم وهي لا تعرف شيئاً عن عمها وجدها.

بعد اثنتيّ عشرة سنة، أصبحت مريم طالبة جامعية متخصصة في الهندسة المعمارية، وهي تُمثّل الغالبية من شباب المهجر الذين انصهروا في المجتمع الغربي وانجرفوا عن الدين الإسلامي والتقاليد العربية، حتى أنها تنتقدها وتسخر منها في بعض الأحيان. لكنها استغلت أصولها الشرقية المسلمة لتضفي طابعاً مميزاً وفريداً من نوعه على تصميماتها، فيكون مشروع تخرجها بعنوان "تصور بديل لهندسة الحرم المكي" ولإنجازه يجب أن تذهب إلى مكة لتشاهد المكان عياناً فلا يمكن للبحث أن يتم عن بعد. تغتنم والدتها الفرصة لإعادة لمّ شمل مريم مع عائلة أبيها، لذلك تتواصل مع سعد، وتدعوه هو ووالده ليلتحقا بهما في مكة حتى يلتقيا بمريم لأول مرة بعدما غادرت هي وميادة. ورغم أن مريم كانت تعارض في البداية فكرة مقابلة عائلة والدها التي لا تعرف عنهم شيئاً، إلا أنها قبلت في النهاية على مضض بعد نقاش حاد مع والدتها، ولأنها بحاجة ماسة إلى تلك الرحلة من أجل مشروع تخرجها، كما أنها كانت متحمسة بعض الشيء لرؤية جانب من ماضيها كانت قد نسيته. تنضّم ميادة رحلة عمرة –كون تأشيرة العمرة أسهل وأسرع في الحصول عليها- ونظراً لأنها بحاجة لـ مَحْرَم، طلبت من أخيها حيدر أن يرافقهما. وتقرر ميادة جدولة رحلتهم بالتزامن مع إجازة مريم وحيدر في الكريسماس.

قبل حيدر مرافقتهما، ليس لأنه يرى في هذه الرحلة ارتباطاً له بدينه أو بأصوله أو لأنه أراد تأدية مناسك العمرة أو مساعدة أخته، فهو قد ابتعد عن الدين الإسلامي تماماً وذاب في المجتمع البريطاني حتى أصبح نسخة عن الأوروبي الأبيض بامتياز، يشرب الخمر وينتقد تعاليم الإسلام، ويحتقر الإنسان الشرقي... تزوج امرأة انجليزية وأنجب سارة التي كبرت في حضن المجتمع الغربي بتحرره وانفتاحه، إلى أن حدثت المصيبة وعرف أن ابنته حامل من صديقها، لكن صُدم أكثر لأن صديقها أسود البشرة، ولأنه كان يخاف على سمعته بين الجالية العراقية هناك وليس حرصاً منه على الدين وخوفاً من الوقوع في المحظور، تمردت ابنته عليه ورفضت مطالب والدها بأن تجعل صديقها يُسلم ويتزوجا، فقد قررت تربية الطفل معه دون زواج، وما زاد الطين بلّة هو أن أمها تدعمها ولم تعارضها في شيء. لذلك اختار الهرب إلى مكة بدلاً من مواجهة عائلته.

أما سعد فقد كان أكثر من سعيد لفكرة مقابلة مريم ابنة أخيه العزيز بعد كل هذه السنوات، ورغم أن والده شيخ طاعن في السن وحالته الصحية لم تكن جيدة بسبب إصابته بـ ألزهايمر، إلا أنه اختار المخاطرة في سبيل اللقاء بمريم. كان سعد قد بقي في العراق رغم خطورة العيش هناك، ولم يبق في عائلته سواه هو ووالده؛ مات شقيقه عمر، ثم بعد فترة ماتت أمه، وبعدها بفترة تطلق من زوجته بعد زواج دام لأكثر من 10 سنين لأن سعد عاقر ولم تفلح كل محاولاته بالعلاج. كانت مجموعة الصدمات التي تلقاها في حياته سبباً في انكساره وتحوله من شخص عدواني ومتسلط وانتقاديّ ومعتدّ بنفسه، إلى شخص لطيف وحنون وسهل التعامل، همّه الوحيد هو الاعتناء بوالده.

تبدأ كلا العائلتين في التحضير إلى السفر، وخلال ذلك الوقت، تقرر ميادة أن تبدأ أخيراً بإخبار مريم القليل عن عائلة أبيها التي لم تحدثها عنها طوال حياتها، تخبرها أنها هي الملامة في قطع صلتها بهم، وأنهم حاولوا التواصل معها لكن ميادة رفضت، وأنها لم تنهي علاقتها بهم قبل مغادرتها العراق بشكل جيد. طوال هذا الوقت كانت مريم تعتقد أن عائلة والدها تكرهها لذلك قطعوا صلتهم بها، وأنهم لا يهتمون لأمرها، لكن بعد سماعها لذلك، بدأت تتطلع للقاء بهما، خصوصاً بعدما عرفت أن عمها سعد معماريّ مثلها، لذلك أحست برابطة من نوع ما بينهما.

تصل ميادة وابنتها وشقيقها إلى مكة، وهناك يقابلون سعد بانتظارهم في المطار وقد وصل إلى مكة قبلهم بيوم، وما فاجأ ميادة أن شخصية سعد تغيرت وأصبح أكثر ليناً من قبل، كما تفاجأت بتقربه بسرعة مع مريم لاسيما أثناء حديثهما عن العمارة. أخذهما سعد إلى الفندق الذي حجزه لأجلهم حيث قابلوا الجد ثم ذهبوا لأداء مناسك العمرة. كان الجميع مشدوهاً بالمكان، وخصوصاً برؤية الكعبة، وشعروا بقرب روحي أثناء تأدية مناسك العمرة.

بدأت مريم تتقرب أكثر من جدها وعمها وتوطّد علاقتها بهما، ووجدت أن سعد كان على عكس ما توقعته تماماً، كان شخصاً لطيفاً ومسلياً، كما أنه يشاركها الكثير من الأفكار كمعماريّ، وقد أحبت لمّ شملها مع عائلة والدها بعدما كانت تظن أن اللقاء سيكون مضيعة لوقتها الذي أرادت قضاءه في دراسة تصميم الحرم. واكتشفت في خضم ذلك أن هناك بعض الذكريات الدفينة في أعماقها عندما كانت صغيرة بالعراق، وجدت في سعد الأب الذي فقدته دون أن تعرفه، كما بدت لها جوانب روحية ونفسية لم تكن تعلم بوجودها، وذلك بسبب تأثرها بمكة —وليس بعمارتها وحسب– بل بجوّها الروحاني والطمأنينة التي فيها، رغم أنها لم تشعر يوماً بالروحانية بالمعنى القريب من الدين، كما شعرت بعواطف جياشة تجاه عائلة والدها وهي التي لم تكن تشعر بأي عواطف تجاه العائلة حتى مع عائلة أمها. حتى أنها لم تعد تهتم بمشروع تخرجها بقدر الاهتمام بالارتباط أكثر مع عائلتها والعودة لأصولها.

كان التفاعل مع أجواء مكة دواءً لكل عللهم النفسية، فكل منهم عاش خلال تلك الأيام في عالمه الداخلي واستعاد الذكريات التي دفنها طويلاً، فقد بدأت تطفو على السطح مع روحانية الكعبة واللقاء بأشخاص من

الماضي ذكروه بما كان عليه خلال أسوء فترات حياته... ميادة استطاعت مواجهة ماضيها وذكرياتها المؤلمة وتجاوزتها رويداً رويداً، فما عاشته في العراق وقت الحرب والرعب الذي شهدته بقي ندبة عميقة في قلبها، بداية مقتل أخيها، ثم موت أبيها، ثم إن أصعب أيام مرت عليها كانت قبل مقتل زوجها وبعده، فقد تعرض زوجها للاختطاف في البداية وبحثوا عنه كل يوم، حتى أنهم قدموا للخاطفين فدية لكنهم قتلوه مع ذلك بعد التعذيب ومثّلوا بجثته، عندما وجدوا جثته بعد أيام كان وجهه مشوهاً بالكامل وقد اقتلعوا عينيه، وصدره مليئاً بالثقوب. وجدت ميادة الراحة الآن في الصلاة والدعاء لعمر ولشقيقها ميثم، كما تصالحت مع سعد واعتذرت منه بسبب ما بدر منها في الماضي والأخطاء التي اقترفتها في حقه هو وعائلته. وأصبحت الآن قادرة على أن تولي تركيزها التام لابنتها وتخطط لبناء حياتها بطريقة سليمة كي لا تتأثر بالسموم التي ينفثها الغرب فيها.

حيدر هو الآخر وجد في الدعاء راحة له، واستيقظ أخيراً من غفلته وندم على انجرافه وراء الحياة الغربية وإعطاء ابنته كل تلك الحرية وعلى الطريقة التي رباها بها لأنه لم يغرس فيها قيم الإسلام. خصوصاً بعد أن تلقى مكالمة من زوجته تخبره فيها أن ابنته أنجبت، فانهار تماماً لأنه لام نفسه على عدم تربيتها كما ينبغي، كانت تلك الصدمة دافعاً قوياً له ليعود إلى الله، وقد وجد في ذلك بعض العزاء. كما ساعدته ميادة على الخروج من محنته، وجعلته يدرك أن هذه النتيجة كانت متوقعة بما أنه هو الآخر قطع صلته بماضيه وهويته ودينه وكل شيء، وأن ما حدث قد حدث، والآن ليس بيده شيء سوى أن يحاول إصلاح علاقته بابنته ويستميلها إليه كي يقنعها على الأقل بالزواج من صديقها ومحاولة إدخاله في الإسلام، كان ذلك هو الحل الوحيد الذي وجده أمامه بدلاً من أن يخسر ابنته وتضيع أكثر.

بعد قضاء أيام في مكة، قرروا الذهاب إلى المدينة، وفي الطريق إلى هناك يموت والد سعد. كان لوفاته أثر كبير على الجميع، رغم أنه شيخ طاعن في السن ومريض وأنهم يعلمون أن وقته بينهم معدود، إلا أن توقيت وفاته المفاجئ كان صدمة للجميع وأثر نفسياً في الكل، وكأن ذلك فجر كل الأحزان والمكبوتات بداخلهم؛ شعرت مريم بالحزن لأنها فقدت جدها الذي عرفته للتو وأحبته ووجدت فيه رائحة والدها وحنانه، لاسيما وأنها كانت نائمة على كتفه في السيارة واستيقظت لتجده ميتاً، وبكت بحرقة لأول مرة في حياتها. بينما كان سعد يشعر بفراغ كبير لأنه أصبح وحيداً في العالم ولم يعد لحياته أي معنى بما أنه لا يملك زوجة ولا أولاداً يعيش من أجلهم، ولا أباه الذي كان يفني حياته في خدمته. في حين كان حيدر كان متأثرا لرؤية سعد يبكي أباه فبكى معه، وبكى نفسه، وبكى ابنته، وتذكر والده الذي مات ولم يكن معه.

دفن الجد في البقيع في المدينة، وودع الجميع بعضهم على أمل أن يتقابلوا أكثر في المستقبل، فقد وعدت مريم عمها أن تذهب لزيارته في بغداد، وجعلته يعدها أن يأتي هو أيضاً لزيارتهم. كما اتفق سعد مع ميادة أن يبيع كل أملاك والده ويعطي مريم حقها من الميراث، وهذا ما سيُمكّن ميادة من الانتقال إلى لندن وشراء منزل هناك، بما أنه مكان تتجمع فيه الجالية العراقية، فتلك البيئة ستضمن تربية سوية لابنتها وسط مجتمع محافظ على العادات

والتقاليد. لأن المدينة التي يعيشون فيها حالياً خالية من أي عراقيين، وكانت خائفة من تأثر ابنتها أكثر بالمجتمع الغربي، خاصة وهي الآن في سن الزواج، فهي تريدها أن تتزوج برجل عراقي كي تُعمّق صلتها بعروبتها ودينها، لاسيما بعدما حصل مع سارة ابنة حيدر، فهي لا تريد لابنتها أن تحذو حذوها. أما حيدر فقد تصالح مع زوجته وتوسل إليها لتساعده على إقناع سارة بالزواج من صديقها وإدخاله في الإسلام فوافقت، لذا شعر أن هناك أمل باستعادة ابنته وتصحيح الخطأ الذي ارتكبته.

ملحق 4: قراءة في الشخصية الروائية

الشخصية	انتماؤها	وصفها
مريم	شيعية من أب سني	شابة عراقية الأصل في العشرينيات، والدها سني وأمها شيعية، انتقلت مع أمها من العراق إلى بريطانيا وهي في سن التاسعة، تدرس هناك العمارة في الجامعة. تعاني من ازدواجية في الهوية بسبب صراع داخلي بين هويتها الأصلية الإسلامية وهويتها الجديدة الغربية. هي مسلمة ولكن بالاسم فقط، فهي لا تتبع تعاليم الدين الإسلامي وتميل لهويتها الغربية أكثر من العربية.
ميادة	شيعية	والدة مريم. وقد كانت في العراق متزوجة من سني، وعند اندلاع الحرب الطائفية في العراق، مات زوجها على يد الشيعة، وأخوها على يد السنة، لذلك انتقلت للعيش في بريطانيا مع ابنتها هرباً من الموت في وطنها. تحاول ميادة الحفاظ على ما تبقى من أثر للهوية العربية المسلمة فيها، كما تحاول ترسيخها في ابنتها من خلال إعادتها إلى جذورها لإنقاذها من الخطر الذي تواجهه بالعيش في المجتمع الغربي.
حيدر	شيعي	شقيق ميادة، وخال مريم. متزوج من امرأة بريطانية، ويعيش حياة منفتحة في بريطانيا وهو مبتعد كل البعد عن الدين الإسلامي، وقد ربى ابنته على نفس الانفتاح ليصاب في النهاية بصدمة نتيجة حملها خارج إطار الزواج. يعاني من أزمات نفسية وصراع بسبب تنكّره لهويته العربية وانسلاخه عنها واحتقاره للمجتمع الشرقي.
سعد	سني	عم مريم. يعيش في العراق. كان ذو شخصية نرجسية ومتسلطة وصعبة المراس، ثم أصيب بأزمة بعد أن عرف أنه عقيم ولا يمكنه الإنجاب. عاش مأساة تلو الأخرى بدءاً من مقل أخيه عمر، فوفاة والدته، ثم تخلي زوجته عنه، وأخيراً إصابة والده بالزهايمر. بعدها تحول إلى إنسان مختلف تماماً عكس ما كان عليه، وقد كانت أزماته سبباً في عودته إلى الله. لم يعد يرى أي معنى لحياته، لكنه شعر ببصيص أمل بعد أن تواصلت معه ميادة ليلتقي مع ابنة أخيه في العمرة والتي لم يرها منذ أن غادرت بغداد.

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم: برواية حفص.

أ- المصادر:

1- أحمد خيري العمري: كريسماس في مكة، ط1، عصير الكتب للنشر والتوزيع، مصر، 2019.

2- خليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 2003.

3- شريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، د.ط، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

4- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005.

5- محمود بن عمر الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط2، ج3، د.ت.

6-جمال الدين ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، ط2، دار صادر، بيروت، مج 1، د.ت.

ب- المراجع:

7- بيار سالينجر، إريك لوران: حرب الخليج (الملف السري)، ص11، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، 1993.

8- أحمد علي الفلاحي: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية نفسية)، ط1، دار غيداء، عمان، 2013.

9- أسعد شريف الامارة: سيكولوجية الشخصية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 2014.

10- أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، ط1، دار الوسيم، دمشق، 1993.

11- أندرو إدجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية (المفاهيم والمصطلحات الأساسية)، تر: هناء الجوهري، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014.

12- أنيس النقاش: الكونفدرالية المشرقية (صراع الهويات والسياسات)، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، لبنان، 2015.

13- برتي السوتاري: النظرية الاجتماعية والواقع الإنساني، تر: علي فرغلي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.

14- بيلر كوزين: البحث عن الهوية (الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، تر: سامر جميل رضوان، ط1، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، 2010.

15- جون جوزيف: اللغة والهوية (قومية، إثنية، دينية)، تر: عبد النور خراقي، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 2007.

16- حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2006.

17- سوسن شاكر مجيد: اضطرابات الشخصية (أنماطها، قياسها)، ط2، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2015.

18- شارلوت سيمور سميث: موسوعة علم الإنسان (المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية)، تر: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة، د.ت.

19- صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، ط1، دار زهران، الأردن، 2010.

20- عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، د.ط، دار غريب، القاهرة، 2003.

21- عبير بسيوني رضوان: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية، ط1، دار السلام، القاهرة، 2012.

22- عهد كمال شلغين: الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع، د.ط، الهيئة العامة السورية، دمشق، 2014.

23- كارل ألبرت: أنماط الشخصية (أسرار وخفايا)، تر: حسين حمزة، ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2014.

24- مجموعة مؤلفين: الهوية وتحديات العصر (جدل الهويات، حوار المجاورة أو صراع الاختلاف)، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.

25- مجموعة مؤلفين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2013.

26- مجموعة مؤلفين: جامعة الدول العربية الواقع والطموح، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.

27- مجيد طراد: ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.

28- محسن المدرسي: الشباب وأزمة الهوية، د.ط، دار البصائر، 2019.

29- محمد تيسير التميمي: حرب الخليج بين الأسباب والنتائج، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1993.

30- محمد حسين فضل الله، الهجرة والاغتراب (تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة)، ط1، مؤسسة العارف للمطبوعات، لبنان، 1999.

31- محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، 2013.

32- محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1999.

33- محمود رجب: الاغتراب (سيرة مصطلح)، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988.

34- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط5، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007.

35- مصطفى حجازي: الإنسان المهدور (دراسة تحليلية نفسية اجتماعية)، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.

36- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، ط9، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.

37- هاني الجزار: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)، ط1، هلا للنشر والتوزيع، مصر، 2011.

408- ياسين طالب: الاغتراب (تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين وأوضاعهم)، ط1، المكتبة الوطنية، عمان، 1992.

ج- المذكرات والرسائل:

39- حورية هدهود: مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتوافق النفسي الاجتماعي لدى المراهق الجانح، جامعة المسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس، 2012-2013.

40- دانيال علي عباس: رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم النفس التربوي، الاغتراب النفسي وعلاقته بالتحصيل الدراسي، جامعة دمشق، قسم علم النفس، 2015-2016.

41- سماح بن خروف: مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، جامعة الحاج لخضر، قسم اللغة والأدب العربي2011-2012.

42- محمد موسى البلولة الزين: بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في الأدب العربي، الاغتراب والحنين في الشعر المهجري، جامعة الخرطوم، قسم الأدب واللغة العربية، 1997.

د- المجلات:

43- أكرم بلخيري: التعددية الدينية كحل للتعايش السلمي، مجلة العلوم الاجتماعية، ألمانيا، ع07، 2018.

44- ألفرد ستيبان: التعايش في ظل الاختلاف، مجلة أوراق ديمقراطية، العراق، ع02، 2005.

45- زليخة جديدي: الاغتراب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ع8، 2012.

46- عبود شلتاغ: في المصطلح الثقافي والتغريب، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع33، 2001.

47- عقيل عباس: الإسلام السياسي الشيعي في العراق والديمقراطية التوافقية: إشكاليات الخطاب وتحديات التنوع، مجلة سياسات عربية، قطر، ع29، 2017.

48- علي يونس عمر النعيمي: دور الأمم المتحدة في إدارة حرب الخليج الثالثة (2003)، المجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، مصر، ع15، 2020.

49- محمد قاسم عبد الله: أضواء جديدة على سيكولوجية الشخصية، مجلة المعرفة، القاهرة، ع403، 1997.

50- محمد محمود نجيب، هبة محمود محمد: أزمة الهوية لدى طلاب الجامعة، مجلة بحوث التربية النوعية، القاهرة، ع41، 2016.

51- مدحت فوزي عبد المعطي حسين: الاغتراب في شعر ابن لنك البصري (الأبعاد والمثيرات وميكانيزمات الدفاع)، مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، ع35، 2022.

52- مراد وهبه: الاغتراب والوعي الكوني (دراسة في هيجل وماركس وفرويد)، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، 1979.

53- مها توفيق شبيطه: أزمة الهوية للمرآة الفلسطينية ما بين اليسارية والأصولية، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2016.

54- ناهد إبراهيم محمد محمد: الإنسان بين الغرابة والاغتراب في الفلسفة اليونانية، مجلة آداب عين شمس، مصر، ع48، 2020.

55- همت بسيوني عبد العزيز محمد: ظاهرة الاغتراب وأزمة الهوية في المسرح المصري المعاصر (دراسة في علم اجتماع الأدب)، مجلة كلية الآداب للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مصر، ع2، 2019.

هـ- المواقع:

56- أحمد أبو رتيمة: المغتربون العرب في الغرب... صراع الهوية والاندماج، arabi21.com.

57 اللجنة الدولية للصليب الأحمر: الهجرة والتحديات الإنسانية، www.icrc.org.

58- أمل شاكر: الاغتراب الأسري أخطر الأمراض الاجتماعية، gate.ahram.org.eg.

59- حسن حنفي: الهوية والاغتراب في الوعي العربي، alantologia.com.

60- رمز النجمة الثمانية بين العصور القديمة والحضارة العربية الإسلامية، wikimaghreb.com.

61- زكرياء الجزائري: مقابلة مع الكاتب أحمد خيري العمري، قناة الأنيس الفضائية، الجزائر، 9 نوفمبر 2019.

62- سخري محمد: قراءة في إشكالية الهوية الوطنية العراقية، www.politics-dz.com.

63- عبد الحسين شعبان: وماذا عن الشتات العراقي؟، www.aljazeera.net.

64- عبد الله جمال حسني يوسف: أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق، المركز الديمقراطي العربي، democraticac.de، الموضع: الدراسات البحثية.

65- فاطمة الشمراني: كراهية الذات والسلوك الهدام، shabab.in.

66- محمود متولي: ازدواج الهوية... صراع بين الانتماء للوطن البديل والولاء الأصيل.

67- ندى نسيم: خطر الاغتراب الأسري، albiladpress.com.

68- نوال الحلح: الاغتراب اللغوي في بلاد اللجوء: عقبة أم عتبة، abwab.eu.

69- هزار نجار: الجيل الثاني من المهاجرين، سؤال الهوية وتحديات الاندماج، www.noonpost.com.

70- هيئة تحرير النجاح: مفهوم الاغتراب النفسي وأسبابه وعلاجه، annajah.net.

71- وليد بدران: ذكرى غزو العراق للكويت: حكاية "عاصفة الصحراء" التي هبت على الشرق الأوسط فغيرته إلى الأبد، www.bbc.com.

72- يوسف محسن: مقدمات نظرية لدراسة الحرب الأهلية الطائفية في العراق 2003-2017، middle-east-online.com.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

فهرس المحتويات	الرقم
مقدمة	**أ–د**
الفصل الأول: ربط مفاهيمي للاغتراب وأزمة الهوية	
المبحث الأول: الاغتراب	ص02-12
المطلب الأول: ضبط المفاهيم (مفهوم الاغتراب)	ص02
1- الاغتراب في اللغة	ص02
2- الاغتراب في الاصطلاح	ص03
أ- في الفكر الغربي	ص04
ب- في الفكر العربي	ص06
3- الغربة والاغتراب: مفارقة مصطلحية	ص07
4- تطور مفهوم الاغتراب	ص08
المطلب الثاني: أسباب الاغتراب وبواعثه	ص09
1- الاجتماعية	ص09
2- الاقتصادية	ص10
3- السياسية	ص11
4- النفسية	ص11
المبحث الثاني: أزمة الهوية	ص12-20
المطلب الأول: ضبط المفاهيم (مفهوم أزمة الهوية)	ص12
1- مفهوم الهوية	ص12
2- مفهوم أزمة الهوية	ص14
المطلب الثاني: مسألة أزمة الهوية	ص15
1- أشكال الهوية	ص15
2- أزمات الهوية	ص16
3- مظاهر أزمة الهوية	ص17
4- أزمة الهوية العربية	ص18
الفصل الثاني: الاغتراب بين راهن الوضع ومسببات الهجرة	
تمهيد	ص22

المبحث الأول: الظروف السياسية للعراق المعاصر	ص23-31
1- أزمة التسعينات (حرب الخليج)	ص23
2- أزمة الألفية الجديدة والصراع ضمن شرق أوسط جديد (مشروع تفتيت المنطقة عبر اللعب على الوتر الطائفي)	ص25
3- الهجرة بعد الغزو (الأسباب والتداعيات)	ص28
المبحث الثاني: صراع الهوية والاندماج	ص31-35
جدلية الصراع بين القديم والجديد في الغرب	ص31
1- الصراع بين المكونات الأولى (الأسر والعائلات)	ص32
2- الصراع بين المكونات الثانية/ اللاحقة (الجيل الجديد)	ص34
الفصل الثالث: إشكالية الاغتراب وأزمة الهوية في الرواية	
تمهيد	ص37
المبحث الأول: مظاهر الاغتراب (تداعيات الهجرة)	ص38-65
المطلب الأول: أنواع الاغتراب في الرواية	ص39
1- الاغتراب النفسي	ص39
2- الاغتراب الاجتماعي	ص43
3- الاغتراب الثقافي	ص46
4- الاغتراب الأسري	ص49
5- الاغتراب اللغوي	ص53
المطلب الثاني: سيكولوجية الشخصية المغتربة	ص54
1- الشخصية الفصامية (الشيزية)	ص55
2- الشخصية القلقة	ص56
3- الشخصية المكتئبة	ص59
4- الشخصية المحتقرة للذات	ص61
5- الشخصية المتأرجحة بين عوالم الضياع والتخيلات	ص63
المبحث الثاني: مظاهر الأزمة الهوياتية	ص65-91
1- أزمة التدين (الدين)	ص66
أ- الابتعاد عن الدين	ص68
ب- الاستهزاء بالدين	ص70
ج- التمسك بالدين	ص72

2- أزمة الازدواجية (الذات بين هويتين)	ص73
3- أزمة التنشئة والتربية	ص78
4- أزمة الترابط الاجتماعي	ص80
أ- العنصرية	ص80
ب- التعايش في ظل الاختلاف الديني والعرقي	ص83
5- أزمة البحث عن الهوية	ص86
6- إيديولوجية الرواية	ص89
خاتمة	ص93
ملاحق	ص96
قائمة المصادر والمراجع	ص106

*ملحق بالقرار رقم ....1082.... المؤرخ في ..... 27 ديسمبر 2020 .....
الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مؤسسة التعليم العالي والبحث العلمي:

نموذج التصريح الشرفي
الخاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

أنا الممضي أسفله،
السيد(ة): ..... بوخاوي أحلام ..... الصفة: طالب، أستاذ، باحث ..... طالبة .....
الحامل(ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 106664539 والصادرة بتاريخ ..... 16 نوفمبر 2017 .....
المسجل(ة) بكلية / معهد ..... الآداب واللغات ..... قسم ..... اللغة والأدب العربي .....
والمكلف(ة) بإنجاز أعمال بحث (مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه)،
عنوانها: ..... الاغتراب وأزمة الهوية في رواية "كريستالس في مكة" لأحمد .....
..... خيري العمري مقاربة تحليلية .....

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه .

التاريخ: ..... 28 ماي 2023 .....

توقيع المعني (ة)

*ملحق بالقرار رقم ....1082.... المؤرخ في ..... 27 ديسمبر 2020 .....
الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها

1

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مؤسسة التعليم العالي والبحث العلمي:

نموذج التصريح الشرفي
الخاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

أنا الممضي أسفله،

السيد(ة): ..... تركي ياسين ..... الصفة: طالب، أستاذ، باحث ..... طالب .....

الحامل(ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 403916708 والصادرة بتاريخ ..... 2022/09/11 .....

المسجل(ة) بكلية / معهد ..... الآداب واللغات ..... قسم ..... اللغة والأدب العربي .....

والمكلف(ة) بإنجاز أعمال بحث (مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه)،

عنوانها: ..... الاغتراب وأزمة الهوية في رواية "كريسماس في مكة" لأحمد .....

..... خيري العمري - مقاربة نصية .....

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه .

التاريخ: ...28...ماي...2023...

توقيع المعني (ة)

ملخص:

تناولت هذه الدراسة موضوعاً يُعد من أخطر الموضوعات المعاصرة، وهو الاغتراب وأزمة الهوية لدى الجالية العربية في الغرب، فلقد استحث هذا الموضوع أقلام الكتاب والروائيين المعاصرين فانبروا للكتابة على أوتاره، وانشغلوا بالتعبير عنه ودراسة الجذور والأسباب التي أدت إلى هذا الصراع بين الوافد والراكد. هذا وقد تنوعت اتجاهات الروائيين بين مؤيد ومعارض للهجرة، بين معطٍ للعذر وآخذ بالعذل.

وكانت الدراسة مخصوصة على رواية "كريسماس في مكة" لأحمد خيري العُمَري. وتهدف إلى استجلاء دواعي وأسباب أزمة الاغتراب والهوية والظروف المحيطة بهما، وكذا الآثار المترتبة عن هذه الأزمة النفسية منها والاجتماعية على الشخصيات والمجتمع. بالإضافة إلى أن المذكرة تبرز أهمية الدور الإبداعي للروائيين في تسليط الضوء على قضية الاغتراب وأزمة الهوية ومحاولة إيجاد حلول لتجاوز هذه الظاهرة التي باتت تشكل مسألة حساسة وملحة في وقتنا المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الهجرة، سيكولوجية الشخصية، الهوية، أزمة الهوية، الدين، رواية كريسماس في مكة.

Summary:

This study addressed a subject that is considered one of the most critical contemporary issues, which is the alienation and identity crisis among the Arab community in the West. This topic has urged the pens of contemporary writers and novelists to write about it, so they focused on expressing it, as well as studying the roots and causes that have led to this conflict between the newcomer and the resident. The novelists's tendencies varied between supporting and opposing immigration, with some sympathizing and others blaming.

The study was specifically focused on the novel "Christmas in Mecca" by Ahmed Kheiri Al Omari. Its aim is to elucidate the reasons and causes of the alienation and identity crisis, along with the surrounding circumstances, as well as the psychological and social effects that result from this crisis on individuals and society. Additionally, the thesis highlights the importance of novel creativity's role in shedding light on the issue of alienation and identity crisis, and attempting to find solutions to overcome this phenomenon that has become a sensitive and urgent matter in our contemporary time.